وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
٧١٣

الأيام المؤلمة فى اسرائيل

JEAN-CLAUDE GUILLEBAUD

les Jours terribles d'Israël

L HISTOIRE IMMEDIATE SEUIL

وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
٧١٣

الأيام المؤلمة في إسرائيل

تأليف
جان كلود جييوه

LES JOURS TERRLBLES
d'lSRAEL
De
Jean - Claude Guillebaud



تقديم

تعددت الكتب التى تصدر ، على المستوى العالمى ، عن ذلك الحدث الهائل الحجم الذى عرف باسم « حرب أكتوبر ٧٣ » ، لكى تدرسه فى روية ، وتكشف عن بعض أبعاده التى كان من شانها ان غيرت مفاهيم كثيرة كانت قد استقرت فى الاذهان ، وتحولت على مر الزمن الى حقائق ، كان المعتقد انها ثبتت الى الابد .

ويكشف كتاب « أيام اسرائيل المؤلمة » الستار عن الاوهام التى كانت تراود عتاة الصهيونية ، ويبين مدى الفجيعة التى المت بالاسرائيليين ، وهم يلمسون كم خدعهم ، زعماؤهم فى المؤسسة العسكرية ، عندما زعموا لهم انهم عنصر فريد متفوق ، لا قبل للعرب بهم ، فاذا هم فى عشية او ضحاها ، صرعى هذا الادعاء الكبير .

والواقع ان الكتاب يركز على هذا المعنى ، ويوضح الهلع الذى عم بين افراد الشعب اليهودى العاديين ، غداة عرفوا بعدد قتلاهم ، بعد ان روعوا تماما بانباء سقوط خطهم المنيع على الضفة الشرقية للقناة ، فور الهجوم المصرى بساعات .

ولعل اوضح تعبير من المؤلف عن جسامة الضربة العربية ووقعها الاليم على اسرائيل ، انه سمى كتابه « ايام اسرائيل المؤلمة » ، وهو نوع من الجناس يقصد به ان يقارن بين الأيام العشرة التى تسبق عيد الغفران العبرى ، التى يظل اليهود خلالها ينزلون بانفسهم اشد انواع العذاب النفسى والجسدى ، تكفيرا عما ارتكبوه من جرائم وآثام طوال العام ، على اعتقاد منهم بأن ذلك يبرىء ضمائرهم ، ويعتبرونه ثمنا يدفعونه لقاء تلك الجرائم والآثام .

ولما كانوا يسمون هذه الأيام منذ آلاف السنين بالأيام الرهيبة ، فان هذه الاستعارة من جانب مؤلف الكتاب تعنى صراحة ان الضربة التى تلقتها

اسرائيل على ايدى القوات العربية فى حرب اكتوبر ٧٣ ، هى ذلك الجـزاء العادل على اجترائها على العرب واحتلالها لاراضيهم ...

وثمة امر آخـر يعكسـه هذا الكتاب ، هو ذلك الانطباع الذى يخرج القارىء به ، ويجعله يلمس نوعا من الخوف اخذ يشيع فى قلوب البسطاء من الاسرائيليين لا يكتمونه ، وهو خوف على مستقبلهم فى منطقة جىء بهم اليها وهم على ثقة من انها قد اصبحت لهم الى الأبد ، واذا بالاحتمالات كلها تصبح ممكنة الوقوع .

ولا يقتصر هذا الخوف على هؤلاء البسطاء ، وانما يمتد فيشمل حتى من يصفون أنفسهم بالصقور ، ولو انهم يحسنون اخفـاءه وراء التشـدد والتطرف الذى يتظاهرون به ، رغبـة فى اسـتعادة جسـارتهم المدعاة ، وشجاعتهم المفقودة .

واذا خال للبعض ان اسرائيل لا تزال الى اليوم ، هى ذلك البناء الشامخ الذى اقيم على اطلال العرب ، ولا قبل لهم بزعزعته او تدميره ، فعليهم ان يمعنوا النظر فى هذا الكتاب ، ويعملوا الفكر فيما ينطوى عليه من اشـارات واضحة ومستترة ، عساهم يدركون الأبعاد الحقيقية لما وقع يوم السادس من اكتوبر ١٩٧٣ فى هذه المنطقة من العالم ، وهو شىء له آثار اعمق بكثير مما يبدو حتى الآن .

مقـــدمة

العام الاخير .. فى القدس

فى الساعة العاشرة والدقيقة السادسة من صباح اليوم الاول من ديسمبر ١٩٧٣ اسلم الروح ، فى مستشفى (تيدهاشومير) بالقرب من تل أبيب ، شيخ فى السابعة والثمانين من عمره .

ولان ذلك اليوم كان يوم سبت ، لم يصدر اى بيان رسمى يعلن للاسرائيليين انهم ودعوا ذلك ((النبى المسلح)) الذى خرج من مدينة (بلونسك) فى بولندا فى شهر اغسطس ١٩٠٦ ، لكى يجمع شعبا مشتتا ، ويؤسس دولة اسرائيل .

وهكذا ، فان ذلك الرجل الذى كان يدعى آنذاك (دافيد جرين) والذى كان يكرر دائما قوله .. ((لسوف ترون انى سوف اصبح زعيما للشعب اليهودى ، هكذا يكون قد فارق اهله وذويه بعد سبعة وستين عاما ، كما لو كان يمشى على اطراف اصابعه .

ان تكلما الخصلتين من الشعر الابيض اللتين كانتا تشبهان الجناحين ، لا تزالان تحيطان بذلك الجبين العريض الذى اصبح فجاة باردا . وفى اليوم الثالث من ديسمبر ، قدمت احدى طائرات الهليكوبتر وحملت جثمانه ميممة شطر مستعمرة (سيدبوكر) ومعناها حقول الرعاة ، حيث دفن فى رمال صحراء النقب فى غير ما خطب ولا موسيقى عسكرية . وفى تمام الساعة الحادية عشرة بالضبط ، دوت فى جميع ارجاء اسرائيل صفارات الانذار ، لكى تقول للاسرائيليين ان يبكوا ((شيخهم)) .. دقيقة واحدة .

ولم يقل دافيد بن جوريون شيئا قبل ان يموت ، غير انه راى كل شىء . لقد كان فى وسع القدر ان يعفى ((الأسد)) المريض ، الذى اصيب بنزيف فى المخ يوم ١٨ من نوفمبر السابق ، لتلك الاسابيع الثمانية الاخيرة من عمره . وبذلك كان يمكن ان يحمل معه الى قبره صورة دولة تقف منتصرة فى عيدها الخامس والعشرين فخورة بما حققته مزهوة بقوتها . ولقد تكون مدركة لمظالم ارتكبتها ، ولكنها تكرر وراء بن جوريون نفسه ما سبق ان قاله وهو .. ((لا يهم ما يقوله الاناس المهذبون ، ولكن الذى يهم .. هو ما يفعله اليهود)) . انه تفاخر .. وجد .

ولكن .. وآسفاه .. فان القدر كان قاسيا . ذلك ان صحوة اول رئيس لمجلس الوزراء الاسرائيلي في ايامه الاخيرة ، هي التي جعلته يشهد انهيار عالم باكمله . وهذا العالم كان عالمه . لقد رأى وهو في قلب مستعمرته ، اسرائيل وهي تنسحق في ايام قلائل ، نتيجة لزلزال كان اكثر وحشية مما هو حرب رابعة . ثم راح يتابع سقوط اسرائيل الحاد وهي تهوى هذه المرة من علوها الشامخ الذي اطمانت له ، حتى قاع من الضياع لا قرار له .

فهل كان انور السادات يتصور ، وهو يطلق في الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر دباباته وجنوده لعبور قناة السويس ، انه انما أطلق قوة عاتية رهيبة ، كان من شانها تغيير هذا العالم ؟ ان كل شيء ، من اوروبا الى امريكا ، ومن افريقيا الى آسيا ، لم يبق على حالته التي كان عليها ، منذ حرب يوم « عيد الغفران » . ومع التجاوز عن الأمور المتعلقة بالبترول والطاقة ، فان شيئا ما اكثر عمقا قد انقلب راسا على عقب ، في تلك العلاقة التي كانت قائمة بين العالم الصناعي ، واقطاعياته القديمة .

لقد اخذ كل انسان يحاول ، بعد ان فقد نقط ارتكازه السابقة ، ان يلمس مرة اخرى باصابعه مفاتيح المستقبل ، وهو مستقبل لم يعد في الامكان تصوره .

الا ان هذا الانقلاب المروع قد اتخذ ، فيما يتعلق باسرائيل ، شكل الزلزال المدمر . ذلك ان الحرب التي عصفت بها كانت قاسية عليها في ميادين القتال ، ثم كانت اشد من ذلك دمارا على النفوس . وقد شهدت « الأيام المؤلمة » وهي الأيام التي تسبق عند اليهود يوم عيد الغفران ، مصرع حلم كبير تهاوى ، ورأت بعد ذلك صورة معينة لاسرائيل ، وهي تزول الى الأبد .

ولقد مر الآلاف من اليهود ، يومي الأحد والاثنين الثاني والثالث من شهر ديسمبر امام مدخل مبنى الكنيست بالقدس ، حيث رقد جثمان بن جوريون في نعش بسيط متواضع ، يحيط به الحرس البرلماني ، واثنان من رجال الدين العسكريين .

وكانت الشمس ساطعة ، فازاحت السحب الكثيفة المعروفة عن الشتاء في اسرائيل ، وبدا الطابور الطويل الذي اصطف فيه الجمهور يتعرج ويترمى، حتى التلال البعيدة . ولم يكن اولئك الشباب والشيوخ الذين يتوقفون لحظة امام النعش يبكون في ذلك اليوم « ابا اسرائيل » فقط ، او الآلفين والثلاثمائة

قتيل الذين سقطوا فى تلك الحرب فحسب . لكنهم كانوا يوارون التراب عالما بأسره ، وربما ايضا خطا صهيونيا جسيما ، كان الاســد العجــوز قد ساعد فى مولده ، واذا به يموت معه .

وليس هناك اليوم من يعرف المستقبل الذى سوف تئول اليه اسرائيل ، وقد اصبحت تقف فجاة وحيدة ، فى عالم متغير . على ان هناك شيئا واحدا مقطوعا به ، هو انه لن تقوم بعد الآن ، والى الأبد ، اسرائيل كما كانت عام ١٩٧٣ ، اواسرائيل كما كانت فى عهد بن جوريون .

وبغير رغبــة لا جدوى منهــا فى مخاصــمة احــد ، وبدون عودة الى المناقشات التى جرت حول الصهيونية التى نعرف ابعادها ، سوف نرى فى بساطة قصة ((الأيام المؤلمة)) ، تماما كما عشناها .

المؤلف

ج . ك . ج

الفصل الأول

((روش هاشانا)) عام ٥٧٣٤
وأوهام عيد العام الجديد

((أن السلام أقل بعدا مما كان))

جولدا مائير فى رسالة العام الجديد
اليهودى يوم ١٨ من سبتمبر ١٩٧١ .

٢٦ سبتمبر ١٩٧٣ ، انه العيد . انه يقل فى سمته الدينية عنه فى طابعه الالحادى . انه البهجة والاستمتاع . لقد جمعت شركة (ايجد) ثلاثة آلاف سيارة ركاب من أجل العام اليهودى الجديد ، الذى يشبه عيد ١٥ من اغسطس الفرنسى . وقد حملت هذه السيارات أكثر من مليون اسرائيلى نحو شواطىء ايلات أو شرم الشيخ والى البحر الميت ، وحانات بحيرة طبرية ، ونحو الواحات العربية الحلوة فى العريش التى تطل على البحر المتوسط .. أن الذى يحتل هذه الأراضى لم يعد جيش الدفاع الاسرائيلى (تساهال) ، وانما هو جيش المتنزهين .

انه احدى العطلات الاسبوعية الطويلة .. وفى هذا اليوم تخرج اسرائيل من اقصاها الى أقصاها لتلقى بنفسها فوق الطرقات . وأولئك الذين لن يكون عليهم أن يستقلوا سيارات شركة (ايجد) وهم أصحاب السيارات الخاصة ــ سوف ينطلقون فى سرعة بسياراتهم المتلاصقة بعضها ببعض ، وفى اتجاه الجنوب . ان السيارة وهى من السلع الكمالية التى تفرض عليها ضريبة باهظة ، لا تزال مع ذلك نعمة سائدة فى اسرائيل ، وتقول احصائيات العام انه لكل سبعة أشخاص سيارة واحدة .

ان اسرائيل دولة ثرية . ان طرق السيارات العريضة ، والجديدة التى تخرج من القدس أو من حيفا ، كانت فى الأيام الواقعة بين السادس والعشرين والتاسع والعشرين من ذلك الشهر ، تشبه تماما أى طريق سيارات فى دول الغرب أيام الأعياد وقد يستثنى من ذلك مجموعات الذين يتجمعون لدى

مفارق الطرق لايقاف السيارات ذلك أن الشبان والشابات الذين يرفعون اصابع الابهام وهم وقوف على حافة الطرق ، ما يزالون يرتدون زى الجنود .

انه مجرد تفصيل :

ولا بد من ان ذلك اليوم سيكون عيدا صاخبا ، بما فى ذلك من اختناقات الطرق وما يقع من حوادث . فلقد كانت سيناء وحدها تنتظر ١٥٠ الف زائر . لقد اضطر (ريوفين آلونى) المسئول عن الشئون المدنية فى القطاع الجنوبى الى ان يجمع رجال الصحافة فى المركز الصحفى فى (بيت سوكولوف) ، وهو المكان الذى تعقد فيه عادة الاجتماعات العسكرية . وقال المسئول الاسرائيلى : ان اجتماعنا فى هذه المرة لا يتعلق ببيانات للعمليات ، وانما لاقول أن وزارة السياحة وادارة البوليس قد خصصت ١٥٠ فريقا لتقديم العون للزوار » ثم راح بعد ذلك يقدم نصائحه فيقول : « لا تنسوا أن تحملوا معكم زجاجات المياه العذبة ، فان سيناء ماتزال صحراء بعد ، والماء الملح الذى نحوله الى ماء عذب فى (دهب) وشرم الشيخ ، مرتفع الثمن » وجاء بعده (أدير شابيرو) المسئول عن مواقف السيارات ، فاوضح ان تلك الأماكن قد اعدت فيها خمسة مواقف كبيرة ، زودت باللوحات وعلامات الارشاد ، بل ان (السوبر ماركت) المقام فى شرم الشيخ سوف يظل مفتوحا خلال ايام العيد الثلاثة .

وجاء دور مسئول البوليس فاوصى جميع أرباب الامر باليقظة والحذر فى قيادة السيارات ، كما أوصاهم بالاناة ، وهى احدى الصفات التى لا يعرفها الاسرائيليون . وفضلا عن ذلك ، فان بوليس تل ابيب قد ارسل الآلاف من المنشورات الدورية الى السكان ، يرجوهم فيها أن يغلقوا بيوتهم بالمفتاح ، فان الجميع يعرفون أن اللصوص سوف ينتهزون فرصة العيد لكى يزاولوا نشاطهم ، واسرائيل لا ينقصها اللصوص . الم يكن سجن الرملة ممتلئا حتى النهاية بالشبان المنحرفين ؟ بل أن المتحدث الرسمى باسم البوليس ، وهو (آموس اريشا) قال : « لا فائدة فى اللجوء الى الحيل القديمة المعهودة ، كترك المصابيح الكهربية مضاءة ، أو ترك جهاز راديو مفتوحا . . فان اللصوص يعرفون ذلك » .

اما مكاتب البريد ، فكانت تعلم أن ١٨ مليون بطاقة معايدة سوف تتدفق على البلاد قادمة من دول الشتات ، أو ذاهبة اليها . وفى الشوارع الكبرى وفى شارع (الملك داود) بالقدس وشارع (ديزنجوف) بتل ابيب ، راح التجار يصفون البضائع المخزونة لديهم ، فكان هناك اقبال شديد على الهدايا ، أو المحال التى تبيع الأزياء الحديثة ، بالرغم من ان الأسعار قد ارتفعت ٣٠٪ . ان اسرائيل تمر بدورها بالمرض الذى تعانى منه الدول الثرية : مرض التضخم

المالى . انها دولة تتجر حتى فى الدين . فقد راحت تؤجر مقاعد المعابد فى العيد ، وتأخذ ١٨٠ ليرة اسرائيلية عن المقعد الواحد .

فهل كان ذلك العيد مجرد عيد آخر ؟

كلا .. انه لن يكون بأى حال من الاحوال كالأعياد الاخرى ، انه الذكرى الخامسة والعشرون لقيام الدولة الصهيونية . ذلك أن اليوم السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣ ، يقابل فى التقويم العبرى ٢٩ من أيلول عام ٥٧٣٣ ، وهو آخر يوم فى العام . وهكذا فان عيد (روش هاشانا) يحل فى اليوم التالى الموافق الأول من تشرين عام ٥٧٣٤ . وبعد ذلك بعشرة أيام سوف يجىء عيد (يوم كيبور) أو عيد الغفران ، وهو وقت التوافق الالهى ، والحساب الروحى . وهذه الأيام العشرة تحمل اسما خاصا فى التقاليد اليهودية : انها (الأيام الرهيبة) التى يقال لها بالعبرية (يامين نورايبم) . انها اقواس تفتح لسؤال النفس وفحص الضمير الذى توزع بين اللذات الالحادية فى (روش هاشانا) ، وبين الاستغفار فى عيد (يوم كيبور) . أنه عيد بغير نزهات ، ولا خروج فى السيارات .

وليس هناك من شك فى أن الاسرائيليين الذين يهتزون تدينا لدى قراءة وصايا التوراة قليلون ، ذلك أن الايمان فى اسرائيل ، كما هو الحال فى كل مكان من هذا العالم ، آخذ فى الذوبان فى مادية العصر ، مما جعل الأعياد حتى فى اسرائيل ، تصبح ذريعة للمتعة وليس للخشوع .

ومع ذلك ، فانه اذا كان ما يزال هناك يوم فى العام ـ اليوم الأخير ـ يشعر فيه الجميع ، حتى الشاب من الصابرا ، بشىء ما يتحرك فى أعماقه من التقاليد اليهودية ، فان هذا اليوم هو يوم عيد الكيبور . وهذا العيد يحل بعد عشرة ايام .

وفى تلك اللحظة ، لم تكن اسرائيل كلها قد توقفت عن التعليق على آخر نصر اسرائيلى تحقق فى ذلك الأسبوع . ففى يوم ٢٠ سبتمبر ، وأمام عشرة آلاف متفرج أخذوا يصيحون وهم مجتمعون فى قصر الرياضة (ياد الياهوف) بتل أبيب الذى حطموا أبوابه ، ألقى (رافائيل هالبرين) بطل العالم فى المصارعة الحرة الذى يبلغ وزنه ٩٦ كيلو جراما على الأرض بعد ١٧ دقيقة ، خصمه الأردنى (أبو عنتر) ، الذى يبلغ وزنه ١٠٦ كيلوجرامات ، وقد تدثر بكوفيته البيضاء ذات النقط السوداء ، وعباءته الذهبية الفضفاضة .

كانت تلك اول مرة يلتقى فيها احد اليهود (رياضيا) مع عربى ، فوق حلقات اسرائيل . وخلال عدة اسابيع ، ظلت احتمالات هذه الجولة تعبىء البلاد كلها ، مما طغى حتى على ضجيج المعركة الانتخابية . حقا ان (رافائيل هالبرين) المشهور بين الجالية اليهودية الأمريكية ليس مجرد مصارع ممتاز، ولكنه يهودى من الذين يحافظون على التقاليد ، قالت الصحف انه أول مصارع يصعد فوق الحلقة وقد وضع (نجمة داود) على ردائه ، وعلى رأسه (الطاقية) ، كما كان يفعل المسيحيون الأوائل ، عندما كانوا يواجهون الأسود فى الحلبة . ولا مثيل لذلك على الاطلاق فى اسرائيل ، والتوراة تشارك فى مخاطر المصارعة . وها هو ذا واحد من اليهود . متدين له عضلات قوية ، يفوز وينتصر ، انه واحد يضاف الى الآخرين . ثم .. ألم يحدث ذات يوم ، وفى (ماديسون سكوير جاردن) فى نيويورك ، ان وصف أحد الخصوم هالبرين هذا بانه « يهودى قذر » ؟ ولقد ثار هالبرين وغضب ، ورفع عدو السامية فى الهواء ، قبل ان يطوح به على جمهور المشاهدين . لقد تذوقت اسرائيل طعم الرمز ، وطعم النصر .

وفى ٢٠ من سبتمبر ، كانت ضربة واحدة من يد (هالبرين) هى التى سحقت حاجب الأردنى ، الذى اضطر الى الانسحاب ، وقد أعمته الدماء التى سالت على عينيه . وعند ذلك تصاعدت من العشرة آلاف مشاهد الذين كان نصفهم من اليهود ونصفهم الآخر من الفلسطينيين ، هتافات اختلط فيها الفرح والغضب . ولم تقع معارك فى ذلك اليوم ، فان البوليس كان قد اتخذ الاحتياطات اللازمة واعد القنابل المسيلة للدموع . وفى نهاية المباراة ، وقف (عبد العزيز الزغبى) نائب وزير الصحة لكى يختتم هذا الفصل قائلا : «أن هذا فال خير .. وهذا اللقاء يبشر بتطور العلاقة المتناسقة بين اليهود والعرب ، فى نطاق سلام أرجو أن يكون قريبا » . كما اثير موضوع شغب آخر فى حانات (ديزنجوف) ، سببه مباريات كأس كرة القدم التى كانت قد بدأت منذ ١٥ سبتمبر . وكرة القدم التى تعتبر وسيلة اللهو الوحيدة فى اسرائيل أيام السبت ، تعتبر من الأحداث الهامة ، كما أن شراء هذا اللاعب أو ذاك يكون موضع تعليقات لا نهاية لها . وفى ذلك العام كان اكبر مبلغ دفع لشراء أحد اللاعبين ، هو ما دفعه نادى (المكابى) لكى يستحوذ على اللاعب (دروكر) وكان ٧٠ ألف ليرة اسرائيلية . وكان ثمنا مرتفعا .

والاسرائيليون عندما لا يتحدثون عن المصارعة أو عن كرة القدم ، فانهم يلجأون الى الاضرابات التى لا عدد لها ، وتمتلىء الصحف يوما بعد يوم بأنبائها وما يتعلق بها من مطالب وخلافات . فهناك اضراب سائقى المركبات ، واضراب المستشفيات ، واضراب العاملين فى الأرصاد الجوية .. ومنذ عام والاقتصاد

الاسرائيلى يهتز ، والاستهلاك يتصاعد ، والأيدى العاملة تتناقص مما يؤدى الى ارتفاع جنوني فى الأسعار ، لا تستطيع الاجور ملاحقته . ومن هنا تنجم الاضرابات والمشاجرات .

وعلى عكس ما حدث فى عام ١٩٦٧ عندما كان الوضع الاقتصادى عشية حرب الأيام الستة يسير نحو الكارثة ، فان الحال هذه المرة كانت اضرابا من نوع « اضرابات الاغنياء » . وكانت هذه الاضرابات تتناول جميع قطاعات المجتمع الاسرائيلى ، كلا بدوره . وحتى ذلك الزحف الرياضى الكبير الذى ينظم كل عام ويستمر ثلاثة أيام ، قد تأثر بالاضرابات عندما كان يشترك فيه يوم ١٧ من سبتمبر عشرون ألفا يسيرون على الطرقات فى اسرائيل . ذلك ان مدربى منظمة (جادنا) للشباب قد رفضوا الاشتراك فى هذا الزحف الرياضى ، أحتجاجا على سوء ظروف العمل . ثم جاء اتحاد مدرسى المدارس العليا فزادوا الموقف تفاقما ، اذ منعوا اعضاءه من الحلول محل المضربين لقد كانت للاتحاد نفسه مطالب خاصة به ، فمن ذا الذى ليست له مطالب فى اسرائيل ؟

وها هى نزهات الهواء الطلق تتم فى جو قائظ ، وها هى ذكريات التجارة وحماس الرياضة ، والاضرابات ومواكبها ، وامراض الوفرة والسلام . كلا . . ان هذا العيد ليس كسائر الأعياد ، فهل اسرائيل فى هذا العام مازالت تشبه اسرائيل فيما قبل ذلك ؟ أن الصحف التى صدرت يوم ٢٦ من سبتمبر ، خصص فيها المحررون مقالاتهم لميزانية آخر العام ، ذلك انها كانت ايضا ميزانية مرور ربع قرن . ولقد احتفلت اسرائيل فى عام ١٩٧٣ بالذكرى الخامسة والعشرين لقيام الدولة اليهودية ، يوم ١٤ من مايو ١٩٤٨ ، فراحت الصحف تكتب قائلة انها ستكون دولة « اساسها الحرية والعدل والسلام ، كما كان يهدف انبياء اسرائيل . انها ستضمن لجميع سكانها ، كائنة ما كانت أديانهم او جنسياتهم او نوعهم ، مساواة كاملة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية وستضمن حرية العبادة والضمير واللغة والتعليم والثقافة ، وستحافظ على الأماكن المقدسة لجميع الديانات ، وستكون مخلصة لمبادىء ميثاق الأمم المتحدة » .

خمسة وعشرون عاما :

ان المثقفين اليهود الذين جثموا فوق كل تلك الأعوام الدامية المرهقة ، وفى أعقاب الكثير من القلق والهلع ، وبعد ثلاث حروب ناجحة وسقوط الكثير من الأبرياء فانهم راحوا يتساءلون جميعا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٣ ، عما اذا كانت اسرائيل لا تشبه آخر المطاف ، بلدا مثل جميع البلاد الاخرى . انها

أغنى ، بل واقوى من اكثر الامم التى فى مثل عمرها . ولقد يمكن أن تكون مواجهة بتناقضات المجتمع المتطور او بالدولة الدينية ، غير أنها قد تحررت من نوع خاص من الخوف ، هو الخوف من عدم البقاء . اليست كل هذه الأسئلة التى تقض مضاجعهم وتلح على اسرائيل فى ذلك العام ، هى الدليل على هذا الخوف ؟ ثم . . من هو اليهودى ؟ وهل الاسرائيليون جميعا مازالوا اشتراكيين ؟ وهل الدولة الدينية دولة شرعية ؟ وكم من الأراضى المحتلة يتعين اعادتها ؟

ان طرح الاسئلة على النفس ، هو نوع من الرفاهية بالنسبة لدولة رفعت طويلا ، كرمز وطنى ، عبارة صغيرة لا نقاش فيها تقول : « ليس امامنـا من خيـار » .

وأن اسرائيل فى هذه المرة قادرة على الاختيار ، والدليل على ذلك اولئك المثقفون أنصار السلام ، الذين يلومون المنظمة العمالية على جمودها فى المجال الدبلوماسى ، أو « الحمائم » الذين لا يقبلون الا أقل ما يمكن من الأراضى المحتلة التى يتعين ضمها ، أنهم يستطيعون الاعتراض على « خط ديان » . ولكن ذلك يحدث فقط لأن فى اسرائيل أساسا مشتركا « لليقين الذى يبعث على الاطمئنان ، أنه « منطقة واقية » تتيح النقاش ، بغير خوف من هبوب العاصفة . أن حرب الاستنزاف خلال عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، والتى كانت مؤلمة ومرهقة ، قد انتهت منذ ثلاثة أعوام . ولقد أتاح هذا الهدوء الذى استمر ثلاثين شهرا لمجموعة من « الحقائق التى لا نقاش فيها ، وأن تتخذ الطابع البرجوازى . أن هذه الحقائق وحدها هى التى تسمح لاسرائيل بأن تثق — للمرة الأولى منذ وجودها — فى الوقت الذى يمر ، وفى أن تستخدمه كسلاح فيما يتعلق بأنصار الوضع الراهن .

فكيف كان ذلك ولمـاذا ؟

أن الحقيقة الأولى هى الأمن العسكرى . والعالم كله يؤمن بذلك ، لان كل شىء ينهض دليلا عليه . فمنذ عام ١٩٦٧ ، واسرائيل دولة منتصرة ، مزودة بسلاح لا يقهر . وهذه القوة التى دفع ثمنها غاليا على « الجبهة السياسية » الدولية ، ليس هناك أى شىء يمكن أن يعترض على حقيقتها — حتى اذا كان اليسار الاسرائيلى يحذر — وبحق — من عواقبها الكثيرة . أن اسرائيل لديها الجائزة الأولى فى الطيران ، ولديها الجائزة الأولى فى المدرعات ، ولديها الجائزة الممتازة فى ادارات المخابرات . .

حقا أن تلك (الالبومات) العسكرية التى تصور النصر ، والتى طبعت منذ عام ١٩٦٧ ، والاستعراضات الحربية التى تقام فى القدس ، والبطاقات البريدية التى تحمل صورة موشيه ديان ، كل هذه بالتاكيد لها وقع سيء فى نفوس شعب ظل اعواما طويلة ينظر فى حذر الى النزعة العسكرية . غير أن كل هذه الأشياء كان لها اساس تقوم عليه ، فاسرائيل قوة كبرى ، ولديها ذلك الشيء الذى له شهرة لا نهاية لها ، والذى هو موضع فخرها وخيلائها . . وهو جيشها . ويقول الذين يشعرون بالمرارة ، والصهاينة المثاليون ، والعجائز الباقون من مواجهة المهاجرين الثانية عنه : « أنه الوحيد الباقى » (١) . وهذا الشعور مما يمكن تصويره الى الخارج كما أن الاعجاب الذى يشوبه الغضب فى العالم بهذا الجيش ، كان له دخل غير قليل فى تثبيت ذلك الوهم ، الذى يقول : أن الجندى اليهودى لا يعرف الخوف ولا التردد .

وفى ذلك العيد بالعام اليهودى الجديد الذى حل عام ١٩٧٣ ، كان الشعور بالأمن المطلق ينتشر فى أرجاء اسرائيل كلها . وكانت المئات من صفحات الصحف اليهودية التى صدرت بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لقيام الدولة ، جميعها كانت تركز على المجد العسكرى وقوة البلاد .

ولقد استمر معهد الأبحاث الاجتماعية التطبيقية يصدر بانتظام نشراته لقياس الرأى العام ، فكان ما صدر منها فى ربيع وصيف عام ١٩٧٣ لا يقف عند مجرد تصلب اسرائيل ازاء المطالب العربية فحسب ، بل كان يعرب عن شعور الأمن المتزايد لدى الرأى العام الاسرائيلى على المستوى العسكرى . وفى شهر أبريل ، كان ٢١٪ من الاسرائيليين هم الذين أبدوا قلقهم ازاء الدفاع الوطنى ، أما الآخرون فقد ركزوا اهتمامهم على المسائل الشخصية أو الاقتصادية : هل اسرائيل محاصرة ؟ هل اسرائيل يتهددها مائة مليون عربى ؟ دعونا من

---

(١) قسمت موجات المهاجرين المتتالية الى أرقام يرمز كل منها الى مرحلة معينة فى التاريخ اليهودى وتاريخ العالم . فالموجه الاولى (١٨٨٢ — ١٩٠٢) هى التى جاءت من روسيا بعد مذابح عام ١٨٨١ ، والموجة الثانية (١٩٠٤ — ١٩١٥) جاءت بدورها من دول شرقى اوروبا والموجة الثالثة (١٩١٩ — ١٩٢٣) هى التى دخلت اسرائيل بعد الحرب العالمية الاولى ، فى حين ان الموجة الرابعة (١٩٢٤ — ١٩٢٥) جاءت بصفة خاصة من بولندا .

اما الموجات الجماعية الكبيرة فقد حدثت فى الاعوام (١٩٢٣ — ١٩٣٩) مع عمليات الاضطهاد التى تعرض لها اليهود تحت الحكم النازى ، ثم كانت موجات الهجرة السرية غير المشروعة التى وقعت ايام الانتداب البريطانى على فلسطين خلال الفترة (١٩٤٠ — ١٩٤٨) . وبعد عام ١٩٤٩ — اصبحت موجات المهاجرين لا تحمل ارقاما .

ذلك ، فلو أن الاسرائيليين كانوا يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم ابتداء من عام ١٩٧٠ بالتفتيش فى ضمائرهم ــ بوصفهم منتصريين ــ فان ذلك كان ممكنا فقط فى ظل (تساهال) الظليل أى فى ظل الجيش اليهــودى . ثم .. ألم يكن المراقبون الأجانب أنفسهم يؤكدون ذلك ؟

لقد كتب (هولبروك) رئيس تحرير مجلة (السياسة الخارجية) الأمريكية فى شهر سبتمبر يقول : « أن اسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها المضطرب أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ، ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية مثل هذا التفوق . وبعد انقضاء ستة أعوام على حرب الأيام الستة ، فان نشوب أى حرب صريحة بين اسرائيل وجيرانها العرب ، يبدو أقل احتمالا مما كانت عليه فى أى وقت من الأوقات » .

أن هذا الأمن المطلق كان يرتكز فى نفوس الاسرائيليين على ثلاثة عوامل يكمل كل منها الآخر هى : قدرة الجيش اليهودى ، والعمق الاستراتيجى الذى أمدتها به الحدود المؤقتة لعام ١٩٦٧ ، والعجز المفترض لدى عدوها . لقــد كررت جولدا مائير ذلك ، بعــد كثيرين من الوزراء وكبــار الموظفين وكبــار الجنرالات ، اذا قامت يوم ١٩ من سبتمبر فى رسالتها الموجهــة الى يهــود الشتات بمناسبة العيد الجديد : « أن هناك سببين رئيسيين للهدوء الذى يسود خطوط وقف القتال ، هما قوة الردع لدى الجيش الاسرائيلى ، والقوة الداخلية فى اسرائيل » . و فى يوم ٣ من سبتمبر ، عند افتتــاح مستعمرة (هاميوهاد) قالت : « أن السادات لم تواته الشجاعة لكى يعترف بانه يتعين عليه أن يقيم السلام فى اسرائيل ، لأنه عاجز عن هزيمتها فى ميدان القتال ؟ » .

أما موشيه ديان وزير الدفاع ، فانه لم يكن يمضى أسبوع لا يتحدث فيه عن ذلك الأمر بفصاحته المعهودة . وكان موضوعه الأثير هو « استحالة وقوع حرب جديدة » ففى يوم ٩ من اغسطس ، راح يتحدث طويلا عن هذا الموضوع بمناسبة تخريج دفعة جديدة من الأكاديمية العسكرية ، فقال : « أن ضعف العرب يأتى نتيجة عوامل أعتقد أنها لن تتغير فى وقت قريب . وهذه العوامل هى : المستوى المنخفض لتعليم جنودهم وقدرتهم التكنولوجية ، والانقسامات السائدة فى العالم العربى والتى لاتتحسن بين الوقت والآخر الا سطحيا ولفترات قصيرة . أما شبابنا فعلى العكس من ذلك ، فان صفاتهم عالية ســواء من الناحية الثقافية والتكنولوجية ، أو فيما يتعلق بالمهارة والروح القتالية . وفضلا عن ذلك ، فان خطوطنا العسكرية قد أصبحت ملائمة لنا تماما ، وقد أعدت للدفاع والرقابة الألكترونية » .

أن المقطوع به أن توازن القوى العسكرية فى الشرق الأوسط شيء هش ، يتعرض بصفة دائمة للتذبذب نتيجة لتصاعد شحنات الأسلحة الحديثة التى تصل الى المتحاربين وهى الشحنات التى تسمح بها فضلا أو كرها واشنطن وموسكو . (١) وكلما ظهرت فى الشرق الأوسط آلة قتل جديدة ، كان ذلك ذريعة للطرف الآخر لكى يطلب ما يتعادل معها من حماية القوى . ولقد اعتادت جولدا مائير قبل ذلك بثلاثة أعوام أن تطير بشكل رتيب يبعث على السخرية الى واشنطن ، بينما يستدير أنور السادات غالبا نحو موسكو . وتطالب (الجدة اليهودية) وقد امسكت بحقيبتها فى يدها : أن يقدم نيكسون شهرا بعد شهر طائراته الفانتوم الجديدة ، وصواريخه من طراز (تاو) . أما الرئيس المصرى، فانه يغضب لكى يحصل أخيرا من الروس على سرب من طائرات ميج ٢٣ ، أو على بعض الصواريخ المتقدمة على الصواريخ القديمة من طراز سام ٢ وسام ٣ التى ركبت بالقرب من القناة منذ عام ١٩٧٠ . أنها مساع ملحة ، امتلأت جميعا بتقديرات تبعث على الشك ، وتأوهات زائفة ، وحيل سياسية . ثم تأتى الاعلانات المبهمة ، والمسرحية التى تؤدى بكل جانب الى أن يلوح امام خصمه بترسانة مخيفة ، فى نفس الوقت الذى ينعى فيه ضمنا تخلفه الميكانيكى لكى يقنع الدولة التى تورد اليه السلاح بتصحيح اختلال التوازن ، الذى يزعم انه كان خطيرا . ولكن من الذى يصدقه ؟

والواقع أن اسرائيل ، حتى فى مجال التسلح ـ وبالرغم من دعم العرب بالسلاح ـ قد وجدت فى سبتمبر ١٩٧٣ جميع الأسباب التى تطمئنها على قوتها لقد أعاد اليها الخبراء الأجانب الطمأنينة مرة أخرى . ففى التحليل الأخير للميزان العسكرى عام ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ الذى نشره فى آخر اغسطس المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن ، جاء أن التفوق الجوى الاسرائيلى قد تدعم بدرجة كبيرة ، بالرغم من شحنات الطائرات الروسية الكبيرة للدول العربية . وأن اسرائيل تلقت بصفة خاصة عام ١٩٧٣ ، ٣٥ قاذفة مطاردة جديدة من طراز (مكدونل دوجلاس ١ ـ ٤ ى سكاى هوك) ، و ٥ طائرات (ف ٤ ـ س فانتوم) وقال المعهد أنها ستتلقى قبل عام ١٩٧٧ ، ٤٨ طائرة من طراز فانتوم ، ٣٦ من طراز سكاى هوك بصفة اضافية . وأن مجموع ما لدى اسرائيل الآن هو ٤٨٨ مقاتلة يتفوق أغلبها على طائرات الميج . وأن من دواعى فخر اسرائيل أن لديها أفضل الطيارين فى العالم » .

وقبل أسبوعين من عيد (روش هاشانا) ، استطاع الطيارون الاسرائيليون الشبان أن يثبتوا مرة أخرى للرأى العام الاسرائيلى ، أن لهم السيطرة الكاملة

(١) يقول معهد دراسات الاسلحة فى ستوكهولم عام ١٩٧٣ ، ان الدول الكبرى شحنت الى الشرق الاوسط منذ عام ١٩٥٠ من الاسلحة ، ثلاثة اضعاف ما وصل الى فيتنام .

والمطلقة على اجواء الشرق الاوسط ، وانهم يتلاعبون بالأسلحة الجوية العربية . وفى يوم ١٣ من سبتمبر ، وفوق ميناء طرطوس السورى ، تمكنت المطاردات الاسرائيلية بطاقات صواريخها من طراز (شافرير) من اسقاط ١٣ طائرة ميج سورية ، ولم تفقد اسرائيل سوى طائرة واحدة خلال هذا الاشتباك . واحتفلت اسرائيل كلها بهذا النصر ، دون أن تتساءل عن الظروف التى وقع فيها . أن غرابة هذه الظروف لم تظهر الا فيما بعد .. وقد استخرج منها الجنرال حاييم هرتزوج الرئيس السابق للمخابرات والمعلق العسكرى الذى يلقى آذانا صاغية ، درسا وعبرة ، فقال « ان اسرائيل تحتفظ اذن بالتفوق الجوى ، وهو ما يعنى فى الشرق الأوسط التفوق العسكرى . وطالما ظل هذا التفوق باقيا ، فان وقف اطلاق النار سيظل محترما ، بالرغم من الفترات القصيرة التى ينتهك فيها . ومن هنا ، ومن قبيل التناقض ، فان المعركة الجوية التى دارت يوم ١٣ من سبتمبر ، انما تؤكد استمرار وقف اطلاق النـــار » .

أما القوات المدرعة بدورها (٢٠ فرقة و ٢٠٠٠ دبابة و ٣٠٠٠ عربة) فان مجلة (آرمور) العسكرية الأمريكية قد رتبتها بوصفها احدى أقوى الأسلحة المدرعة فى العالم . وتقول المجلة « أن ٧٨٪ من المدرعات الاسرائيلية متفوقة من حيث القدرة على الحركة وفى تسليحها على الدبابات السوفيتية من طراز ٥٤ ت و ٥٥ ت » ويعترف بعض الزعماء العرب انفسهم بالتفوق الساحق فى الآليات الاسرائيلية ففى الحديث الذى أجرته صحيفة النهار يوم ٢٢ من اغسطس فى بيروت مع نصرى معلوف وزير الدفاع اللبنانى قال فى غير مواربة « انه لا بد لنا من عشرة سنوات لكى تتساوى قوة العرب مع قوة اسرائيل » .

الا انه فضلا عن كل ذلك ، فان هناك ذلك العامل الجديد الذى راح العالم بأسره يتحدث عنه وبخاصة فى القدس ، وهو ذلك « النبأ السعيد » الذى جاء عزاء لأكثر المتشككين ومشجعا للصقور ، ويتناول الاستقلال الذاتى المتعاظم لاسرائيل فى ميدان توريدات الأسلحة . فمنذ عام ١٩٦٧ ، استثمر مبلغ تسعة آلاف مليون من الدولارات فى الميزانية العسكرية ، وحققت الصناعات التى تعمل فى التسليح تقدما مذهلا . ذلك انها بعد أن اكتسبت شهرة تقوم على دعائم ثابتة بصناعة المدفع الرشاش الصغير (أوزى) ، فانها تصنع حاليا بندقية هجوم لا مثيل لها هى (جليل) التى ستحل قريبا فى سلاح المشاه محل بنادق (كلاشنكوف) السوفيتية التى كانت من غنائم عام ١٩٦٧ . كما أن مصانع (بيت شميش) سوف تنتج بدورها طائرة مطاردة اسرائيلية تفوق سرعتها سرعة الصوت ، هى عبارة عن خليط من الفانتوم الأمريكية والميراج الفرنسية . وفى مجال الصواريخ ، فان اسرائيل تصنع الصاروخ جابرنيل)

بحر ـ بحر ، والصاروخ (أريحا) ذا المرحلتين ، الذى يبلغ مداه ٥٠٠ كيلو متر ، والصاروخ (لوز) المزود بكاميرا تليفزيونية ، والصاروخ (شافرير) .

ولقد انتجت مصانع بناء السفن فى حيفا مؤخرا الزورق السريع (ريشيف) اى الشرارة ، المزود بسبع قواعد لاطلاق الصاروخ (جابرنيل) ، الذى سيحل محل الزوارق الفرنسية التى أخذت من (شربورج) . وفيما يتعلق بالمدرعات فان المهندسين الاسرائيليين قد اظهروا براعتهم فى تطوير وتحسين دبابات (سنتوريون) البريطانية ، و (شيرمان) الأمريكية ، وذلك بتزويدها بمحركات اقوى وبمدفع جديد عيار ١٠٥ ، حتى فى الدبابات ٥٤ ت و ٥٥ ت السوفيتية التى أخذت من العرب عام ١٩٦٧ . ثم هناك ذلك الموضوع الغامض الذى تدور حوله تعليقات كثيرة ، والخاص بالمعامل الذرية فى (ديمونة) فى صحراء النقب، التى أصبحت قادرة على انتاج ـ او قد انتجت بالفعل ـ السلاح النووى الذى سيزود اسرائيل بقوتها الرادعة الخاصة بها .

أن هذا التطور الهائل فى الصناعات الحربية اليهودية قد اتاح لصحف تل أبيب ان تعلن عدة مرات فى شهرى اغسطس وسبتمبر ١٩٧٣ ، أن الجيش الاسرائيلى سوف يحقق استقلاله الذاتى خلال ثلاث سنوات . ومن بين التعليقات التى جاءت فى هذا الصدد ، ما نشرته صحيفة (انفورماسيون)يوم عيد (روش هاشانا) وقالت فيه : « أن اسرائيل سوف تصبح مستقلة تماما فى مجال التسليح خلال الأعوام العشرة الحالية ، الأمر الذى سوف يبطل تماما جميع محاولات الضغط الدولى على سياستها » . والصحيفة وهى تكتب ذلك، انما كانت تفكر بصفة خاصة فى أمريكا ، التى لم تعد تقدم لاسرائيل المساندة غير المشروطة . (كان الرئيس نيكسون قد صرح مؤخرا بأن كلا الجانبين على خطأ) .

فهل هو التفوق العسكرى ؟ أو الاستقلال التكنولوجى الذى اصبح فى متناول النظرة المجردة ؟ لقد ظهر تعبير جديد فى القاموس العبرى هو « الدولة العظمى » . ولقد اقتنع اليهود بأن اسرائيل أصبحت « احدى الدول العظمى» وراحت الصحف تقول « أن على الدول العظمى نفسها ان تدخل ذلك فى اعتبارها » وليس ذلك فقط ، بل أن الدولة اليهودية اخذت ترى انها بمنأى عن الجيوش العربية بل انها شعرت نتيجة لقواتها انها تحولت الى عامل استقرار دولى فى منطقة الشرق الأوسط كلها . الم يكن وجود الجيش الاسرائيلى هو الذى كان رادعا لسوريا ومانعا لها من التدخل ضد الملك حسين عام ١٩٧٠؟ ألم يكن هذا الجيش نفسه ايضا ، هو الذى جنب لبنان عام ١٩٧٣ تدخل القوات السورية التى كانت تهم بتقديم العون للفلسطينيين فى بيروت ؟ ثم أو لم تسهم اسرائيل بأخذها لقناة السويس ، فى تخفيض النشاط التخريبى للروس فى اليمن والصومال ؟

ان الدوار يصيب المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فى بعض الأحيان . فلقد اقترب الوقت الذى تصبح فيه اسرائيل ، للمرة الأولى فى كل تاريخها . بحيث لا تستجدى انعون من دولة ثرية . وكثيرا ما كانت الاذاعة الاسرائيلية تدير اغنية حافلة بالوقاحة والفظاظة ، تقول بعض كلماتها : « ان العالم كله ضدنا .. ونحن لا نبالى .. نعم لا نبالى » .

أما العامل الثانى الذى كان يدعم الشعور بالأمن الذى لم يسبق له مثيل من قبل ، فهو بطبيعة الحال « الحـدود الاستراتيجية » التى تحققت عام ١٩٦٧ . ذلك أن تل ابيب لم تعد على بعد ٢٠ كيلومترا من المدافع الاردنية كما أن المدفعية السورية التى كانت مركبة قبل ذلك فى دشم الجولان لم تعد تسيطر على مستعمرات وادى الأردن ، وسيناء التى تم (ضمها) تحول الآن بين القدس والجيش المصرى الذى يبعد ٣٠٠ كيلومتر من الصحراء و ١٥٠ مترا عن القناة . ان هذا الابتعاد المفاجىء للجبهة ، هو الذى أبعد الحرب منذ عشرة اعوام عن افق الحياة اليومية . والحرب بدورها أصبحت غير منظورة ، انها شىء تجريدى . ان ذلك ثورة كاملة ، وكل شىء قد تغير ، على الخرائط أو فى النفوس على السواء ، وانتهى بالفعل الاحساس بالحصار . لقد زال الخوف من غارة جوية ، كان يمكنها فى تسع دقائق طيران ، ان تحمل الى تل أبيب طائرات الميج المصرية التى تقلع من العـريش . وجاء فى كتيب صغير اصدرته وزارة الخارجية الاسرائيلية : « وحتى خلال حرب المدافع العنيفة التى دارت فى منطقة القناة عندما كانت تسـقط على القـوات الاسرائيلية من القنابل فى يوم واحد اكثر مما سقط عليها خلال حرب الأيام الستة كلها ، فان شعور اسرائيل بالطمانينة لم يهتز ، وهى طمانينة جديدة تماما » .

أن هذه الدرع من الأراضى التى تم غزوها ، وهذه الكيلومترات المترامية من الفضاء التى يقوم وراءها الاحساس بالطمانينة فى اسرائيل ، لم يكن من شأنهما فقط أن أزالا شعور القلق ، بل انهما قلبا ظهـرا على عقب جميـع النظريات الاستراتيجية فى أركان الحرب الاسرائيلية ، وهى تلك النظريات التى كان يعتمد عليها ثلاث مرات خلال عشرين عاما ، تحقق النصر فيها جميعا . ولأن هذه النظريات تقوم على ضيق البلاد وقلة عدد السكان ، وعلى أن هناك حصارا معاديا مفروضا ، وحالة حرب لا تنتهى ، فقد كانت تعتمد على ثلاثة مبادىء مطلقة هى : حالة التاهب الدائم التى تقى اسرائيل من كل هجوم مفاجىء يحمل معه الدمار السريع ، والتعبئة الفورية للجيش الاحتياطى وهو الحل الوحيد لدولة عدد سكانها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ولا تستطيع أن تبقى فى الخدمة العاملة عددا كبيرا من الرجال ، والهجوم الوقائى الذى يتيح وحده فى سرعة البرق نقل الحرب الى ارض العدو . وهذا (النمط) العسـكرى الخـاص

باسرائيل والذى حاز اعجاب العالم ، انما كانت تمليه عليها الضرورة وليست العبقرية .

الا ان هذه القواعد الذهبية القديمة قد نحيت جانبا ، فى شهر سبتمبر ١٩٧٣ فللمرة الأولى فى تاريخ اسرائيل ، تتخلى عن مبدأ الهجوم الوقائى ، وتنصرف لبناء خطوط دفاعية على الحدود . ومنذ عام ١٩٧٠ أى بعد حرب الاستنزاف ، أقامت على طول المائة والثمانين كيلومترا من قناة السويس ثلاثين موقعا حصينا ، فى حمى آلاف الأطنان من الصخور والأسمنت المسلح . وفيما بين هذه المواقع تجرى مجموعة ضيقة من الطرق المفروشة بالأسفلت ، وبتوصيلات المياه العذبة ، والخطوط التليفونية . . وعلى بعد حوالى ثلاثين كيلومترا الى الوراء ، على مستوى مضايق الجدى ومتلا والختمية ، واقيمت تحت الأرض عدة مستشفيات وقد حفرت فى الجبل ، تعلوها منصات لاطلاق الصواريخ ومحطات للرادار . وأخيرا عند حافة القناة اقيم سد ترابى يصل ارتفاعه الى بضعة امتار راكمته البولدوزرات ، ليقطع المرور على طول الضفة الشرقية كلها١ .

ولقد أحدث هذا الخط الدفاعى الهائل ــ الذى أطلق عليه الصحفيين الغربيون اسم خط بارليف ــ خلافات لا نهاية لها داخل اسرائيل . وأول هذه الخلافات كان بسبب ضخامة تكاليفه ، التى كانت تعادل ثروة كبيرة . ذلك أن بناء خط بارليف قد حرم اسرائيل من الأسمنت شهورا طويلة ، كما استنزف ميزانيتها العسكرية . ولقد ترددت القفشات فى شارع ديزنجوف حول هذا الشأن ، ولم تكن جميعها على غير اساس . ومن ذلك أن المستفيدين الحقيقيين من بناء خط بارليف ، كانوا أصحاب الشركات الخاصة التى كلفت بتنفيذ اعماله ، وان النتيجة الأولى لهذه (الاستراتيجية الدفاعية) كانت ظهور عدد من الفيلات الفخمة فى الأحياء الراقية ، مثل حى (تسافون) بتل أبيب ، وحى (ريخافيا) بالقدس وجبل الكارمل فى حيفا .

وفى لهجة اكثر خطورة من هذه ، ندد عدد من العسكريين بهذه السياسة الخاصة باقامة الخطوط المحصنة التى لم تثبت اية فائدة فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . وعلى سبيل المثال ، فان الجنرال (طال) وهو احد الذين حققوا النصر فى حرب الأيام الستة ، كان أكثر الذين اعادوا الى الذاكرة النكتة القديمة التى قالها الجنرال (باتون) : « أن اى خط حصين . . انما هو تمثال للغباء الانسانى » . لكن موشيه ديان وزير الدفاع ، ودافيد العازر رئيس الأركان الجديد يبرران بناء خط بارليف الذى يستحيل المرور منه . وقد صدقهما الناس على الفور . فلقد قالا أنه اذا وقع هجوم

مصرى فان السدود الترابية سوف تعرقل لمدة أربع وعشرين ساعة على الاقل اقامة الجسور والكبارى العربية ، مما يترك وقتا كافيا للقوات الاحتياطية الاسرائيلية لكى تصل سريعا عبر سيناء . وأما المواقع الحصينة التى تبعد كل منها عن الآخر ببضعة كيلومترات ، فيمكن ان تصمد ثمانية أيام دون أن تتلقى اى عون .

ولقد اتبعت نفس هذه السياسة الدفاعية فوق مرتفعات الجولان . فقد تم حفر منخفض كبير لصيد الدبابات تكلف جنيهات ذهبية كثيرة ويمتد على على طول خطوط عام ١٩٦٧ . واقيمت مجموعات من الدشم على طراز خط بارليف لتسيطر على التلال ، كما شيد موقع حصين على قمة جبل الشيخ ، حيث يذهب الاسرائيليون الذين اكتشفوا فوقه الجليد بعد ١٩٦٧ ، للتزحلق عليه . وقد زود هذا الموقع بأحدث أجهزة المراقبة ، مما جعله يشرف على السهل السورى حتى دمشق ويستطيع أن يرصد اقل تحرك يقوم به الجيش السورى . ويقول العسكريون فى فخر ان هذا هو « عين اسرائيل » . واخيرا، فقد قامت وسط الأراضى البركانية فى مرتفعات الجولان ، ابتداء من الحدود اللبنانية حتى الحدود الأردنية ، أربع عشرة مستعمرة منذ عام ١٩٦٧ ، منها احدى عشرة من نوع (نحاليم) أى المستعمرة العسكرية المعدة للدفاع والسكنى فى نفس الوقت ، ومهمتها وقف أى هجوم سورى محتمل . وكان موشيه ديان يرد على (الحمائم) الذين كانوا يندون بسياسة الأمر الواقع فى الأراضى المحتلة وسياسة (الضم المتصاعد) فيقول : أن المبرر الأول لبناء هذه التحصينات ، هو المبرر العسكرى .

الأمن أولا ، والأمن بصفة خاصة ، والامن قبل أى شىء . ولقد استمع كل اسرائيلى آلاف المرات فى الاذاعة ، وقرأ كل اسبوع فى الصحف عن هذا الدافع المسيطر . فخلال اعوام كثيرة ، كان كل يهودى يقبل باسم الأمن أن يتحمل اقسى التضحيات ، ويدفع أفدح الضرائب . وباسم الأمن كان كل شاب اسرائيلى يتقبل ان يقضى ثلاثين شهرا فى الجيش خلال خدمته العاملة ، بالاضافة الى شهر أو اثنين كل عام فى قوات الاحتياط . لقد كان الأمن دائما هو الذى يجعل الاسرائيلى المتوسط يتضامن فى السياسة المتطرفة المتزمتة ، التى كانت سببا فى عدم شعبية اسرائيل المتزايدة شهرا بعد شهر فى انحاء العالم . انها أصبحت دولة وحيدة ، وغير محبوبة .

غير ان هذا الأمن ، هو محتفظ به .

فهو للمرة الأولى منذ عام ١٩٤٨ ، يستطيع أن يفتح جهاز الراديو بغير أن يشعر بالخوف ، وان يتطلع الى سماء اسرائيل بغير وجل من أن يرى فيها

احدى طائرات الميج . وللمرة الأولى لا يهتم احد بتعبئة الاحتياطى عند أقل حركة تقوم بها القوات المصرية . ان ذلك كان اكثر من شعور ، انه كان لذة .

ثم بعد ذلك ، وبعد حساب كل شيء ، فان هذا الاسرائيلى المتوسط يعرف العرب جيدا .. انهم جمع من الفلاحين الأميين يساقون الى خطوط النار تحت ضربات العصا ، يدفعهم اليها ضباط انتفخت كروشهم ، يحتقرونهم ويستخفون بهم . لقد كانت لهم جيوش تمت بعثرتها ثلاث مرات خلال عشرين عاما ، وتم سحقها فى أقل من أسبوع .. وان لهم دولا تقوم على الألغام نتيجة لعدم استقرارها السياسي وما فيها من تخلف . كما أن فيها زعماء يضطرون الى ممارسة المزايدات على الاعلانات الهستيرية ، والتصريحات الحربية ، والوعود الرهيبة التى لم يوفوا بها قط . وكان الضباط اليهود يقولون للشباب الاسرائيلى الذين يقومون بزيارات لمرتفعات الجولان وهم يضحكون : « انظروا .. انهم اذا اطلقوا قذيفة مدفع واحد ، فاننا سنكون فى دمشق فى اليوم التالى » . وفى لهجة أخرى يروح عدد آخر من الخبراء من خلال المقالات المطولة بل وفى ثنايا الكتب يسوقون الأسباب التى تبرر التخلف العربى الأبدى .

فلقد كتب الجنرال (يهوشافات هاركابى) ، وهو احد رؤساء ادارات المخابرات السابقين (١) يقول : « ان الأمر أمر قصور عقلى او ثقافى تعود اسبابه الى العلاقة بين الفرد واقرانه ، وبينه وبين المجتمع » وفيما يختص بذلك الفيضان من التهديدات الحربية ، فان هذا الفيض من الكلام الذى يغرق البلاد العربية لا يرى فيه (هاركابى) غير اعتراف بالعجز ، ويقول فى ذلك : « ان انعدام الصدق والشرف فى حياتهم العامة ، وميلهم الى افساد انفسهم بأنفسهم هما من الاسقاطات المعروفة جيدا عن العرب والتى لا يتورعون عن التنديد بها فى مرارة » .

ويقول الجنود اليهود الذين يسخرون مما يسمعونه فى أجهزة الترانزستور مذاعا من دمشق أو من القاهرة : « أنه يشبه البراز » . وفى مقابل ذلك الاحتقار الذى كان العرب يكنونه لليهود فيما مضى ، وينعتونهم بالجثث التى لا حياة فيها ولا رجولة ولا شجاعة ، يجيء الاحتقار المطلق فى عام ١٩٧٣ من جانب شباب الصابرا « للثرثرة » العربية . وفى مقابل كتاب « حكماء

---

(١) كتاب (فلسطين واسرائيل) من دار النشر (افنير) سويسرا ١٩٧٢ .

صهيون » وهو اكثر الكتب رواجا لدى المصريين والسوريين (١) ، فان الاسرائيليين يقدمون مفهوما ساخرا عن تخلف المشرق . ان الرغبة فى التحقير والاساءة للطرف الآخر تفرض نفسها فى الشرق الأوسط عبر الزمن ، وتحاك خيوطها وتتدعم فى هذا الجانب وفى ذاك ، فى حلقات مسمومة لا آخر لها . غير انه فى عام ١٩٧٣ ، كان الاحتقار فى المعسكر اليهودى .

فهل هو عجز العرب ؟ ان لدى الاسرائيليين دليلا اضافيا جديدا على ذلك فى التصاعد المروع الذى اصبح الشغل الدائم للمؤسسة العسكرية وادارات المخابرات .. للارهاب الفلسطينى .

فمنذ عام ١٩٧٠ ، لم يعد الجنرالات المصريون أو السوريون هم الذين يشغلون المسرح العسكرى فى الشرق الاوسط ، وانما هم المقاتلون المجهولون التابعون لمنظمة (ايلول الاسود) ، والصاعقة السورية ، أو المجموعات الصغيرة العديدة المنشقة عن المقاومة الفلسطينية . انهم خاطفو الطائرات ، والذين يأخذون الرهائن ، والذين ينصبون الكمائن ، والذين يبعثون الرسائل الملغمة واولئك اليائسون من استحالة قيام فلسطين والذين لم يفلحوا فى اشعال نيران الحرب المقدسة عبر العالم . ويقول (يهوشافات هاركابى) : « لقد حدث عقب حرب الأيام الستة مباشرة ، ان أخذت الجماهير العربية تنظر فى اعجاب شديد الى الفدائيين ، لأن هؤلاء كانوا يمثلون ، بعد هزيمة الجيوش العربية النظامية ، القوة الوحيدة التى كانت مستمرة فى النضال ضد اسرائيل » .

وفى عام ١٩٧٣ ، كان الارهاب الفلسطينى الذى يضرب فى أماكن غير متوقعة يمثل بحق العامل الاستثنائى الوحيد فى عدم الأمن بالنسبة للدولة اليهودية التى لم تعد تخشى من الحرب التقليدية ـ ولقد امكن اقتلاع جذور الارهاب فى الاراضى المحتلة ، نتيجة لاعمال القمع الدامية . وفى غزة ، كانت عملية (انفراج) الوحشية التى اتسم بها الجنرال آريل شارون ـ الملقب بآريك ـ من شانها القضاء التام على شبكات الفدائيين عام ١٩٧١ . وفى نابلس وجميع انحاء الضفة الغربية ، أدت الاعتقالات بالجملة ونسف المنازل المشتبه فيها الى اعادة أمن نسبى ، يعكره بين الحين والآخر انفجار قنبلة يدوية فى احدى سيارات الركاب أو فى احدى دور السينما .

---

(١) حكماء صهيون كتيب مناهض للسامية نقل عن كتاب مزيف صدر فى مطلع هذا القرن من البوليس السرى فى روسيا القيصرية . ولقد قراه ناصر باهتمام كبير . وقد أصبح البروتوكول اكثر الكتب رواجا فى بيروت عام ١٩٧٠ ، وقد قدم هدية الى رجال الصحافة الذين رافقوا ميشيل جوبير فى زيارته للعربية السعودية فى يناير ١٩٧٤ .

ونفس الشيء حدث على الحدود . فبعد جماعة (أيلول الأسود) عام ١٩٧٠ ثم عمليات القمع التى قام بها الفيلق العربى التابع للملك حسين فى مخيمات اللاجئين فى عمان ، تخلص وادى الأردن من غارات الفدائيين . أما الحدود مع لبنان ومنظمة فتح ، فانه حتى اذا استمر الفلسطينيون فى اطلاق صواريخ كاتيوشا على المستعمرات اليهودية ، فان ذلك لا يعدو أن يكون مثل الوخز بالابر ذلك ان كل امراة اسرائيلية لديها المخبأ الذى تلجأ اليه فى باطن الأرض ، كما أن سكان قرى المتولا وكيريات شمونة وصفد ـ الواقعة على الحدود ـ قد تعودوا منذ زمن طويل ان يقضوا لياليهم فى (غرف الأمن) بعيدا عن الانفجارات .

وفى شهرى أكتوبر ١٩٧٢ ويناير ١٩٧٣ ضاعف الجيش الاسرائيلى من عمليات الكوماندوز ومن غاراته الجوية على القواعد الفلسطينية فى لبنان وسوريا ونتيجة لذلك قتل ٥٠٠ فدائى و ٢٥٠ جنديا سوريا . ومنذ ذلك الوقت عاد الهدوء الى الحدود الشمالية .

وعلى عكس ما توقع الكثيرون من المراقبين الغربيين فى عام ١٩٦٧ فانه لم يحدث أن تحولت اسرائيل أو الأراضى التى تحتلها الى « جزائر » ثانية . ومع ذلك فان شيئا لم ينته .

ان الفلسطينيين الذين سحقوا فى فلسطين ، قد صدروا الى الخارج أعضاء قوة العصابات . ومن المؤكد أن العالم لن ينسى أى قرصان جو من هؤلاء وكذلك اسرائيل . . فلقد اضطرت جميع سفارات اسرائيل فى الخارج الى أن تتحول الى مواقع حصينة حقا ، بأبواب مصفحة ، وكلاب بوليسية ، وحراس مسلحين . وطائرات شركة العال تطير وسط اجراءات بوليسية ، تعيد الى ذاكرة جميع الاسرائيليين فى الحاح حادث مطار اللد ، وتذكره بأن الحرب لم تنته بعد ، ومنذ مذبحة اللد الى مذبحة ميونيخ يوم ٥ من سبتمبر ١٩٧٢ ، ومنذ حادث الخرطوم فى أول مارس ١٩٧٣ أو حادث أثينا يوم ٥ من أغسطس ١٩٧٣ ، والصحافة الدولية تنقل فى قلق سلسلة من الحوادث الدامية ، التى تثبت أن الاسرائيليين ليسوا فى امن فى اى بقعة من بقاع العالم . حقا أن الصحافة الاسرائيلية بدورها كانت تستنكر ذلك (الجبن) وذلك (الضعف) من جانب هذه الحكومة الأجنبية أو تلك ، التى تشارك فى الجريمة لأنها استسلمت امام ابتزاز الارهابيين ، لقد كان استنكارا يختفى وراءه نوع من الاحتقار والتعاظم . ومثال على ذلك التعليق الذى نشرته صحيفة (دافار) بعد تراجع الحكومة الفرنسية ازاء الذين احتلوا السفارة السعودية يوم ٦ من سبتمبر ١٩٧٣ ،

اذ قالت : « يبدو أن الارهابيين يعرفون انه منذ أيام نابليون ، فان فرنسا لم تنتصر فى أى حرب » .

ولقد بلغ قلق اسرائيل من جراء هذا التصاعد الارهابى حدا بعيدا ، مما جعل البوليس الايطالى يتوصل الى اكتشـــاف فريد فى نوعه ففى يوم ٥ من سبتمبر ـ وهو يوم ذكرى مذبحة ميونيخ ـ اعتقل خمسة من العرب كانوا يستعدون للقيام بهجوم جديد على مطار روما ـ فيومتشينو . وعندما فتش الغرفة التى استأجروها فى فندق (اوستيا) على بعد ثلاثين كيلومترا من المطار عثر على صاروخين صغيرين طولهما ١٢٥ سنتيمترا وقد كانا مزودين بجهاز توجيـه دقيق . وقد تعرفت الادارة الاسرائيلية الخاصـة على الفـور على الصاروخين ، وتبينت انهما من طراز (سام ٧ ستريلا) ، وهو آخر ما أنتجته مصانع السلاح السوفيتية . وهذه الصواريخ التى يمكن للرجل العادى اطلاقها ، فى استطاعتها اصابة طائرة على بعد عدة كيلومترات بدقة تكاد تكون مطلقة . وكان وجود هذين الصاروخين مع الفلسطينيين يعنى أحد امرين : الأول أن الارهابيين لهم شركاء فى السفارات العربية ، والثانى أن الجيشين السورى والمصرى يمتلكان صواريخ سام ٧ .

أن اسرائيل كانت تعرف ذلك ، ولكنها كانت تخشى التوسع فى الهجمات الانتحارية فى المطارات .

وازاء هذه الهجرة للحرب الى الخارج ، فان اسرائيل سوف ترد فى جميع الأحوال ، وتنسق نفسها معها . ولقد فسرت جولدا مائير ذلك بقولها : « ليس لدينا من حل آخر الا أن نضرب المنظمات الارهابية كلما استطعنا الوصـــول اليها » وكانت تتحدث حينئذ الى النواب يوم ١٦ من أكتوبر ١٩٧٢ . وفى نفس ذلك الوقت عهدت الى الجنرال أهارون ياريف باعادة تنظيم مجموعة الادارات السرية الاسرائيلية الكبرى الثلاث (١) وهى : (موساد لباليا بيت) أى ادارة التجسس و (آجاف موديين) أو (آمان) وهى المكتب الثـــانى المكلف بالاستخبارات العسكرية و (شيروت بيتاشون كلالى) أى ادارة الأمن العـــام المعروفة فى الخارج باسم (شيم بيت) الا انه منذ حرب الأيام الستة ، فان جميع هذه الادارات اقتطعت منها المخابرات العسكرية قطعة ، اذ أن الجنرال الياهو زايرا الذى يتولى ادارتها وهو أحد ضباط المدفعية والمظلات ، أخذ يسود بغير شريك بعد أفول نجم ادارات المخابرات الأخرى . وكان يقول انهم مدنيون .

---

(١) فى ٨ يوليو ١٩٧٣ تم استبدال الجنرال ياريف فى منصب المستشار الخاص المكلف بقمع الارهاب ، وحل محله الجنرال اسرائيل ليور .

وقد عمد أهارون ياريف بوصفه (السيد) الجديد بعد حادث ميونيخ ، الى اعطاء الأولوية للمدنيين على العسكريين . ذلك أن القدس رات أنه نتيجة لعجز القوات العربية التى تجمدت وراء الخطوط الدفاعية الاسرائيلية الجديدة، أن خطر الحرب التقليدية الذى ابتعد ، انما يسمح بتكريس الجهود كلها تقريبا لمطاردة الفلسطينيين . وهذا ما كانوا على وشك القيام به ، فقد تم استدعاء عملاء اسرائيل المقيمين فى القاهرة او فى دمشق بصفة سرية ، اذ أنه ابتداء من روما الى اثينا وباريس ولندن وبروكسل ، فان حربا جديدة قد بدات بالنسبة لاسرائيل ، وهى حرب الظل . أنها حوادث قتل ، وعمليات اختطاف واعتقالات . . انها حرب قذرة ، وهى توشك أن تزيد فى قذارة الصورة الدولية للدولة اليهودية .

وهكذا ، فانه فى اليوم العاشر من اغسطس ١٩٧٣ ، عندما اعترضت اثنتان من المقاتلات الاسرائيلية طائرة ركاب من طراز (كارافيل) تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط على زعم انها تحمل بين ركابها جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، اذا بالعالم كله يعلن اشمئزازه ، ويبدأ الحديث عن (القرصنة الاسرائيلية) ولقد طلب اتحاد الطيارين المدنيين الأمريكيين وقف شحنات السلاح الى اسرائيل كما أدان مجلس الأمن هـذا الحادث ، وكانت هذه هى الادانة الثامنة عشرة لاسرائيل فى الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦٧ وقبل ذلك بستة أشهر ، كان العالم قد أدان ببشاعة اسرائيل ، بعد أن أسقطت طائراتها من طراز فانتوم يوم ٢١ من فبراير طائرة ركاب ليبية ، كانت قد ضلت طريقها فوق سيناء . وكانت نتيجة الحادث ١٢٠ قتيلا ، جميعهم من المدنيين . أن اسرائيل لم تعد ضحية ، ولكنها أصبحت جلادا . .

ولكن ماذا يهم :

قالت جولدا مائير : « أن العالم قد تعاطف معنا فى الماضى . والآن وعندما نتولى الدفاع عن أنفسنا بأنفسنا ، فان العالم يكرهنا ، لأنه يرى فينا صورة مضادة لتلك الصورة التى كانت لديه قبل ذلك عن اليهود . ان علينا أن لا نشعر بالخجل من أى عمل نقوم به » . ويفكر الاسرائيليون عقب هذا ، فى أنهم بعد أن كانوا أبطال حرب الحركة ، اذا بهم قادرون على أن يصبحوا أبطال الحرب السرية فلديهم بغير شك « أفضل ادارات المخابرات فى العالم » . ومرة أخرى يعمد القوم فى اسرائيل الى معالجة العزلة ، بالمكابرة والزهو . وهذه الحرب السرية ، أليس فيها ساعات مجيدة وكذلك أعمال فاضحة ؟

ومن هذه واحدة بصفة خاصة :

ففى يوم ١٠ من أبريل ١٩٧٣ ، وفى قلب بيروت ، استطاعت مجموعة من

الكوماندوز الاسرائيليين الذين احسن تدريبهم ، أن يقتلوا ثلاثة من القادة الفلسطينيين داخل بيوتهم ، اذ أمطروهم بوابل من رصاص بنادقهم الرشاشة الجديدة من طراز « جليل » المصنوع فى اسرائيل . انه عمل رمزى .. ولقد هتفت جولدا مائير فى فرح قائلة : « انها عملية رائعة » وقال العازر : « لسوف يأتى يوم نستطيع فيه أن نفعل نفس الشىء فى طرابلس » . اما الاسرائيلى المتوسط ، فقد عمد الى نقل جزء من تقديسه للجيش ، الى مخابرات أهارون ياريف . واذا كان جورج حبش قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد شعر بشىء من الشك فقد ألغى مقعده على طائرة شركة الشرق الأوسط التى اعترضتها الطائرات الاسرائيلية ، فان ذلك لا يعدو كونه كبوة هينة . أن اسرائيل تقف على مسرح العمليات الجديدة ، وهى فى مستوى الصورة التى رسمتها عن نفسها . ولقد كتب احد الصحفيين اليهود يقول : « ان هذه الحرب التى نخوضها فى جميع القارات ، هى حــرب عادلة تماما ، بحيث أن الاسرائيليين لا يرون فيها مدعاة لتفسيرها » .

انه عيد (روش هاشانا) عام ٥٧٣٤ . انها الوفرة ، والقوة ، والأمن .. انه العام الجديد فى ١٩٧٣ .. استقلال وعجرفة . وتلك الرسائل التى تنشرها الصحف يوم ٢٦ من سبتمبر بمناسبة نهاية العام ، تنضح بالثقة . وقد كتبت صحيفة (جيروزاليم بوست) تقول : « أن اسرائيل تبدو كما لو أنها قــد استقرت فى الحياة أنها تمر بمرحلة ازدهار اقتصادى لم يسبق لها مثيل ، كما أن الأمن فيها فى أحسن الأحوال . والخلاصة أن عيد (روش هاشانا) حافل بالقوة والامل » .

ولا يعنى هذا أن اسرائيل بلا متاعب ، بل على العكس . ففى مجتمع تنبأ له وليم روجرز (بالتفكك الداخلى) ، تتكاثر المشكلات بقدر ما تبتعد الحرب ففى اسرائيل مظالم اجتماعية جديدة ، وتدهور لليهودية فى مواجهة التكنوقراطية الصناعية وانخفاض الهجرة التى أصبحت تتغذى اليوم فقط على اليهود السوفييت (١) ، وعزلة ، دبلوماسية ، وغير ذلك . ولكن مع فارق واحد ، هو أن جميع هذه المشكلات خطيرة ، الا أنها لم تعد تقتل .

ورغم القيظ الشديد والاستثنائى الذى جعل الهواء يتذبذب فوق تلال يهوديا ، فان آلاف الاسرائيليين قد اندفعوا يوم ٢٦ من سبتمبر نحو رحلات عيد (روش هاشانا) ، وقد اطمانت نفوسهم ، تربط بينهم رابطة الثقة .

أم هى رابطة الوهم ؟

---

(١) خلال عام ٥٧٣٣ العبرى (من ٢٦ سبتمبر ١٩٧٢ حتى ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣) وصل الى اسرائيل ٥٢٠٠٠ يهودى من الاتحاد السوفييتى .

الفصل الثانى

الايام الرهيبة

(٢٦ سبتمبر ـ ٦ اكتوبر)

« من اقوال حكمائنا ، انه ليس افضل لاسرائيل من يوم عيد الكيبور ، وهو يوم الغفران والتكفير . وقبل ذلك بقليل مررنا بتلك المتعة الخاصة بنا ، وهى انتهاز فرصة الايام العشرة الرهيبة ، لكى نجرى فحصا لضمائرنا » ..

**رسالة حاخام اسرائيل الأكبر الى الأمة
فى ٤ أكتوبر ١٩٧٣**

أن تلك العطلة الطويلة بمناسبة عيد (روش هاشانا) لم تكن ناجحة . ذلك ان موجة حارة عاتية وغير عادية قد فتت فى عضد الكثير من الاسرائيليين ، مما جعلهم يعدلون فى آخر لحظة عن الخروج الى الطرقات . أولئك الذين يتميزون بالشجاعة وحدهم ـ ٣٠٠٠٠ ـ خاطروا بالذهاب الى أتون سيناء أو الى صحراء يهوديا . اما الآخرون فقد شاهدوا التليفزيون مع الأسرة ، وهم يعدون الغدة من أجل عيد (يوم كيبور) . ذلك أنه ابتداء من سبتمبر، يبدأ موسم الأعياد فى اسرائيل . فبعد عيد (الكيبور) يوم ٦ أكتوبر ، يجىء عيد المظال يوم ١٠ ، ثم عيد (هاشانا رابا) يوم ١٧ ، وبعده عيد (حانوكا) يوم ٢٠ من ديسمبر .

وكل هذه الأيام ـ أو الاعياد ـ لها من الاهمية لدى الاسرائيليين اكثر من اهتمامهم بيوم ٢٨ من اكتوبر ، موعد الانتخابات العامة القادمة للكنيسست. ولقد أعلن المعلقون اسفهم المرير على ذلك ، فبالرغم من آلاف الاعلانات الملصقة على جدران تل أبيب والقدس ، فان هذه المعركة الانتخابية لم تهز أحدا ، ولم تحرك منذ شهرين شعور عدم المبالاة الساخر لدى الاسرائيليين . كانوا يقولون انها (السيرك) ، اذ ان تلك الموضة الجديدة ـ التى استوردت من امريكا ـ لعقد اجتماعات انتخابية فى الصالونات الخاصة ، والقيام بحملة

أكثر اصطناعا وتكلفا من الحملات السابقة ، لم تغير شـيئا كبيرا . ان هـذه اللامبالاة في بلاد تهيم حبا في المناقشات والمجادلات التلمودية ، تثير شيئا من الدهشة . وتفسيرها أن هناك شعورا عميقا ، بأن شيئا ما في الحقيقة يتغير لمجرد اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، فالذى يحكم اليوم ، سيحكم غدا . ومن هو ؟ انه البيروقراطية التى شاخت والتى سادت منذ عهد الرواد الأوائل ذوى الأصل الاشكينازى(١) . وقد كتب صحفي يهودي يقول : « أن مملكة حزب العمل ، الذى يسانده ويتكاتف معه الحزب القومى الدينى وحزب الأحرار المستقل ، يقف شوكة في جنبه اليمين القومى المتطرف ، ويحاربه يسار منقسم لا قيمة له » .

لقد كان هناك على الأقل طابعان يسيطران على السياسة الاسرائيلية دائما، اولهما كثرة الأحزاب التى تؤيد تطبيق التمثيل النسبى الذى جرى تعديله بمالا يكفى في عام ١٩٧٢ . ويمكن أن تحصى من هذه الاحزاب مالا يقل عن خمسة عشر حزبا ، لا يمكن لأى منها أن يزعم بأنه يستطيع وحده الحصول على الأغلبية . وعلى ذلك فان السلطة تستند الى تآلف متنافر ، والى تجمع مشروط ومهتز ، مهدد دوما بالانشقاق على نفسه ، وتسيطر عليه المنازعات المتباينة .

أن الحكم في القدس ، هو بمثابة السير في وسط خصومات ومشاجرات بين كثرة من الاقطاعيات السياسية ، مشغولة جميعها بالمطالبة بثمن تأييدها للسلطة ، في صورة هذا التنازل أو ذاك . وفضـلا عن ذلك ، فان كل وحـدة من هذه الاقطاعيات السياسية ، تعتبر ناديا منغلقا تماما ، وله تفـرعات متعددة ، ، تتم فيها عملية التصاعد الى أعلى بالأقدمية . ومن هنا فليس هناك ما هو عدو للحركة كهذا النظام المعقد للسلطة ، الذى يبقى ـ ضد الواقع السكانى ـ عليها كلها تقريبا في أيدى المهـاجرين من وسـط أوروبا ومن روسـيا ، الذين قـدموا الى اسرائيل قبل تأسيس الدولة . ويرى هؤلاء « الأوروبيون » المترفعون الذين اسـسوا الدولة أنهم وحدهم المسئولون عن « التربية » الصهيونية للذين كانوا آخر القادمين (أى جميع اليهود الآخرين) . ولذلك نشأ مفهوم اعتبارى كثيرا ما يتسم بالعاطفة ، وهى غالبا مفتعلة ، عن ممارسة السلطة ، التى كانت جولدا مائير أو « الجدة اليهودية » هى رمزها الواجب للاحترام ، بعد بن جوريون .

أن النزاعات الشخصية ، والقطيعة ، والاحقاد الحادة التى تعكر بصفة

---

(١) ٦٠٪ من الاسرائيليين من السفارديين ، أى يهود الجنوب والشرق .

دورية صفو المؤسسة العسكرية وتحرك المناقشات فى الكنيست ، ما تزال من المسائل الأسرية ، التى تتم تسويتها وراء الأبواب المغلقة ، وليس للقوى الحية فى اسرائيل ــ الشباب والمهاجرين الجدد ــ الا دور ضئيل فيها . أن هذه القــوى تقف متفرجة امام هذا المسرح الذى لا ينفض حيث يتصادم عدد محدود لايزيد على أصــابع اليدين ، لأسباب صغيرة وتافهة فى الغــالب ، ولكن فى أصوات تشبه الرعد .

والطابع الثانى الذى يسيطر على الحياة السياسية فى اسرائيل ، هو استبداد الشيوخ ، وهو استبداد مطلق . فمنذ نشأة هذه الدولة عام ١٩٤٨، ظلت نفس النخبة التى اختيرت لتولى السلطة وكان لا شيء يزحزحها من مكانها ، فيما عدا حالات ضيئلة واستثنائية . والدليل على ذلك ، أنه بعد الانتخابات التى جرت عام ١٩٦٩ ، كان متوسط اعمار النواب فى الكنيست ٦٣ عاما . وكان هذا المتوسط قبل عشرين عاما ، أى فى عام ١٩٤٩ وعقب الاستقلال مباشرة ، ٤٣ عاما . والعملية الحسابية صحيحة .

بيد ان هذه الظاهرة كانت فى عام ١٩٧٣ ، اكثر منها فى اى وقت مضى ، تشكل مفارقة تثير الذهول . فها هى دولة شديدة الحركة ، دولة عصرية براجماتية ومؤثرة ، وها هو مجتمع صــناعى فائر ، يخضــع لحكم جامد غير متحرك ، يفرضه الأجداد والجدات من عصر آخر . ان اسرائيل فى عام ١٩٧٣، هى شركة شابة حديثة ، توجهها ادارة من عهد القياصرة فى القرن التاسععشر كأنما خرجت لتوها من احدى قصص تشيكوف . انهــا « قوة كبرى »عسكرية وتكتيكية تسيطر عليها جماعة من الريفيين القدامى انحدروا من أصل روسى ، مما جعل الهياكل الاقتصادية والاجتماعية فى اسرائيل تظل مطبوعة بطابع ادارى لا مثيل له فى دول الغرب .

ومن هنا فان الشباب الذى ينحو النحو الأمريكى ، يمكنه أن يظهر ما يحتدم فى داخله فى الأدب ، أو فى المسرح ، أو فى الموسيقى . . أنه يعبر عما يختلج فى نفسه كالأجيال الجديدة فى الغرب ، ولكنه يظل بمنأى عن السياسة، وعن توجيه الشئون اليهودية . أما أحزاب الشباب ، فهى تجمعات هامشية صغيرة . وعلى ذلك فان السياسة الاسرائيلية الراهنة ازاء الدول العربية والأراضى المحتلة ، على سـبيل المثــال ، وذلك الجمود الدبلوماسى الذى يثير غضب العالم اجمع ، منذ عام ١٩٦٧ ليسا على الاطلاق نتائج حساب يحكمه العقل ، انما هما يدلان بصفة خاصــة على ميل طبيعى ، الى أن المؤسسة اليهودية التى شاخت ، لديها من الحذر اكثر مما لديها من الخيال والتصور ، والتزمت أكثر من الابداع .

ومع ذلك ، فانه بالرغم من اللوم الكثير الذى اعربت عنه الصحافة وطبقة المثقفين ، فان الراى العام فى عام ١٩٧٣ ، كان مستريحا تماما الى هـذه الأوضاع ، وهذه هى المفارقة . فهل ضعف الأمر فى الائتلافات الغالبة ، أو هو واهن مزمن فى السلطة ؟ أن الاسرائيليين يقضون أفضل أوقاتهم فى الشكوى من انهم « غير محكومين » ، ويطالبون فى غير توقف بسلطة « قوية » وهم يحاذرون من العمل على مجئيها . فمازالت التأملات الفردية ، والعداء الأساسى لأى شكل من اشكال الضغط العام ، هى العلامات المسيطرة على الناخبين ، الذين لا يحبون ــ مهما كان الأمر ان يروا حزبا واحدا يتمتع بأغلبية ظاهرة .

ان ضرورة الائتلافات المتنافرة والتسويفات السياسـية التى تترتب عليها ، قد تكون باعثة على الغضب ، ومع ذلك فانها حلقة ثمينة للنجاة يبقى عليها الاسرائيليون بصورة غريزية . ان ذلك الجمود الخامل لدى الطبقـة الحاكمة يثبط عزائم الشباب ، ولكنه يجد تبريرا له ، فى الموافقـة التى تكاد تكون اجماعية على سياسة الدفاع والأمن ، التى يجسـدها موشيه ديان . فالأمن فى اسرائيل ، هو شعور مستحدث وثمين ، لا يمكن من أجل ذلك التطلع اليه عن قرب . ولذلك فان ديان ، هو أكثر الساسة شعبية فى اسرائيل . .

ومن هنا ، فان انتخابات ٢٨ من اكتوبر ١٩٧٣ ، ما كانت لتغير على وجه اليقين شيئا يذكر . وفضلا عن ذلك ، فان انتخابات الهستدروت(١) التى جرت فى شهر سبتمبر ، والتى تعتبر التجربة العامة التقليدية للانتخابات لم تحدث أية كارثة . وكل ما هنالك انها سجلت تراجعـا طفيفا لائتلاف حزب العمل يقدر بـ (٥ ٪) ــ هو استنزاف السلطة ــ واظهـرت على المسرح السياسى حزبا متطرفا لليهود الشرقيين ، هم الفهود السود وهو يمثله (٢ ٪ من الأصوات) . ان هذه الثغرة التى فتحها (الفهود) لا تمثـل الا ازدياد خطورة الفوارق الاجتماعية فى مجتمع متقدم ، يبتعد يوما بعد يوم عن مبـدأ المساواة الرومانسى كما كان فى عهد الرواد . انه مجرد تحذير وزفرة من الهواء البارد فى الحياة السياسية ، كما قال كتاب المقالات الافتتاحية الا أن شـيئا مالم يمس جوهر الأمور .

انها لا مبالاة . ان قراء الصحف فى تلك الفترة من آخر شهر سبتمبر كانوا يبعثون شكواهم من البرامج الانتخابية فى التليفزيون كل يوم ، فقـد كانوا يجدونها غاية فى الملل ، وكانوا يعرفون فى جميع الأحوال ومنذ شهور كثيرة

---

(١) هو المركز النقابى الاسرائيلى الذى نتج عن التعاونيات التى تأسست فى فلسطين عام ١٩٢٠ ، والهستدروت يسيطر على ١٥٪ من الصناعات و ٦٠٪ من الانشاءات و ٧٥٪ من الزراعة اكبر نسبة من الموظفين فى اسرائيل . انه مؤسسة وطنية ، اى دولة داخل الدولة .

مضت ، ان (جولدا) التى فكرت بعض الوقت فى الانسحاب من الحكم ، سوف تظل فى منصبها . واذا كان المرشحون يختصمون حول خلافتها . فان عليهم أن يصبروا ، لأنه لا مفاجآت منتظرة على الاطلاق من صناديق الانتخابات وبمعنى آخر فان هذه المفاجآت قد وقعت بالفعل منذ مطلع شهر سبتمبر ، وكانت اثنتين ، الأولى تتناول الائتلاف الذى تتكون منه الأغلبية — المعراج (حزب العمل — مابام) — والثانية تتعلق بالمعارضة اليمينية .

وفى كلتا الحالتين ، فان هذه المفاجآت كانت تضع فى صفوف النجوم عددا من الجنرالات ، تسيطر عليهم بدورهم الرغبة فى دخول المعترك السياسى معتمدين فى ذلك على الشعبية التى اكتسبوها فى رمال سيناء . ولقد قالت مجلة (التايم) الأمريكية فى عددها الصادر فى أول سبتمبر انها (معركة الجنرالات فى القدس) ، وهو قول ليس ثمرة الصدفة المجردة . ذلك انه منذ عام ١٩٦٧ ، أى بعد ذلك النصر الخاطف فى الأيام الستة الذى رفع الجيش الاسرائيلى الى مرتبة العقيدة الوطنية ، فقد تزايد تدخل الجنرالات فى الحياة السياسية فى اسرائيل . وهكذا أصبح « التسابق الى أصحاب الرتب العسكرية » هو الشغل الشاغل والجوهرى للأحزاب السياسية ، التى راحت تبحث عن « العناوين » الجيدة . ان الاحصائيات بليغة فى هذا الصدد ، فهى تقول ان ٢٠٠٠ من كوادر الاحتياط ، ومنهم ٣٤ جنرالا الذين احيلوا الى المعاش فيما بين عامى ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، اختار منهم ٢٠ ٪ العمل فى السياسة انها جبهة ضغط حقيقية عسكرية تلك التى تشكلت فى مؤخرة مسرح السلطة ، لم يقبلها الساسة المدنيون بغير ان يقطبوا جبينهم ازاء ذلك الصعود السريع الذى يتمتع به هؤلاء الضباط « الأمجاد » داخل رئاسات الأحزاب . ومن اجل الحد من تفسير متطرف بين الطبقة السياسية والجيش ، فان حزب مابام (الاشتراكى) قد تقدم بمشروع قانون يقضى بضرورة انقضاء مائة يوم ، قبل أن يصبح الجنرال وزيرا .

هى معركة جنرالات اذن ! وكان هناك اثنان من بينهم — هما أكثرهم شعبية — أحدثا مؤخرا انقلابا بخشونة عسكرية فى البرنامج الانتخابى لحزبهما . فقد ساق موشيه ديان حزب العمل حتى حافة الانشقاق ، أما اريل شارون فانه سار بخطوة عسكرية ، ليحتل رأس المعارضة اليمينية .

وماذا عن ديان ؟ انه وقد اقتنع بأن لا غنى عنه — نظرا لشعبيته — لحزب العمل الذى شحبت صورته كثيرا نتيجة لتدهور المشكلات الاجتماعية فى اسرائيل ، اجتهد منذ البداية لكى يفرض عليه سياسته الخاصة بالاراضى المحتلة — و « خط ديان » فى هذه النقطة واضح تماما ، فهو يؤدى الى الضم

من حيث الواقع . واول مبدا فى هذا الخط يقول : اننا فى غزة وفى الضفة الغربية لنهر الاردن ، وسنظل فيهما الى ان يقبل العرب السلام أى نظل فيهما الى أمد بعيد . والمبدأ الثانى يقول : يترتب على ذلك أن علينا أن نحكم هذه الأراضى ، التى هى فى الوقت الحالى تحت « ادارتنا » والمبدأ الثالث يقول : ان أرض اسرائيل التى تضم « الارهابيين » تشكل كيانا « تاريخيا » ، ويجب تمكن اليهود من الاستقرار فى أى مكان يحلو لهم البقاء فيه ، كائنا ما كان المستقبل السياسى للمناطق المختلفة من فلسطين والتطبيق العملى لهذه المبادىء الثلاثة هو : ان ديان يتنبأ بقيام مناطق زراعية جديدة ـ بصفة نهائية ـ فيما وراء « الخط الأخضر » ، اى وراء الحدود التى كانت قائمة قبل عام ١٩٦٧ . وهو يوصى بانشاء مدينة جديدة ـ مدينة ياميت ـ وميناء فى منطقة رفح ، الى الجنوب من غزة ، وبناء منطقة صناعية فى الجزء العربى من مدينة القدس ، والمطالبة لكل يهودى بحق شراء الأراضى العربية فى الأرض المحتلة . وهو يطالب الدولة فى نفس الوقت بتقديم قروض كبيرة ، من اجل اعادة تصنيف اللاجئين الفلسطينيين ، وتقييم المناطق الواقعة تحت « الادارة » الاسرائيلية .

ومع انه يدفع عن نفسه علنا انه من انصار الضم ، فانه بتشجيعه هذا النوع من سياسة الأمر الواقع ، قد اضاف الى برنامج بعض الحواشى ، التى وجد فيها خصومه وضوحا كاملا . فقد قال : « ان حقائق الأمر الواقع فى البلاد هى التى سوف تحدد فى نهاية الأمر خط الحدود المقبلة لدولة اسرائيل نظرا الى ان المناطق التى يستقر فيها اليهود لن يتم التنازل عنها » . وفى يوم ١٢ ابريل وقف فى تل ابيب ، لكى يعلن بطريقة اكثر عنفا ويقول : « اذا حدث مع مرور الأعوام ، بفضل الديناميكية اليهودية ونتيجة لتأخر مجىء السلام ، ان تقلص ذلك الجزء العربى أثر ما يسمونه بالضم المتصاعد ، فلست أرى فى ذلك أى ضرر » .

ولقد اصطدم موشيه ديان الذى وجد تأييدا من « الوزراء المتدينين » ومن المجموعات الاقتصادية الخاصة ، بالمعارضة التى ابداها « الحمائم » داخل حزبه نفسه . ومن هؤلاء بنحاس سابير وزير المالية ، واريه الياف ، وايجال آلون ، وابا ايبان . وكانت هذه المعارضة قد بدت قبل ذلك فى عام ١٩٦٩ ، عندما جرت آخر انتخابات عامة للكنيست .

ومع أن هؤلاء الحمائم يرفضون فكرة العودة الى حدود ٤ يونية ١٩٦٧ ، فانهم احتجوا على ذلك « الضم المتصاعد » الذى ينادى به ديان . وقد تحدث سابير يوم ٢١ من ابريل ، فى الاذاعة الاسرائيلية ، وفند فى وضوح تام ونقطة نقطة ، جميع نظريات وزير الدفاع . وقال فى ذلك : « يجب علينا الا ننسى أن

اسرائيل موجودة في الأراضي المحتلة ، ليس بقوة القانون ، وانما بقانون القوة . وعلينا اذن أن نقرر فى غير مواربة ، أن هذا الوجود شيء مؤقت ، الى أن يأتى السلام » .

والحق أن موقف خصوم ديان ليس فقط مما تمليه الرغبة فى احداث انفتاح سياسى ازاء العرب ، او رغبة فى احترام القيم الاخلاقية اليهودية . انما كان يقلقهم بصفة خاصة ما قد يحدث ، عقب الضم الصريح والكامل للضفة الغربية وقطاع غزة ، من تدفق مليون ونصف عربى فى المجتمع الاسرائيلى هم سكان تلك الأراضى ، بما لديهم من أعلى نسبة فى المواليد فى العالم (٦ر٣ ٪). وكائنة ما تكون اجراءات الوقاية التى يمكن اتخاذها ، فان هذا الضم سيكون معناه ، ازاء الـ ٠٠٠ر٧٠٠ر٢ يهودى اسرائيلى ، أن يزول فى فترة وجيزة ذلك الطابع اليهودى لاسرائيل ، وضياع الأغلبية بالنسبة لليهود ، وانتهاء الصهيونية ... ولسوف يحدث ذلك سريعا ، نظرا للانخفاض الحاد فى عدد المواليد فى اسرائيل (على الأقل بين اليهود الاشكينازى) ، بغير أن تعوضه هجرة كبيرة تجيء من بلاد الشتات .

ولقد كانت معارضة بنحاس سابير تصدر كذلك عن شيء آخر ، وهو كراهيته لديان .

ففى داخل اللجنة المركزية لحزب العمل ، كانت المواجهة عنيفة بين ديان والحمائم ، ولا تقف عند حد . بل ان كلا من الجانبين قد فكر فى ان يتقدم للانتخابات القادمة بقوائم منفصلة ، وهو الأمر الذى سيكون فيه دمار للائتلاف بين حزب العمل وحزب مابام ، بعد أن كان ائتلافا مهلهلا . وأخيرا كانت جولدا مائير ومعها اسرائيل جاليلى هى التى قامت بالمهمة الدقيقة للتوفيق بين وجهتى النظر ، تجنبا لحدوث أزمة صريحة . ولقد تم اعداد تسوية غامضة ، على الطريقة الاسرائيلية ، عرفت باسم « اتفاقية جاليلى » . وبعد الكثير من النقاش الممل ، ووفق عليها يوم ٣ من سبتمبر فى اللجنة المركزية ، بموجب ٧٨ صوتا من ١٦١ .

وقد ظل آرييه الياف ــ المسمى لويا ــ يناضل ضد هذه الاتفاقية بينما اظهر سابير ميلا الى التسوية . ولقد حدثت مشاحنات عنيفة بين « لويا » المثالى المحب للسلام ، وبين جولدا مائير . ومع ذلك فان الحمائم الذين انقسموا بين ما يعتقدونه وبين خشيتهم من أن يصبحوا مسئولين عن وقوع ازمة داخل الحزب يستفيد منها اليمين ، رفضوا الاشتراك فى الاقتراع على الاتفاقية ، ومن الناحية الرسمية ، فان الاتفاقية قد ووفق عليها بالاجماع ، غير أن كاتب المقال الافتتاحى فى صحيفة (ها آرتس) تناول هذا التهرب بقسوة ، فكتب يقول : « ان المعارضة التى لا تبدى رايها الا بالامتناع عن

التصويت ، لا تدل على سياسة حازمة . وليس يكفى ان يطلب الرفيق اريبه الياف الكلمة باسم « اليهود الصامتين » ، فلو ان هناك رفاقا فى سكرتارية الحزب كانت لديهم آراء مضادة للاتفاقية لتعين عليهم أن يحاولوا بكل ما فى وسعهم احباطها . اما ابداء التحفظ فى صورة الامتناع عن التصويت ، فانه يفتح الطريق أمام عناصر أكثر نشاطا » .

عناصر أكثر نشاطا ؟

ان ديان ، بالرغم من قبوله بضعة تنازلات ، قد نجح فى فرض وجهة نظره . فلقد تشدد حزب العمل فى موقفه ، بعد أن رأى انه مهدد من المعارضة اليمينية فيه المناصرة للضم ، والتى تبين ـ بعد استطلاع للرأى ـ أن الريح تملأ قلوعها . وقد ترتب على ذلك أن عانت فرص السلام . فماذا كانت تنص عليه « الاتفاقية » التى لقيت الاستنكار فى العواصم العربية كافة ؟

لقد انخفض مشروع اقامة مدينة جديدة بين غزة والعريش ، الى تسعمائة وحدة سكنية ، ولكنه ظل كما هو . أما شراء الأرض فى الاراضى المحتلة ، فلا يمكن القيام به الا عن طريق هيئة عامة هى (كيرين كايميت ليسرائيل) التى يرمز لها بالحروف (ك.ك.ل.) ، كما ان المشتريات الخاصة ـ وهى استثنائية ـ يتعين الحصول من أجلها على تصريح من لجنة وزارية خاصة . وفى مقابل ذلك ، فان خمسة وثلاثين قرية اسرائيلية جديدة ستقوم فى الاراضى المحتلة خلال الأعوام الخمسة التالية . وهذه القرى التى ينتظر أن تبنى فوق مرتفعات الجولان ، وفى وادى الاردن ، وفى (ثغرة رفح) وشرم الشيخ ، سوف تضاف الى الثماني والأربعين قرية التى قامت بالفعل .

ولم تنخدع الصحافة الاسرائيلية بذلك . فقد كتبت صحيفة ها آرتس يوم ٥ من سبتمبر تقول : « ان الاتفاقية تعادل منح السلطة المطلقة لاستعمار جميع الأراضى التى يسكنها العرب » . وفى اليوم السابق قالت الصحيفة نفسها : « ان فى ذلك مساسا جديدا بالرغبة فى الاحتفاظ فى الأراضى المحتلة بظروف لا تضر بفرض المفاوضات القادمة . ان الحكومة تحقق بذلك رغبات موشيه ديان . واذا كانت هذه السياسة مما قد يعتبر ايجابيا من وجهة نظر صهيونية ، فانها يمكن مع ذلك أن تكون لها عواقب سلبية . ان ما كان يتم حتى الآن فى الأراضى المحتلة كان اساسه الحاجة الى الأمن ، ولكن كيف يمكن التذرع بهذه الحجة ، فى انشاء منطقة صناعية فى الجزء العربى من القدس ؟

لقد استسلم فريق حزب العمل امام ديان ، خوفا من أن يهزم فى الانتخابات . وبينما كان يفعل ذلك ، كان يدرك العواقب الوخيمة التى سوف تنتج عن هذا التشدد على المسرح الدولى . والدليل على ذلك ما أعرب عنه

ابا ايبان وزير الخارجية خـلال اجتماع انتخـابى تم يوم ٤ من سبتمبر فى القدس اذ قال : « ان اذاعة اتفاقية جاليلى فى الخارج ، كانت لها نتائج ضارة وغير مجدية .. » .

والواقع أن قلق حزب العمل من اقتراب الانتخابات ، لم يكن تفسيره مجرد الخوف من تفتت مركزه ، وانما من جراء قيام تكتـل يمينى عريض يقف فى معارضته ، هو كتلة ليكود . انه آلة الانتخابات الحربية الحقيقية ، التى تولى ادارتها جنرال ترك صفوف الجيش من فترة وجيزة ، هو آرييل شـارون ، الذى يسمونه (آريك) . وكما فعـل ديان ــ عـدوه الرئيسى ــ فانه قلب الاستراتيجيات الصغيرة التى ينتهجها اليمين بعد أن ألقى بكل ثقله ومكانتـه العسكرية فى المعركة الانتخابية . وكان من نتيجة اقتحام ذلك المحارب لتلك البيروقراطية السياسية ــ التى يسمونها الفضيحة ــ ان ظل الرأى العـام الاسرائيلى ممسكا انفاسه طوال شهرين .

ان (آريك) شارون الذى يبلغ الخامسة والأربعين ، واحد من أشـهر الضباط فى الجيش اليهودى ، قد برز وهو ما يزال قائدا صغيرا عام ١٩٤٨ ، فى المعارك التى دارت ضد دبابات الفيلق العربى الاردنى . وفى عام ١٩٥٣ ، كان على راس الكتيبة ١٠١ ، عندما قاد الهجوم على قرية (قبية) الاردنية . وفى عام ١٩٦٧ راس مجموعة الجنرالات التى ذهبت لتطلب من ليفى اشكول رئيس الوزراء بدء العمليات العسكرية ضد مصر ، ثم تولى قيادة احدى الفرق المدرعة ، واستولى بها على ممر (ميتلا) فى جنوب سـيناء . وخـلال حرب الاستنزاف ، اعتنى برسم اسطورته عندما دك طرق الجبهة على طول القناة ، وهو على ظهر دبابة القيادة ، وتحت وابل القنابل المصرية . وكان جنـوده يقولون عنه : « ان آريك .. هو الملاك جابرييل » . وفيما بعد ، أى فى ربيـع ١٩٧١ ، كان هو الذى أعاد الهدوء الى قطاع غزة ، بأن قضى بوحشية لا مثيل لها على شبكات الفدائيين ، وأخيرا فانه كلف فى يناير ١٩٧٢ بطرد أكثر من ألف بدوى من رفح ، لكى يقيم هناك احدى المستعمرات اليهودية . انه رجل « له خدمات جليلة » .

ان هذا القائد (الرومانى) الاسرائيلى المنتفخ الأوداج ، والذى يثير غيظ المتراجعين من الدساسين السياسيين والمتشككين فى المؤسسة اليهودية ، هو الصورة الأصلية الكاملة لأولئك الضباط اليهـود الذين لا يفتأون يكررون بديهية بسيطة تقول : « ان العرب يحترمون القوة ، ولا شىء غير القوة .. » وفضلا عن ذلك فان (آريك) قد تخصص فى الادلاء بتصريحات عنيفة ، من شأنها ادخال الخوف فى النفوس . فقد كتب مرة يقول : « اننى أرى أنه ليس هناك أى هدف عسكرى أو مدنى يقع بين بغـداد والخرطوم ــ بما فى ذلك

الأراضى الليبية ـ الا ويستطيع الجيش الاسرائيلى غزوه » . (صحيفة معاريف فى ٢٠ يوليو ١٩٧٣) .

وعندما اغرقته السياسة كالكثيرين من الجنرالات ، فانه وثق اتصالاته باليمين الاسرائيلى عشية انتخابات ١٩٦٩ . وفى ذلك الوقت ، كانوا قد خففوا من غلوائه فى العودة الى الحياة المدنية ومن مشروعاته فى « المهنة الجديدة » ، وذلك بأن عرضوا عليه أن يتولى فى الجيش المنصب الذى كان يتمناه ، وهو قيادة الجبهة الجنوبية . وكان أحد وزراء حزب العمل من ذوى الفكر الثاقب، قد تدخل بصفة خاصة مؤيدا له .

ومع اقتراب الانتخابات الجديدة فى عام ١٩٧٣ . كان منطقيا ان يزداد طموح (آريك) ، فقد اصبح يتطلع هذه المرة وبكل بساطة الى تولى منصب رئيس الأركان العامة . وعندما علم فى ذلك الوقت بطريقة ملتوية ، ان ترشيحه لهذا المنصب قد استبعده (ساسة حزب العمل) ، اذا به يترك الجيش فجاة، وينعزل فى مزرعته فى بير السبع ، لكى يهىء نفسه للعمل السياسى ، ومع اليمين بكل تأكيد .

لقد كان اليمين الاسرائيلى . . الذى يعادى الاشتراكية الصهيونية ويتطلع فى أحلامه الى الاقتصاد الحر ، ويطالب بالابقاء على حدود اسرائيل الكبرى ويقول انه لا يجب ان يعاد شبر واحد من الأرض المحتلة ، يستند الى البرجوازية الكبرى صاحبة الأعمال ، والى الطبقات الوسطى وكذلك الى قطاع من طوائف اليهود السفارديم الفقراء والمعادين للعرب ، وقد سجل تقدما حتى فى الوسط العمالى (الهستدروت) ، وكان هذا اليمين الاسرائيلى فى عام ١٩٧٣ احدى القوى الصاعدة . انه لم يكن يعانى الا عيبا واحدا ـ وهو عيب له قيمته ـ ذلك هو انقسامه المتطرف . (والى جانب ذلك فانه منذ عام ١٩٤٩ لم يمارس السلطة قط فى اسرائيل حتى اذا كان بعض أعضائه قد اشتركوا فى حكومات للوحدة الوطنية) .

والفرع القوى لهذا اليمين هو حزب (جاحال) الذى يتكون من حزبين مرتبطين بميثاق مدته ست سنوات ، هما حزب الأحرار الذى يعتبر وريثا « للصهاينة الجنرالات » الذين عرفوا فى الخمسينات ، وحزب (حيروت) الذى يراسه مناحم بيجين الذى يعتبر استمرارا لحزب التحريفيين القديم . أما فرعه الثانى ـ والأكثر تطرفا ـ فيتكون من الوسط المستقل الذى يراسه (شيموفال تامير) رفيق بيجين القديم ،والذى تركه بسبب آرائه المتواضعه. والفرع الثالث والأخير ـ مجموعة « القائمة الحكومية » ـ احدى الجماعات المنشقة . وفى عام ١٩٦٥ ، كان أعضاؤه يأتون فى قائمة حزب (رافى) الذى

راسه بن جوريون . وفى عام ١٩٦٩ ، عندما كانت أغلبية حزب رافى بقيـادة موشيه ديان تنضم الى صفوف حزب العمل فان الاقلية ـ المتزمتة ـ قـد شكلت « قائمة الدولة » .

وعلى غرار خصوم اليمين الاسرائيلى من عمال واشتراكيين ، فقد اضاف الى كل تقسيماته العقائدية مجموعة من الخصومات المعقـدة والشـكوك الشخصية . وكانت هذه الخصومات تزداد ظهورا كلما اقتربت الانتخابات الجديدة ، التى تتم فى اسرائيل وفقا لنظام (النسبة الوطنية) . والبلاد كلها لا تشـكل سـوى دائرة انتخابية واحدة ، والناخبون يقترعون على الاحزاب وليس على المرشحين ، كما ان مقاعد الكنيست المائة والعشرين توزع وفقـا للحصص الدقيقة للنتائج التى تسفر عنها الانتخابات . وفى هذه الظروف ، فان وضع القوائم داخل كل حزب ونظام ترتيب المرشحين ، من المسائل ذات الأولوية الحاسمة . ان ذلك يترك مجالا كبيرا لقيـام مشـادات حقيقيـة ، مصحوبة غالبا بمزايدات صغيرة .

وعلى أى حال ، فقد كانت سلطة مناحم بيجين فى اليمين تجد المزيد من المعارضة يوما بعد يوم ، وان استطاع ان يوقف حتى الآن تقدم (بديل) له ، هو الجنرال وايزمان رئيس اركان القوات الجوية السابق ، الذى عين وزيرا للمواصلات بعد عام ١٩٦٩ . ولكن ماذا يعمل ازاء شارون ، وهو صديق له ؟

ان (آريك) قد بدأ ، منذ منتصف شهر يوليو ، يهاجم هـذا الخليط المشوش ، ويحقق فى بضعة اسابيع وحدة اليمين ، كما لو كان يقود احـدى عمليات الكوماندوز . وقد قال فيما بعد وهو يبتسم : « قد لا أكون قد اتبعت فى ذلك المبادىء الديمقراطية » ، فقد كان هدفه صنع تجمع جديد هو تكتل ليكود . وكان ذلك هو الشرط الذى وضعه للاشتراك فى الانتخابات وبالرغم من الرغبة الواضحة لدى رجال السياسة فى أن يكون لهم « حامل علم » فى مثل بريق شارون ، فان الأمر لم يكن يسيرا ، وبصفة خاصة عندما يحين وقت ادراج الأسماء فى قوائم الانتخاب ، وتوزيع « المقاعد المؤكدة » على الاحزاب المختلفة التى يتكون منها تكتل ليكود . لقد كانت تحدث مناقشات عاصـفة ، وطرق مختلفة للخداع ، وضربات وضيعة .. والراى العام الاسرائيلى الساخر يشهد خلال الصيف تلك المناورات الصغيرة ، وتزايد الصحف على موضـوع عام هو : « هل تكون لنا اخيرا معارضة حقيقية ؟ » ويصل النزاع الى قمتـه عندما يخرج (ايزير وايزمان) ، الذى يتهدده خصم مندفع ، على كتلة ليكود ، ويهجر السياسة ، ويوجه الى مناحم بيجين رسالة مهينة هى فى نفس الوقت وضيته السياسية ، ويقول فيها : « اننى لم اشهد قط مناورات فى مثل هذه البشاعة والخزى من جانب مؤسسة كان ينبغى ان تكون مضرب المثل . لقد

اشتركنا جميعا فى هذا النزاع الوضيع حول توزيع المقاعد البرلمانية ، الذى بدت من خلاله اهانات وتعريضات مؤذية لقد كان من النادر انى اشتركت فى مناقشات على هذا المستوى المنحط ، ونزولا على هدف وقاية الصحة العامة، ارى من واجبى الخروج من ميدان السياسة » .

ويرد بيجين الذى يبدى استنكاره ، برسالة باردة كالثلج . بأن كتلة ليكود قد ولدت ، وآريك شارون يحقق النصر ، والصحافة الاسرائيلية فى مجموعها تدين وايزمان ، الذى « افتقد الاحساس السياسى » . وتعلق صحيفة (يديعوت أحارونوت يوم ١٧ من سبتمبر) بقولها : « ان علينا أن نقارن بين موقفه وموقف بيجين ، الذى اثبت خلال المفاوضات الصعبة ، انه أحد أقطاب القوة والهدوء وسط العاصفة » .

أما صحيفة (ها آرتس) فكتبت يوم ١٨ من سبتمبر تقول : « حتى فى السياسة يجب أن نتقبل آلام المخاض . واذا كان وايزمان يريد الانسحاب من النشاط السياسى ، فان عليه أن يعلم أن الراى العام يفقد صبره ، حتى مع أولئك الذين يقر لهم بالفضل . ان من كانوا يعتقدون أن الصفات التى جعلت من الجنرال قائدا جويا لامعا كفيلة بأن تجعل منه سياسيا ممتازا يجب أن يعترفوا بخيبة املهم » .

ساسة يمزقون انفسهم فى حدة،واثنان من الجنرالات توضع على رؤوسهم اكاليل الغار ، لأن كلا منهما زحزح اليمين ، وفقا لأسلوبه وتبعا لحزبه ، بعض الشىء الى مركز الثقل السياسى فى اسرائيل ، وكتلتان سياسيتان لا شىء هنالك كبير يميز احداهما عن الأخرى فى ميدان السياسة العربية ، ورأى عام « طلق السياسة » يتسم بالجدية وينزلق فى طراوة نحو يوم عيد الغفران فى حمى جيش (لا يقهر) . هذا هو وجه اسرائيل فى أواخر شهر سبتمبر . أما تلك الأصوات الوحيدة التى كان فى مقدورها أن تحطم هذا الاجماع على الشعور بالرضا ، فما هو وزنها ؟ ما وزن صوت النائب المحب للسلام وعدو الصهيونية (أورى افنيرى) مدير مجلة (هاعولام هازيه) أى (هذا العالم) وهى نوع مماثل لمجلة (بلاى بوى) ؟ أو صوت شباب اليسار فى مجموعة (ماتزيبن) أو مجموعة (سياه) ؟ أو صوت الشيوعيين فى (راكاح) المناهض للصهيونية أو صوت الشعراء والكتاب فى اليسار الجديد ؟ . . الحق أن لا وزن لكل هؤلاء فى اسرائيل ، وهى وسط « الأيام الرهيبة » . . التى تفصل العام الجديد ٥٧٣٤ عن يوم عيد الغفران . انها لوحة ألوان متعددة ولكنها متناثرة لشباب اعتادوا الجلوس فى مقهى (تامون) بالقدس ، ولها ميزاتها . غير انها لا وزن لها ، وهل يصغى أحد الى المتشائمين عندما يبتعد الخطر ؟

اننا نكرر هنا القول ، بأن كل انسان فى اسرائيل كان مقتنعا تماما فى شهر سبتمبر بأن الأخطار العسكرية قد ابتعدت فى تلك الأثناء أكثر منها فى اى وقت مضى . أجل . . الاخطار العسكرية ، اذ ان التفاؤل كان محدودا للغاية ، فيما يتعلق بالوضع السياسى للبلاد . فاسرائيل المعزولة ، والتى تلقى المعارضة ، والمقاطعة ، والتى ادينت فى المعترك الدولى ، لم يكن يخامرها اى وهم فى أن عام ٥٧٣٤ الذى يوشك ان يبدا سيكون محملا بالأخطار فى المجال السياسى . وهناك امور مخيفة تنتظر اسرائيل ، التى انغلقت على نفسها منذ ستة اعوام فى (معزل النصر) ، وتقول انها ضحية (الجبن الوقح) من جانب الراى العام الدولى . ذلك الراى العام الذى يقولون فى القدس انه لا يغفر لنفسه ، اعجابه الكبير باسرائيل الظافرة ، ويخاف اليوم على البترول ، الذى يشتريه من المنهزمين .

انه اذن قلق سياسى ، ولكن لا وجه لمقارنته بالخوف العظيم الذى كان معروفا من قبل . فبالأمس كان الخوف من ان يلقى رجال أحمد الشقيرى(١) باليهود فى البحر ، او أن يذبحوهم ، بينما اليوم لا خوف الا من ادانة ــ حتى ولو كانت رسمية ــ فى الأمم المتحدة . فان الشعور الذى يخامر الاسرائيليين هذه المرة بالوحدة ، لا يمكن فصله عن شعور أكبر بالقوة يجدون فيها العزاء ، بل انهم ليشعرون بتقلص يتسم بالزهو ، ويقولون : « اننا وحدنا . . ولكننا اقوياء . . » أو « اننا وحدنا . . لأننا اقوياء » .

أما فيما يتعلق بالافتراء والنفاق من جانب الراى العام الدولى ، فان هناك كثيرا من الاسرائيليين يرون فيهما عودة بغيضة لظهور معاداة السامية ، وبصفة خاصة الشيوخ . وهؤلاء يقولون ان اسرائيل تدان نتيجة لعنصرية جديدة تخجل من نفسها ، وأصحابها لا يطيقون الا أن يكون اليهود مضروبين او اذلة أو مهددين . . انهم فى البداية كانوا يبدون العطف ، ولكن عندما أصبحنا اقوياء . . الى آخر هذا الادعاء . . هذا الرد الفعلى الذى كان يصدر عن جانب كبير من المؤسسة اليهودية ، انما كان يبعث على سخرية شباب الصابرا . وقد انتشر فى اسرائيل عام ١٩٧٣ ، تماما كما انتشر النقاش حول «السلام الجديد» والتطور التكنولوجى الاسرائيلى . وربما كان أهم ما يدور هذا النقاش بشأنه موضوع . . من هو اليهودى ؟ وما معنى شرط أن يكون يهوديا ؟ وهل اليهود

---

(١) هو الرئيس السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية والمندوب القديم لفلسطين فى الأمم المتحدة . وقد أصبح الشقيرى مشهورا نتيجة لتصريحاته عشية حرب الأيام الستة التى توعد فيها الاسرائيليين بالابادة .

الذين استقروا فى الشتات ما يزالون يهودا ؟ وهل شباب الصابرا معادون للدين ؟ وهل يمكن التوفيق بين تطور دولة عصرية وبين الديانة اليهودية ؟.

ومن المصادفات الغريبة للأحداث ، أن وحدة اسرائيل على المستوى الدولى وعلامات الاستفهام عن اليهودية ، سوف يلتقيان فى أواخر شهر سبتمبر . وكان ذلك من سخرية التاريخ القاسية . ذلك ان الرجلين اللذين كانا أكثر من غيرهما يبعثان القلق على اسرائيل وعذابها عشية يوم عيد الغفران ، هما اثنان من اليهود . انهما يهوديان استقرا فى الشتات ، وترى القدس فيهما طابعا ينبىء عن شدة قاسية ــ ان لم تكن اكثر من ذلك ــ ازاء الدولة التى كان يمكن أن تكون وطنهما .

وأول هذين اليهوديين رجل قصير القامة ويرتدى العوينات ، ظلت عالقة به من أصله البروسى لكنة جرمانية . ولم تنقض سوى خمس وثلاثين سنة منذ غادر والده المانيا ، فرارا من الاضطهاد النازى . وفى يوم ٢٢ من سبتمبر أدى اليمين القانونية على الدستور الأمريكى ، وهو يتسلم مهام منصبه كوزير للخارجية . وكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة يتولى فيها امريكى متجنس هذا المنصب الخطير . ولم يكن كيسنجر يهوديا فحسب ، بل انه ولد المانيا . وعندما القى خطابه ، لم يذكر الشرق الأوسط الا فى اشارة عابرة ، ولكن القدس لم تنخدع بذلك . كان وصول الدكتور كيسنجر الى البيت الأبيض يتفق تماما . مع اعادة النظر العامة للسياسة الامريكية فى الشرق الأوسط . وقد صدرت عنه جملة لم تلبث ان دارت فى اسرائيل وأثارت تعليقات لا نهاية لها فى الصحف العبرية . قال : « ان امريكا ملتزمة بالدفاع عن اسرائيل ، ولكن ليس عن فتوحاتها » . أن يهوديا هو الذى يقول هذا ! انه يهودى يقال عنه أنه مصمم على أن يقدم ملف اسرائيل والعرب ، قبل أن يترتب على « الحقائق الواقعة » الكثيرة فى الأراضى المحتلة ، أن يصبح كل حل أكثر صعوبة .

ومن هذه الحقائق أن امريكا كانت منذ بضعة اشهر تزداد ابتعادا عن محميتها الاسرائيلية ، وذلك يحدث ، بالرغم من أن الستة ملايين يهودى امريكى الذين هم مؤيدون للديمقراطيين هم ، قد صوتوا فى شهر نوفمبر ١٩٧٢ ــ للمرة الأولى ــ بمجموعهم لصالح نيكسون ، الجمهورى . فهل نيكسون هو الذى يخونهم ؟ لكن البيت الأبيض له أسبابه ، التى لا تكون دائما أسبابا قريبة الى قلبها . فقد كان هناك بداية تقارب مع مصر ، منذ اقترب السادات نفسه من الملك فيصل عاهل العربية السعودية ــ وهو راسمالى ــ مبتعدا عن الاتحاد السوفيتى الذى طرد خبراءه يوم ١٨ من يوليو ١٩٧٢ . وكان الرهان فى نظر واشنطون شيئا يستحق الذكر ، وليس فقط من الناحية

السياسية . والواقع ان الأصوات كانت تتزايد فى الولايات المتحدة ، اعتراضا على السياسة المؤيدة لاسرائيل ، والتى كان من شأنها حرمان امريكا من جانب من وارداتها البترولية . وفى يوم ٢٦ يونيـو ، بعث (اوتو .ن. ميللر) مدير شركة ستاندارد للبترول ٣٠٠,٠٠٠ رسالة الى المساهمين ، يطلب منهم فيها ان يدافعوا فيما حولهم « عن قضية تطلعات الشعوب العربية . والجهود التى تبذلها هذه الشعوب لاعادة السلام فى الشرق الاوسط » . ثم اضاف فى وضوح كامل : « فعلى هذه المنطقة يتوقف رخاء الغرب فى المستقبل » . وفى يوم ٧ من اغسطس ، كانت شركة (موبيل اويل) هى التى نشرت بدورها نبذة اعلانيـة فى صحيفة نيويورك تايمز ، لكى تطالب باعادة النظر فى سياسة الولايات المتحدة ازاء العرب . واخيرا فى يوم ٢٠ من سبتمبر ، طالبت شركة (تكساكو) هى الاخرى بفض الالتزام الامريكى . اما اليهود ، واما البترول . .

راحت اسرائيل ، اذن ، تتطلع فى شك مقرون بالقلق ، الى المساعى الأولى ذات الطابع الدبلوماسى التى يقوم بها كيسنجر هذا ، الذى يرجح انه سوف يخرج من قبعته مشروعا للسلام له مكانة كونية . ولقد استدار الراى العـام الاسرائيلى فى عدم اهتمام وهو يقرأ فى الصحف « ان امريكا سـوف تطلب تنازلات من جانب اسرائيل » . اما جولدا مائير ، فقد ادلت يوم ١٣ من سبتمبر بلهجة يشوبها الحزن بتصريح لمراسل التليفزيون الامريكى قالت فيه : « اننى لا استطيع ان اتصور ان الحكومة الامريكية او شعب الولايات المتحدة سـوف يبيعان اسرائيل ، لكى يؤمنوا لانفسهم انتظام توريدات البترول العربى » .

ومع ذلك ، فانه لم تكد تمر ثلاثة ايام على اداء كيسنجر اليمين القانونية ، حتى كان يقيم حفل عشاء ضخما لممثلى ثلاث عشرة دولة عربية فى جو ، وصف بأنه جو غبطة ومرح . وقد وجهت صحف القاهرة اللوم الى ليبيا والجزائر وسوريا والعراق واليمن الجنوبية ، على انها لم تلب الدعوة وكان أول نجاح لكيسنجر هو أن وزراء الخارجية العرب والاسرائيليين ، قد اتفقوا على الالتقاء تحت اشرافه . واذا كان اله الحرب قد بدأ مبتسما لاسرائيـل ، فان اله الدبلوماسية كان فى صراحة مقطبا . .

وفى القاهرة اشادت صحيفة الأهرام علنا بأن يكون كيسنجر يهوديا ، ولكن القوم فى القدس كانوا يعلنون قلقهم من جراء ذلك ، وقالوا : « لسوف يكون كيسنجر ازاءنا ، أقل تعقيدا ، واكثر تزمتا . . » .

وفى نفس تلك الفترة ــ فى أواخر سبتمبر ــ كان هناك يهودى آخر ذاب فى مجتمعه ، يوشك أن يغدر باسرائيل ، ويعبىء ضـده كل اهتمام الأمـة الاسرائيلية . وفى هذه المرة أيضا ، وبقراءة ما بين السطور فى جميع الخطب ،

والرجوع الى التفسيرات الناقمة : أمكن التنبؤ بنفس الأسئلة : من هو ذلك اليهودي ؟ وهل يمكن لليهودى أن ينكر يهوديته بالذوبان فى البلاد التى يعيش فيها ؟ وفى هذه الظروف ، ما الذى يمكن أن يعنيه من اسرائيل والصهيونية ؟ انها نفس الدوامة القديمة . .

ان ذلك اليهودى هو مستشار النمسا منذ اكتوبر ١٩٧١ ، وهو يدعى برونوكرايسكى . لقد كان وصوله الى منصب الحكم فى فيينا ، على رأس دولة ما زالت فيها آثار مناهضة السامية ، يمثل انتصارا رائعا بالنسبة لرجل يهودى من النمسا ، كان يهتف عام ١٩٦٨ قائلا : « أنا مستشار ؟ ان ذلك مستحيل . . فاننى يهودى » . انه نصر رائع ودليل على أن « الذوبان الكامل » قد أصبح ممكنا — حتى فى النمسا — لرجل مناهض للصهيونية يعيش فى الشتات . وكرايسكى عندما أصبح مستشارا ، قد اثبت ان اى نمسوى من أصل يهودى يستطيع أن يتولى الحكم . غير انه اذا كان قد وصل الى الحكم — فان الأمر مع ذلك كان بصفة خاصة لانه قطع كل علاقة له باليهودية ، وهو الذى يكرر تطوعا قوله : « لا تعتمدوا على قلبى اليهودى ، فاننى ليس لى قلب » . انه يرى ان اى مسئول يهودى ، لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت مخلصا للبلاد التى يعيش فيها ، ولليهودية .

ولسوف تقدم له الظروف الفرصة ، لكى يثبت الدليل على ذلك ، وهى نفس الفرصة التى يكتسب بها صفة النمسوى الصالح ، التى يجتهد بعض اعضاء الطبقة الحاكمة فى فيينا فى الاعتراض عليها . ومن ذلك على سبيل المثال ان السكرتير العام للحزب الشعبى النمسوى ، كان ما يزال يهمس فى شهر فبراير عام ١٩٧٣ قائلا : « ان كرايسكى لا بأس به ، فليس لدى ما آخذه عليه أو على حزبه . الا انه أقوى منى ، ولا أستطيع التفاهم مع رجل يهودى » .

ففى يوم الجمعة ٢٨ من سبتمبر ، وفى الساعة العاشرة صباحا ، كان اثنان من الارهاربيين العرب التابعين لمنظمة « نسور الثورة الفلسطينية » المسلحين بالمسدسات الرشاشة والقنابل اليدوية ، يقفان داخل محطة براتيسلافا فى تشيكوسلوفاكيا . وقد صعدا خلسة الى قطار متجه الى فيينا حاملا المهاجرين اليهود القادمين من الاتحاد السوفيتى . وكان هؤلاء المهاجرون المحملين بحاجياتهم وبأطفالهم ، يتعين عليهم بعد سبعة أو ثمانية أيام من رحلتهم التى بدأت من طشقند أو من برست — ليتوفسك أو موسكو أن يتوقفوا بعض الوقت فى فيينا ، قبل أن يمضوا فى طريقهم الى اسرائيل . وعلى بعد ٣٨ كيلو مترا من العاصمة النمسوية ، اعدت الوكالة اليهودية بالاتفاق مع المستشار منذ عام ١٩٦٤ ، قصرا بنى على الطراز النمسوى المجرى ، يحمل اسم (شوبناو) ، لكى يستقبل ويستضيف ويوزع مجموعات اليهود

السوفييت الذين تسمح موسكو بخروجهم . وفى عشر سنوات : مر ثمانون الفا من هؤلاء على قصر (شويناو) . وفى عام ١٩٧٣ كان هؤلاء المسافرون الى فيينا يمثلون بالنسبة لاسرائيل اثمن مصادر الهجرة الصهيونية . وهو ايضا المصدر الوحيد . . وذلك المصدر الذى يوجه العرب من اجله اللوم المرير الى الروس ، ويتهمونهم بأنهم يساندون الآن الصهيونية ويدعمونها .

وما أن غادر قطار براتيسلافا ـ فيينا الحدود النمسوية حتى اقتحم اثنان من العرب العربة المخصصة لليهود ، واستولوا على ثلاثة من المهاجرين واحد موظفى الجمارك النمسويين . وقتلوا عاملا من السكك الحديدية حاول ابداء مقاومة . فلما وصلوا الى محطة فيينا ، اسرعوا الى المطار ، وطلبوا الحصول على طائرة تنقلهم ومعهم رهائنهم الى دولة عربية . لقد كان هدفهم واضحا ، هو احراج الاتحاد السوفيتى ، بان يظهروا له انه يعمل فى الواقع ضد العرب ، ثم يحاولون دفعه الى اغلاق هذا المصدر من المهاجرين اليهود .

واخذ برونوكرايسكى ومستشاروه على غرة . فعقدوا جلسة استمرت طول الليل ، تحدثوا خلالها بالتليفون مع الارهابيين . فليس هناك مجال للتضحية بالرهائن اليهود ، او بالسماح بميونيخ جديدة فى الأراضى النمسوية وليس هناك مجال كذلك لترك العرب يسافرون ومعهم اسراهم . . وفى الساعة الثانية صباحا ، عثر كرايسكى على الحل ، وقال : « اننا نعد باغلاق قصر (شويناو) والغاء التسهيلات الممنوحة لمجموعات المهاجرين السوفييت ، فى مقابل اطلاق سراح الرهائن » . وتمت الصفقة عند الفجر ، ويالها من صفقة . . فلقد أطلق سراح الرهائن ، وطار الارهابيون على متن طائرة نمسوية فان قصر (شويناو) سوف يغلق .

لقد اختار المستشار بين صفته كيهودى ، وبين جنسيته النمسوية بين المساندة العاطفية لاسرائيل ، والخوف من دخول الارهاب العربى الى بلاده . ولم يكن كرايسكى ليتردد ، فهو رجل نمسوى (١) .

كانت الضربة بالنسبة للقدس ، ضربة رهيبة . فالى جانب الخوف من تضاؤل موجة الهجرة السوفيتية التى تدعم اسرائيل وتبرر الصهيونية ، أثارت شعورا عارما بالغضب ، وكان غضبا يتسم بالحزن ، لقد استسلم كرايسكى فى نذالة للارهابيين ، انه يهودى يخون اسرائيل . وجرى همس عظيم انتقل من القدس الى تل ابيب ، فاحدث نزعات انتقامية وحزنا دفينا .

---

(١) كان النمسويون يعلمون ان الارهابيين الفلسطينيين يتاهبون للقيام بعملية ضد قصر شويناو ، وقد اعتقل ستة منهم فى يناير ١٩٧٣ وعندها فكرت فيينا فى اغلاق القصر .

واجتاحت مسألة قصر (شويناو) الصحف والمناقشات ونشرات الاذاعة ، وجعلت كل ماعداها امرا تافها ، بما فى ذلك الانتخابات ، وشعوذة كيسنجر ، والعام الجديد . . وابتداء من ٢٩ من سبتمبر ١٩٧٣ ، لم يعد هناك سوى موضوع واحد يشغل اسرائيل هو : شويناو ، وفيينا ، وكرايسكى .

وراحت البلاد كلها تناشد مسئوليها : « فلنفعل اى شىء .

وتلقت جولدا مائير النبأ ، وهى امام المجلس الأوربى فى سترامبورج وعلى حين فجأة اذا بالتجاعيد التى تغوص فى وجه (الجدة اليهودية) الحزين ، التى بلغت الخامسة والسبعين من عمرها ، تظهر وتتجلى وقد بدت كتفا مدرسة (ميلووكى) الضئيلة كما لو انهما ازدادتا انخفاضا وضعفا . لقد دخلت قضية فيينا مع جولدا مائير فجأة الى ابعادها الحقيقية ، هى ابعاد المأساة اليهودية الكبرى ، التى كانت فيينا واحدا من تقاطعاتها القديمة هو تقاطع شهيد التاريخ . . وقالت جولدا فى استسلام : « انهم كثيرا ما صورونى فى هيئة عجوز شمطاء ، محملة بالعقد والذكريات . حسنا . . اننى سوف اذكر عددا معينا ، هم اولئك الذين حضروا مؤتمر فيينا عام ١٩٣٨ ، حيث جرت الخطب المطولة حول مصير اليهود الذين طردهم النازى لقد كان العالم بأسره يشفق عليهم ، ولكن فى تحفظ ، وكان كل واحد يقول : ان بلادى لا تستطيع قبولهم . . » .

وفى أول اكتوبر ، قطع الكنيست اجازته البرلمانية ليعقد اجتماعا طارئا ، موضوعه الوحيد هو : شويناو . وفى يوم ٢ من اكتوبر ، توقفت جولدا مائير فى فيينا ، فى محاولة لاثناء كرايسكى . وفى صورة ذليلة بين اعمدة قصر (تاوتسون) الفخمة ، راحت تستجدى فى بؤس ما سخر منه « صقور » ليكود . غير أن كرايسكى لم يتراجع عن قراره ، وقصر شويناو سوف يغلق ، أو يوضع تحت اشراف الأمم المتحدة ، وهو ما تعتبره اسرائيل تحرشا بها . وفى ذلك الوقت تلقى المستشار رسالة شكر ، بعث بها اليه الرئيس السادات ، وحملها اليه مبعوث خاص .

وعند ذلك عادت جولدا مائير الى تل أبيب وقد اضناها الألم ، وعلى طائرتها ٨٠ يهوديا سوفيتيا . كانت حزينة ، ولكنها ليست منهزمة . وعبر العالم كله ، بمئات المنظمات اليهودية نفسها ، وراحت أمريكا تضغط بشدة على كرايسكى . . الذى استقبل مبعوثا خاصا لصحيفة (يديوت أحارونوت) على أمل أن يعيده الى صوابه . . وقرات اسرائيل من اقصاها الى اقصاها يوم ٤ من اكتوبر حديثا صحفيا مثيرا للمستشار النمسوى .

قال : « اننى أعلم ان الشعب اليهودى يجعل منى فى وقفة عيد الغفران موضع خزى وعار . على أن هناك حالات كثيرة فى التاريخ تشبه حالتى ، ولكنى أترك لجميع الذين وصلوا فى الايام الاخيرة من الاتحاد السوفيتى مرورا بفيينا ، ان يقولوا شيئا لصالحى . اننى لست صهيونيا ، فمنذ شبابى المبكر قطعت كل صلة لى بالدين اليهودى . اننى نمسوى ووطنى هو النمسا ، وانا رجل يهودى ذاب فى مجتمعه . ان اليهودى هو ذلك الذى ينضوى تحت لواء طائفة يهودية ، الا ان من حقه كذلك ان يخرج منها ، وليست هذه خيانة . وان من ينكر على حقى فى الا اعتبر نفسى يهوديا لهو انسان متعصب » .

ان فى الامكان تناول الكثير من النقاط الحساسة ، فى قليل من الكلمات . . ووقعت اسرائيل تماما تحت سيطرة (شوبناو) كما عقد مجلس الوزراء الاسرائيلى اجتماعه الأسبوعى الوحيد ، ولم يدر الحديث خلاله الا عن شيء واحد وهو (شوبناو) . ولم يعبأ احد بأن يثير ولو بشكل عابر ، الى الحشود الغريبة للقوات العربية عند الحدود .

الفصل الثالث

ساتر من الرمال

« العرب يجرون تجارب على صفارات الانذار »
(بديعون احرونوت ـ ٣ اكتوبر ١٩٧٣)

يمتد الساتر الرملي لمسافة ١٨٠ كيلو مترا بطول قناة السويس . ان جسمه سميك من الرمال لربع منحرف الأضلاع أقامه سلاح المهندسين الاسرائيلي بواسطة رافعاته الضخمة . انه ساتر كثيف يحجب أمامه مصر وافريقيا والعالم العربي ومن وجهة نظر هيئة الأركان العامة لجيش الدفاع الاسرائيلي تسهال ، فان هذا السد السميك بوسعه أن يحمي النقاط الحصينة الثلاثين التي يتألف منها خط بارليف كما ان بوسعه اخفاء المنشآت الاسرائيلية، وبوسعه أيضا وبصورة خاصة الحيلولة دون أية محاولة لعملية عبور سريعة للقناة من جانب الوحدات المصرية . . انه أداة دفاعية رائعة انه حائط .

وعلى الجانب الآخر من المجرى المائي ، على الضفة الغربية للقناة اقام المصريون سدا مماثلا يناهزه ارتفاعا واتساعا . ومنذ عام ١٩٧٠ ونهاية حرب الاستنزاف كانت مياه القناة الضاربة الى السواد تنساب بين هذين السدين الرمليين اللذين تقف خلفهما الدبابات والمدافع وجها لوجه عمياء لاترى أهدافها على الجانبين . وحتى يستطيع كل من الجانبين مشاهدة ما يجرى على الجانب الآخر كان الجنود الاسرائيليون والجنود العرب يتسلقون سفوح تلك الحصون ويتطلعون من خلال النظارات المكبرة . وكان جميع المجندين الاسرائيليين الذين يقضون فترة تجنيدهم فى منطقة القناة يسعون لارضاء فضولهم مرات عديدة خلال هذه الرحلات السرية بالتطلع لما يدور خلف هذا الستار . وفى مواجهتهم كانوا يشاهدون بعض الجنود المصريين يقومون بتدريباتهم وبعضهم الآخر يصطادون السمك بالسنارات تحت وهج الشمس . وكانوا يشاهدون أيضا الفلاحين يروون حدائق الفيلات القديمة فى القنطرة والاسماعيلية ويلاحظون خلال ذلك بطء الأداء الذى يطبع حركة هذه الفئة المصرية القديمة.

وكان الحوار يدور أحيانا من خلال الأبواق باللغة العربية « أو الروسية فى صورة استجواب ساخر أو دعاية دعوية : كان العرب يحدثون الجنود اليهود عن الدوافع الانسانية والأخلاقية التى ينبغى أن تدفعهم الى التمرد على

الخدمة العسكرية ، وعن جماعة «الفهود السوداء» فى القدس ، وعن الصعوبات الداخلية التى تواجهها الدولة اليهودية .. أما الجنود الاسرائيليون فقد كانوا يتدافعون ويلقون على أسماع خصومهم بعض النكات القاسية . حول التخلف فى مصر والجبن « الأبدى » الذى يطبع الجيوش العربية « ماذا تنتظرون كى تعبروا ؟ » هذه ليست بحرب ولا بسلام أيضا . انه حائط .

ولكنه أيضا رمز لما هو قائم بين الجانبين . وليس هناك صورة أقوى من هذا الحاجز الكثيف الذى أقامه الرجال فى قلب سيناء يمكن أن يلقى الضوء أيام السلام القليلة الباقية التى سينعم بها الشعب اليهودى فى اسرائيل فخلف هذه الأمتار التى تغطيها الرمال كانت الحرب تقترب ... والحقيقة أنها كانت تحوم حول حدود ١٩٦٧ . ففى مصر كانت المناطق العسكرية تشهد حشودا غامضة كما ان هيئة الأركان المصرية التى اتخذت لها موقعا تحت سطح الأرض على مقربة من القاهرة ، بدأت العد التنازلى للمعركة . كذلك فان هذه الستارة الصفراء التى تحجب شاطىء القناة كانت بمثابة أداة حديثة للتعمية حجبت الرؤية عن اسرائيل . انه حشد متراكم من الأوهام والازدراء ، والطمأنينة التى تولدت حديثا كما انها حشد من الغرور الذى تعاظم سريعا .. انها أساطير « الأمان » التى تحدث عنها روش هاشانا عام ١٩٧٣ تتحطم .. انها هذه الأساطير التى ارتفعت هذه المرة فوق مستوى النظر .. انها جبل من الرجال والسكينة التى تزدرى بكل شىء جبل سيلفظ من بين حباته عما قليل جنودا أفذاذا ربما أعلنوا عن ميلاد عالم عربى جديد . ولكن من كان يتصور ذلك ؟

لقد كان العماء يكمم عيون اسرائيل ويحجب عنها الرؤية .

لقد كانت مسيرة الزمن تعطى لهذه الأسابيع الأخيرة من حالة « اللاحرب واللاسلم » مشهدا مهيبا بطيئا أشبه ما يكون بمأساة مسرحية . لقد انقضى شهر أغسطس ثم سبتمبر . وها هو الدمار يقترب من البطل الذى يتطلع بناظريه بعيدا . وتتزاحم الدلالات التى تعلن قرب هبوب العاصفة ، الا أن اسرائيل أو أى كائن ما كان لم يعد فى وسعه أن يدرك مغزى هذه الغيوم المنذرة بالخطر التى أخذت تتجمع وتحتشد . وأخذت القدس تنغمس فى الحملة الانتخابية وتبدى ضيقها باضرابات العمال وحنقها الشديد على الارهاب الفلسطينى « وخسة » المستشار كرايسكى ولكنها أخذت أيضا تنظم عطلات موسم الأعياد وتطبع السعادة وتروضها وتلقى خلف السواتر الرملية الكثيفة ، وان كانت سواتر وهمية أطياف حرب لم يعد أحد يتوقعها لكثرة ماخشى نشوبها .

وكان انور السادات يرقب الجدول الزمنى الذى أعده ويتابعه . وبالنسبة لهذا الرجل المتعقل الذى ينحدر من أسرة متواضعة من الزراع فى ريف مصر ، وبالنسبة لهذا المناضل القديم فى صفوة الاخوان المسلمين ذلك الضابط الذى حصل على شهادته العسكرية من الأكاديمية العسكرية البريطانية ، فان الساعة التى لا يتوقعها أحد ــ وترنو اليها الأبصار منذ ستة أعوام ــ اخذت تقترب أخيرا . وها هو رئيس يناهز الخمسين ذو اناقة بادية ولكن دون تكلف ووجه بيضاوى يعلوه شارب يذكرنا بدوق الينجتون يوشك مع عام ١٩٧٣ أن يوفى بوعد قديم طالما أرجىء الوفاء به مما جعل أصدقاءه الأقربين يسخرون عندما يردد مثل هذه العبارات : الحرب ضد إسرائيل انهاء الاحتلال والذل .. لقد قال السادات فيما بعد « كنت أعلم منذ اليوم الأول الذى خلفت الرئيس عبد الناصر ، أنه يتعين على خوض غمار الحرب » (١) .

وبعد اسبوعين من وفاة عبد الناصر أجرى استفتاء فى ١٦ من أكتوبر ١٩٧٠ حصل فيه على ٩٠ ٪ من أصوات الناخبين المصريين . فهل كان ينكر ذلك الضابط الذى اطلق عليه الرئيس عبد الناصر بلا تكلف عبارة « بكباشى صح » بسبب وداعته الظاهرة ــ عادة الا فى هذه التركة المثقلة ؟ لقد وجد السادات الذى ورث التركة دون أن تتوافر له صفة القائد العملاق « ذو الموهبة الفذة والذى حمله التاريخ ليضعه على رأس مصر المهيضة الجناح الخائرة القوى ــ نفسه ولثلاثة اعوام طوال وجها لوجه ازاء اكثر الاختبارات سخفا . ان يعلن وبصورة مدوية أن الحرب باتت وشيكة وان كانت مصر لا تستطيع فى الواقع خوضها الا اذا توافر لها التسليح المناسب . أو أن يبنى جيشا يهدىء به ثائرة الشعب الذى يميل الى المخاطرة وأن يحصل من الروس على أسلحة هجومية حديثة فى نفس الوقت الذى يقاوم فيه مطالبهم المزعجة وأن يصبر وينتظر ويستجمع كل قواه بينما يبرز فى الشرق الأوسط وفى الأراضى المحتلة ذلك الكيان الظالم الذى يعرف بالأمر الواقع . انه كيان يرسخ عاما بعد آخر بفضل « الأمر الواقع » الذى فرضه الجنرال ديان .

ومنذ عام ١٩٧١ والتهكم يدور حول الموعد الذى حدده السادات للحرب فقد كانت هذه السنة بالنسبة له سنة التأثر العربى . لقد وعد السادات بذلك وكرر وعده مرارا . وفى يوم ٢٠ من نوفمبر من هذا العام ، وهو ثالث أيام عيد الفطر ، أعلن على موجات الأثير فى القاهرة « أن ساعة القتال قد حانت لأنه لم يعد هناك أمل فى امكان احراز أى حل سلمى . ان قرارنا هو

---

(١) صحيفة صندى تايمز ٦ ديسمبر ١٩٧٣ .

القتال . والى ان يصـــدر الأمر بالعبور « عبور القناة » أطالبكم بأن تجروا تدريبات مكثفة وقاسية وأن تتذكروا أن العبــور سيكون دائمــا فى اتجاه واحد . وسنلتقى فى المرة القادمة فى سيناء بمشيئة الله » .

ومضى عام ١٩٧١ ومن ورائه عام ١٩٧٢ ولكن لم يحدث شىء يعكر صفو الأمر الواقع المسلح على ضــفاف القنــاة . ان الأسلحة الروسية التى كان السادات ينتظرها لم تصله . وفى القاهرة تظاهر الطلبة بعنف وأعربوا عن نفاد صبرهم فى الوقت الذى كان فيه رسام الكاريكاتير فى صحيفة هاآرتس بتل ابيب يسخر من « صيــاح الرئيس المصرى » . وبمرور الشهور كان الســادات الذى أصــابته « النصائح السوفيتية الملزمة بالشلل » يرى أن حربه التى وعد بها تنأى بعيــدا وان تواطؤ الدولتين العظميين وهو ما بدا يظهر بجلاء أخذ يلقى ظلاله الكثيفة على المنطقة من سيناء حتى الجولان . لقد قال السادات فيما بعد : « لقد كان واضحا أن حالة اللاسلم واللاحرب كانت تروق الدولتين الكبريين : لقد كان هنــاك اتفــاق بينهما حول المستوى الذى ينبغى أن لا يتجاوزه توريد السلاح » .

لقد كانت روسيا وامريكا ، وهما أكثر حرصا على ترسيخ التهدئة بين الشرق والغرب من العمل على ازالة « الظلم السائد فى الشرق الأوسط ، تقدمان فى تنافسهما السلاح لمصر وسوريا واسرائيل بقدر محسوب . وكان الجزء الأكبر من السلاح لأغراض الدفاع والقليل الأقل منه للهجوم .. وإذا كان فى وسع اسرائيل أن تأمل أن تفلت ذات يوم من هذا المعيار المحسوب بفضل تنمية مواردها الذاتيــة من الســلاح فان الأمر يختلف بالنســبة لمصر حيث يوجد ٢٠ ألف خبير سوفييتى يحفظون فى جيوبهم مفاتيح اطلاق ٦٠ منصة لصواريخ سام ٢ وسام ٣ . بل أن القواعد السوفيتية فى مصر كانت تعتبر بمثابة أراض لاتخضع لسيطرة الدولة المصرية : مطارى أسوان وأسيوط ومنطقة غرب القاهرة التى خصصت لقواعد الصواريخ وموانىء الاسكندرية وبور سعيد وعريانه التى خصصت للبحرية . أما الضباط المصريون الشباب الذين انخرطوا فى الجيش المصرى الذى أعيد تنظيمه فانهم لم يكونوا ليقبلوا دون مزيد من الســخط تلك السلطــة الفظــة الممنــوحة « للمستشارين » الروس . وفى هذا الصدد ذكر معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن أن مصر « أصبحت بحق محمية سوفيتية » .. انها محمية فرضت عليها الظروف أن تسلك مخاطر العمل الدبلوماسى .

وفى نهاية ١٩٧٠ أخذت التهدئة بين الشرق والغــرب تحــرز تقدما . وترسخ معها بصورة أفضل رغبة الدولتين الكبريين فى دعم السلام فى الشرق

الأوسط . ولم تعد موسكو أو واشنطون ترغبان فى أن تجدا نفسيهما وجها لوجه فى صــدام جديد . وفى شهر سبتمبر تركت الدولتان العظميان الملك حسين « يطهر مخيمات الفدائيين فى عمان واقنع الروس القوات السورية بعدم التدخل . . أما السادات فقد خاب أمله عندما طلب التزود بطائرات جديدة . وأخذت العلاقات بين موسكو والقاهرة تتوتر ولكن تحت ستار من البيانات الودية .

ان حرب اكتوبر ستندلع من هذه الأزمة بعينها .

ولعل ذلك يعزى الى ان السادات كان لا يزال يتخذ موقفا متشددا : انه لم يعــدل عن الحرب فهو لا يثق فى جدوى العمــل الدبلوماسى من أجل استعادة « أرض الوطن » .

ولدى عودته من موسكو عام ١٩٧١ أخذ ضجره يظهر عاليا . . فقد قال فى هذا الصدد : « بالنسبة » للروس فان أزمة الشرق الأوسط قد لا تكون المشكلة رقم (١) أما بالنسبة لى فانها المشكلة الأولى (١) » .

وقد اكدت مسيرة الأحداث ظنونه بعد ذلك . ففى مايو ١٩٧٢ لم يشر البيان الختامى للقاء القمة بين بريجينيف ونيكسون الى أزمة الشرق الأوسط الا فى فقرتين ضئيلتين . ومن ثم ادركت القاهرة ودمشق اذ ذاك ، أن موسكو لن تساعدهما على استعادة الأراضى التى فقدوها بالقوة . واخذ راديو القاهرة يقول فى نبرة ساخطة « لقد نحى نيكسون وبريجينيف مصالحنا جانبا من فوق مائدة المفاوضــات » ورسم أحــد فنانى الكاريكاتير فى بيروت نيكسون وبريجينيف وهما يتعانقان ويسحقان فى نفس الوقت دول العالم الثالث . وبذلك يمكن القول بأن أزمة الشرق الأوسط قد فترت .

ولم يكن السادات ليدهش من ذلك . فقد سافر قبل ذلك بشهر أيام ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من أبريل عام ١٩٧٢ ــ الى موسكو لكى يكرر مرة أخرى على مســمع من الســوفييت انه مضطر لشن الحــرب ذات يوم « الا أن رد السوفييت جاء جافا فقالوا له : « اننا لا نرغب فى حدوث مجابهة بين الدولتين العظميين » وشرح بريجينيف للسادات كيف أنه من الأفضل ان ينتظر الى حين اجراء الانتخابات الأمريكية فى شهر نوفمبر : فقد يكون ذلك بداية عهد جديد للسياسة الأمريكية ازاء اسرائيل . وكان معنى ذلك ان السادات لن يحصل على الميج ٢٣ وأصبحت الأزمة منذ ذلك الحين أمرا لا يمكن تفاديه .

---

(١) شبيجل ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

وفى ١٧ من يوليه علم العـالم اجمع والدهشة تملأه أن الرئيس المصرى اتخذ قرارا بطرد ٢٠ ألف خبير سوفييتى من مصر مما أحـدث فجأة تغـيرا على مسرح الأحداث السياسية فى الشرق الأوسط . وكان السادات نفسه هو الذى ألقى الضـوء على أسباب هذه العملية المدوية فقـد قال : « اننا لا نجهل أن للاتحاد السوفييتى بوصفة دولة عظمى دورا يريد أن يقوم به على المسرح الدولى كما أن له استراتيجيته الخاصة به . أما بالنسبة لنا فهناك جزء من أرضنا يقع تحت وطأة الاحتلال ، وهدفنا على الصعيدين المصرى والعـربى هو أن نحرره . اننا مقتنعون بأنه ازاء العنـاد الاسرائيلى والدعم المستمر الذى تمـدها به الولايات المتحـدة ، فان أزمة الشرق الأوسط لن تحل الا من خـلال معركة حاسمة . لقـد كان الخلاف الأساسى بيننا وبين الاتحـاد السوفييتى ينصب دائما على نوعيـة التسليح ومواعيـد تسليم الأسلحة لمصر . وطوال هذه المفاوضات كنا نوضح دائما أن القاهرة ترفض اى قيد على استخدام العتاد العسكرى مهما كانت طبيعته ذلك أن اى قرار سياسى لمصر لا ينبغى أن ينبـع الا من الادارة السياسية المصرية والشـعب المصرى دون التفريط مسبقا فى اى شىء مهما كان » .

وكان التساؤل فى جميع عواصـم العـالم حول النتـائج المحتملة لهذه « الضربة الطائشة » .. أن السادات لا يريد أن يكون مغلول اليدين .. نعم ليكن ذلك .. ولكن بماذا تراه سيخوض الحرب ؟ من سيمد مصر مستقبلا بالسـلاح ؟ وبطبيعة الحال فان القدس تشعر بالرضا لهذا « الاضمحلال » الذى أصاب الخصـم بسبب هذا الاندفاع الأهوج . وبخاصة لأن الاعـداد للحرب هذه المرة يوشك أن يبدأ فى مصر . بل انه سيخطو خطواته العملية اعتبارا من شهر نوفمبر ١٩٧٢ لقد تلقى السادات غداة اعادة انتخاب نيكسون رئيسا للولايات المتحدة خطابا من بريجينيف يحثه فيه مرة أخرى على تقبل سياسة التهدئة ويبلغه بأن الاتحاد السوفييتى لن يستطيع أن يضاعف من شحنات السـلاح التى يرسلها اليـه . وكان ذلك بمثابة فيتـو من جانب السوفييت .

وفى ١٤ من نوفمبر عقـد فى القاهرة اجتماع غير عادى للجنـة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ، وكانت النصائح التى أسداها السوفييت لمصر هى محور النقاش فى هذا الاجتماع الا أن الحديث لم يطل بهم . فقد رفضت هذه النصائح ونحيت جانبا تماما . وقال السادات بصورة قاطعة فيما بعد : « لقد بدأنا فى تلك اللحظة الاعداد للمعـركة » . وفى الواقع عاد الرئيس فى فبراير ١٩٧٣ يشن من جديد حملة دبلوماسية فقـد طار حافظ اسماعيل « كيسنجر مصر » الى موسـكو ولنـدن وبون وواشنطون يحمـل المطالب

العربية .. والتقى يوم ٢٣ من فبراير بالرئيس نيكسون فى البيت الأبيض الامريكى الذى حدثه عن فرص للتسوية السلمية « ولكن لم يمض أسبوع واحد اى فى الأول من مارس حتى كانت جولدا مائير تجتمع بدورها بالرئيس نيكسون . وخرجت رئيسة وزراء اسرائيل من الاجتماع تحمل هدية قيمة : ٤٨ طائرة فانتوم جديدة تعهدت الولايات المتحدة بتقديمها لاسرائيل . وكان ذلك بالنسبة للسادات يعني تأكيدا واضحا لا لبس فيه بأنه لا ينبغى له أن ينتظر من نيكسون الذى أعيد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة أى تغير فى سياسته .

واقتنع السادات بأن ذلك لن يحدث الا اذا أرغم من خلال معركة . ولكن اى معركة تلك ؟ ان السادات وهو رجل واقعى أكثر منه خيالى ، وعملى أكثر منه عاطفى ، يعرف انه حتى مع فرض أن الجيش المصرى أصبح يختلف عنه فى عام ١٩٦٧ ، الا انه لا يستطيع ان يأمل فى تدمير القوات الاسرائيلية أو أن يغزو سيناء بمفرده .. كما أنه يعلم ان نشوب حرب « شاملة جديدة » أمر ينطوى على مخاطر جمة بالنسبة لمصر ، وأن وقوع هزيمة رابعة تضاف الى الهزائم الثلاث السابقة لن يدفع بمصر بمفردها ، ولكن بالعالم العربى بأسره ولأجيال عديدة ، الى هوة سحيقة من الخزى والعار لا مجال للخلاص منها هذه المرة . كما انه كان مقتنعا بأن استئناف حرب الاستنزاف بالصورة التى كانت فى عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ فى شكل اشتباك بالمدفعية والطيران سيجلب على مصر هذه المرة صواعق الاسرائيليين القاتلة . وأخيرا فان تدويل الصراع العربى الاسرائيلى « وتواطؤ » الدولتين العظميين أصبح يحول الآن بين الطرفين المتنازعين وبين الأمل فى أن يحرز أى منهما نصرا حاسما على الآخر فى ميدان المعركة .

« كذلك فان السادات كان يتذكر هذا الرأى الذى كان يردده عبد الناصر : « يكفى أن نحصل على عشرة سنتيمترات من أرض سيناء » ويقال انه كان يفكر كثيرا فى الهجوم الذى شنه الفيتناميون فى رأس السنة القمرية عام ١٩٦٨ ، وهو الهجوم الذى أعطى لقوات الفيت كونج والقوات الفيتنامية الشمالية نصرا سياسيا لا جدال فيه وذلك رغم الهزيمة النسبية التى منيت بها هذه القوات على أرض المعركة . لذلك وجدنا فى عام ١٩٧٢ ، أن الموقف السياسى الاسرائيلى فى العالم كان سيئا بقدر ما كان موقف مصر طيبا . ومن ثم كان يكفى أن يستغل هذا الموقف الدولى الموالى للعرب ، والذى كانت تضعفه حالة الوضع الراهن الراكدة وتعرقله بصورة مستمرة ، من أجل فتح ملف « الشرق الأوسط » بقصف المدافع لارغام الدولتين العظميين على فرض حل يتفق وقرارات الأمم المتحدة . ثم ألم يكن ذلك هو هدف الجنرال جياب

عندما دفع فى ٣٠ من مارس ١٩٧٢ بمدرعاته لتجتاز خط عرض ١٧ ؟ وبلغ جياب هدفه بالرغم من عدم الثقة فيما قد يسفر عنه ذلك عسكريا . هذا فضلا عما عرف عن كيسنجر من ولع بحل المشكلات وهى « ساخنة » وكان ارنولد برشجراف رئيس تحرير النيوزويك قد تحدث طويلا عن هذه النقطة خلال الحديث الصحفى الذى ادلى به السادات اليه فى ربيع ١٩٧٢ . ولم ينس السادات ذلك الحديث .

وتدريجيا تجمع فى مخيلته مشروع « لحرب محدودة » وهو ما لا يتعارض واحلام العرب فى تدمير اسرائيل . وحتى يضع السادات هذا المشروع موضع التنفيذ كان يحتاج الى ثلاثة عوامل مساعدة : جهاز عسكرى قوى والاطمئنان لمساندة سوفيتية بصورة ما واقامة جبهة سورية أردنية مصرية موحدة ووضع استراتيجية عربية منسقة .

وبالنسبة للنقطة الأولى فقد كان السادات مطمئنا : فقد اعيد تنظيم الجيش المصرى ودرب وطور . كما أن وزير الحربية الجديد الفريق احمد اسماعيل على الذى أسند اليه السادات فى أكتوبر ١٩٧٢ مهمة الاعداد للهجوم رجل متفائل . ولم تكن هناك أوجه للشبه بين هذا الضابط الزاهد الدقيق — الذى استحق بفضل صراحته الواعية لقب « البروسى » — وبين جنرالات الجيش المتانقين المولعين بالثرثرة من ذوى البطون المترهلة والذين قادوا جيوش مصر من زمن طويل . وكان الدبلوماسيون الغربيون فى القاهرة يرون فيه ذلك الطالب النجيب المجد الذى تتلمذ على أيدى أساتذة الاستراتيجية السوفييت . وعلى عكس سالفيه اظهر الفريق اسماعيل ميلا للحذر والحيطة وهما ما جلبا عليه فيما بعد تأنيب رئيس هيئة اركانه المنفذ سعد الدين الشاذلى (١) .

أما الشاذلى فيبلغ من العمر ٥١ عاما وهو عدوانى النزعة واثق من نفسه الى حد الجراة ، وهو من المظليين ونموذج كامل للضابط المصرى الجديد الذى يخلو من أى احساس بالنقص تجاه الخصم الاسرائيلى فقد كان الشاذلى عام ١٩٦٧ ، واحدا من هؤلاء القادة القلائل الذين خرجوا من الكارثة وقد علت أسهمهم . فقد تمكن بالرغم من الحصار الذى فرضه عليه الاسرائيليون فى سيناء من أن يخرج من هذا المأزق وأن يعود بقواته بنظام

---

(١) نتيجة لهذه الخلافات التى ظهرت خلال سير المعارك كان الشاذلى يريد ان يتقدم اكثر واكثر داخل سيناء ، اقصى الشاذلى يوم ١٢ من ديسمبر وحل محله فى رئاسة الأركان الفريق عبد الغنى الجمسى .

حتى القناة . وكان يكرر دائمـا : « ان اليهود لا يستعصون على الهـزيمة ونستطيع أن ننزلها بهم » .

لقد التقى الشاذلى واسماعيل على عام ١٩٦٠ فى الكونغـو عنـدما كانت تضمهما الوحـدة المصرية فى قوات الطوارىء الدولية هنـاك . ولكنهما لم يتفاهما مطلقا . فقد كان أحدهما فى جانب يمثل الانضباط الصارم المتريث فى حين يمثل الآخر الجراة المفرطة . ولكنهما كانا يعكسان سويا مع حلول عام ١٩٧٣ صورة للجيش المصرى الذى سيبهر عما قليل اسرائيل والعالم أجمع . فقد مزج هذا الجيش بين الخطط المحكمة والشجاعة والبسالة . واعد اسماعيل على خطة دقيقـة لعبور القنـاة تكفل الشاذلى بتنفيـذها ببسالة . ويمكن القول بأن الكلمتين اللتين ستطلعان فيما بعـد على الهجوم تلخصـان الهـدف والحدود التى ستقف عندها هـذه العملية فقد عرفت « بعملية بدر » (القمر) نسبة لموقعة بدر الشـهيرة التى خاضها الرسـول صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان عام ٦٢٤ ميلادية ضد قبائل قريش ، كما عرفت أيضـا باسم « الشرارة » لأنه لم يكن لها أى هدف آخر سـوى « اشعال » صراع الشرق الأوسط خبا وميضه ببطء لصالح اسرائيل .

يناير ١٩٧٣ :

لقد قدر السادات واسماعيل على الذى عين منذ قليل قائدا عاما لقوات الاتحاد الثلاثى الذى يضم مصر وسوريا وليبيا جوانب القـوة والضعف للعدو بصورة محكمة . وتم ذلك باقتدار وحكمة فريدتين . وفى هذا الصدد قال الفريق اسماعيل : « ان العدو يتمتع بتفوق جوى ومقدرة تكنولوجية وتدريب جاد لقواته . يضـاف الى ذلك قدرته على أن يحصل من الولايات المتحـدة وبسرعة فائقة على مدد متصل من السلاح .

وفى الجانب الآخر كانت هناك بعض أوجه النقص التى كان يشكو منها العـدو : اذ يتعين عليه أن يدافع على عـدة جبهات ممتدة تتخللها خطوط مواصلات طويلة كذلك فان قدرته البشرية لن تمكن من تحمل خسائر فادحة فى الأرواح ، كما أن اقتصاده يحول بينه وبين خوض غمار حرب طويلة . وفضلا عن ذلك كله فان عقـدته فى التفوق لن تساعده مطلقا على ان يقـدر بصورة سليمة حقيقة الموقف » .

وجاءت « عقدة التفوق » لكى تغطى عينى اسرائيل واجهزة مخابراتها بغلالة سوداء . وعلى العكس من ذلك فقد جاء عنصر آخر لكى يلعب دوره بصورة يفيد منها السادات وهى أن أحدا لم يكن يثق فيما كان يقوله : فكثيرا ما أعلن الحرب ولكن أحدا حتى فى داخل العالم العربى وحتى داخل

مصر نفسها لم يعد ياخذ تهديداته واستعداداته للمعركة على محمل الجد . فقد وضع الجيش المصرى خلال سنتين فقط فى حالة التأهب خمس مرات على طول القنـاة ، ومن ثم فان جعجعة السادات السابقة ستعطيه رصيدا هائلا من الريبـة « وعدم التصـــديق » .. انها فرصـة سانحة أن أحدا لا يصدقه (١) .

غير انه برزت مع مطلع عام ١٩٧٣ عقبـة كأداء كان يتعـين التغلب عليها وهى الانقسامات الداخلية فى العالم العربى . وحتى يمكن النيل من اسرائيل كان يتعين على العرب فى الواقع أن يهاجموا وفى نفس الوقت على جبهتين ان لم يكن على ثلاث . غير أن سوريا المتشددة ما كانت لتقبل هكذا فجاة فكرة « الحرب المحدودة » بينما كان الملك حسين يملك أطول حدود مشتركة مع اسرائيل ولكنه « قاتل الفلسطينيين » و « الوصمة » فى جبين العالم العربى « والخائن » الذى قطعت عنـه مصر وسوريا علاقاتهما الدبلوماسية (٢) ومن ناحية أخرى فان حسين الموالى للولايات المتحدة لم يكن مستعدا لخوض غمار مخاطرة عسـكرية جديدة كلفته الكثـير عام ١٩٦٧ . وهكذا اخذ السادات بتؤدة وصبر يمد الجسور بين « المتطرفين » فى دمشق وبين الرجل المريب المنادى « بالتهدئة » فى عمان . لقد كان السادات يلعب دور الحكيم المتزن .

ومع شهر مارس ١٩٧٣ بدأ السادات عملية جس نبض للسوريين فقد التقى فى يومى ٢١ ، ٢٣ ابريل برئيس اركان الجيش فى القاهرة لبحث الموقف العسكرى الاسرائيلى وامكانية شن هجوم منسق . وخلص المجتمعون الى أن الفرص المتاحة طيبة . وبعد ثلاثة أيام أى يوم ٢٥ من ابريل أثار السادات فى الكلمة التى القاها بمناسبة أول اجتماع للوزارة الجديدة دهشة وزرائه فقد قال لهم بجدية : « أيها السادة لقد اتخذت قرارا راسخا بشن الحرب قريبا . وأود أن أستمع من كل منكم عن رأيه بصراحة حول هذا الموضوع » وقوبلت كلمات الرئيس بصمت يغلب عليه الارتياب وعدم التصديق ويلفها اطار مبهم من السخرية .

وقد قاطعه متباطئا اسماعيل صبرى عبد الله الماركسى الوحيد فى الوزارة « قائلا » : « فى مثل هذه الحـالة تستطيع أن تكون على ثقـة من أن المعـونة السوفيتية لن تعوزنا بل انها ستتضاعف » .

---

(١) العبارة التى استخدمها « اريك رولو » (الموند ٢٤ ، ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣) .

(٢) منذ ١٩٧٢ . وقد اقترح الملك حسين اقامة مملكة متحدة تضم الضفة الغربية للأردن .

وهنا هز السادات رأسه . فهو يعلم حقيقة الموقف بالنسبة لهذه النقطة . لقد طرد الخبراء السوفييت الأمر الذى قرره فى شهر يوليه من وصاية اصابته بالجمود والشلل . « اننى أريد أن أعطى لنفسى حرية كاملة فى المناورة وهذا ما تصورته موسكو . فقد كانت العاصمة السوفيتية يساورها القلق من جراء العواطف الموالية للأمريكيين التى أخذت تتفشى تدريجيا فى مصر . ان الكرملين ليس مستعدا بأى حال من الأحوال لمزيد من التشدد ازاء مصر بعد خصام قد يخدم مصالح واشنطون واسرائيل . ولكنها خصومة مدوية لا تخلو من مظاهر وهو ما سيساعد على خداع اسرائيل .

لقد زارت القاهرة فى أول فبراير بعثة عسكرية سوفيتية كبيرة وعاد سرا مئات من الخبراء السوفييت الى مصر . وارسلت موسكو أسلحة جديدة وبصفة خاصة الصواريخ من طراز سام ٦ ، ٧ وأسلحة مضادة للدبابات من طراز أريبجيه ٦٧ وساجر ٦٤ . وبالرغم من أنها أسلحة «دفاعية» فانها ستوفر عنصر النجاح لعملية بدر . أما سوريا فقد تلقت مع مستهل ربيع ١٩٧٣ دبابات جديدة من طراز ب ٦٢ وصواريخ سام وحوالى ٤٠ طائرة ميج ٢١ . وبلغ اجمالى الصادرات السوفيتية من السلاح لسوريا ما قيمته ١٨٥ مليون دولار خلال الشهور الستة الأولى من عام ١٩٧٣ (أى بما تزيد قيمته عن ٣٥ مليون دولار بالمقارنة الى ما تم توريده طوال عام ١٩٧٢) . وبذلك كان فى وسع السادات أن يعلن فى حديثه مع وزرائه عن « حربه » التى يعتزم خوضها خاصة وانه كان على يقين من انه اذا ما تشبثت الحرب فان الروس سيؤازرون العرب .

وبطبيعة الحال فان هذه الشحنات الكبيرة وهذا التسليح المفاجىء لسوريا لم يخف على المخابرات الاسرائيلية والأمريكية ففى بداية شهر مايو مالت تقديرات المخابرات الأمريكية والبنتاجون على ضوء هذه المعلومات الى الاعتقاد بأن بدء المعارك أمر « محتمل » وخاصة عندما وقع صدام فى بيروت بين الفدائيين وقوات الجيش اللبنانى . ففى هذه الآونة قدمت المخابرات الاسرائيلية تقريرا مفصلا ومسهبا حول هذه المسألة الى القدس . وبالرغم من أن بعض قطاعات المخابرات الاسرائيلية أوضحت أن احتمالات الحرب ضئيلة فان دافيد اليعازر رئيس الأركان كان يعتقد أن العكس هو الصحيح . وكان يخشى بصورة خاصة من امكانية تدخل سورى ضد لبنان يتصاعد بعده القتال .

لقد أدرك عدد كبير من المراقبين الغربيين أن استعدادات السادات كانت جادة هذه المرة . وقد بعث مراسل الصنداى تيمز فى القاهرة ابتداء من

٨ ابريل لصحيفته ببرقية تدل على نفاذ البصيرة وان لم تسترع الانتباه كثيرا قال فيها « ان هناك دلالات تؤكد أن السادات يعتزم شن هجوم عسكرى محدود ضد اسرائيل . غير أن هذه العملية لا تستهدف الحاق الهزيمة باسرائيل وخاصة أن جنرالات الجيش لا يعتقدون أن فى وسعهم الحاق مثل هذه الهزيمة بها .. انها عملية عسكرية تستهدف اذابة الجليد الذى يسود منطقة الشرق الأوسط . وستتم هذه العملية بمعاونة سوريا وهدفها استعادة جزء من سيناء واستخدام كميات هائلة من السلاح بغرض اصابة اسرائيل فى أكثر النقاط حساسية . وعندئذ ستتدخل الدولتان الكبريان لغرض تسوية بين الطرفين » .

والمعروف أن « دافيد اليعازر » رفض يوم ٢ مايو عندما جرى تبادل اطلاق النار فى بيروت أن يقدم على أية مخاطرة . وفى يوم ٧ من مايو عبأ قوات الاحتياط وأرسل بعض قواته الى الجولان الا أن الهجوم لم يقع . وبطبيعة الحال فان هذا الانذار الزائف كلف اسرائيل غاليا : لقد كلفها ٤٠ مليونا من الجنيهات سينوه بعبئها الاقتصاد الاسرائيلى الذى يعانى من التضخم على أن ذلك سيكلف اسرائيل مستقبلا الكثير . وبينما يجىء ذلك معززا للاعتقاد الراسخ بأن لا داعى ثمة اعتبارا من الآن الى التعبئة للقوات الاحتياط عند أقل انذار بالخطر نظرا لما يمثله ذلك من عبء مالى بالنسبة لاسرائيل فضلا عما يسوقه من مبررات تدعم موقف الجناح الأكثر تفاؤلا فى المخابرات الاسرائيلية ، الا أنه يسهم فى القاء الضوء على امور كان « المتعلق شرحها » الا وهى مفاجأة يوم عيد الغفران .

نعم لقد كان السادات محظوظا الى حد كبير عندما لم يثق احد فيما كان يقول ..

وفى بداية الصيف واصل السادات بدأب وصبر استعدداته السياسية والعسكرية .. فى يوم ١٢ من يونيه التقى بالرئيس الأسد وأقنعه بقبول الهدف الذى حدده لخوض حرب محدودة .. واذا كان الأمر قد انتهى لكى يقتنع بوجهات النظر المصرية فهذا يغرى لأسباب حملته على ذلك . فهناك أسباب تتعلق بالوضع الداخلى فى سوريا . فقد كان حزب البعث يتعرض حكمه منذ عدة شهور لتهديد خطير هناك . كما جرت مظاهرات عنيفة فى حمص وحماة خلال شهور فبراير ومارس وابريل وقد اكتشفت مؤامرة فى صفوف الجيش ويعتقد أن الرئيس الأسد قد افلت بأعجوبة من محاولة لاغتياله . وكان الأسد يعتقد تماما كالسادات ان شن حرب على اسرائيل هو أفضل علاج للأوضاع السياسية فى الداخل .. انه دواء قديم ..

وبعد ان نجح السادات فى كسب الأسد الى جانبه بقى امامه ان يجد حلا لمشكلة الملك حسين . ان مشاركته فى عملية بدر أمر لازم بالضرورة وحتى اذا رفض عندما يحين الوقت أن يفتح جبهة ثالثة ، فان السادات كان يتوقع منه على أقل تقدير أن يشغل جزءا من القوات الاسرائيلية على نهر الأردن ويجمل احتمال تدخله خطرا يلوح فى الأفق . وبالرغم من ذلك فان الملك حسين لم يكن مستعدا بعد للانضمام الى المشاريع المصرية . فقد كان يقف بمنأى عن ذلك كثيرا . وفى يوم ١٢ من مايو أبلغ السادات ضباطه فى مذكرة سرية كان مضمونها واضحا تمام الوضوح : « ان الدول العربية تعد العدة لنشوب حرب .. ولكنها حرب سابقة لأوانها » غير أن السادات كان قد عقد العزم بالفعل . ومهما كان رأى الفلسطينيين فانه يتعين عليهم أن يعيدوا علاقاتهم بالملك حسين ، غير أن دماء ايلول الأسود ، ما تزال تفصل بين زعيمى الطرفين ومن ثم تكفل الملك فيصل بالاضطلاع فى الخفاء بدور الوسيط . ومنذ أغسطس ١٩٧٢ تصالح السادات سرا مع الملك حسين .

وقد استقبل العاهل السعودى العجوز ، الذى علا نجمه فى سماء الشرق الأوسط ، لمدة اثنتى عشرة ساعة ، رئيس وزراء الأردن . وفى ٦ من اغسطس وصل مبعوث من السادات الى عمان وغادرها بعد أربعة أيام الى دمشق ومعه الرفاعى مندوبا عن الملك حسين . وقد ساعدت هذه التحركات التى مرت دون أن يلحظها أحد ، وهو ما يبعث على الدهشة ، على تمهيد الساحة السياسية شيئا فشيئا ، فقد جمعت العواصم الثلاث حول هدف واحد هو الحرب . وفى نفس الوقت كان القادة العسكريون ينسقون خططهم سويا . وفى يوم ٢٩ من أغسطس وصل اللواء طلاس وزير الدفاع السورى الى عمان لاجراء مباحثات مع وزير الدفاع الأردنى . وعندئذ شعر السادات بأنه قاب قوسين أو أدنى من بلوغ غايته الى حد أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الافضاء بنبأ الهجوم القريب لعدد ليس بالقليل ممن تحدثوا معه . ومما يثير الدهشة أن أحدا منهم لم يثق فى ذلك .. حتى القادة الفلسطينيون فى بيروت الذين أخطروا بذلك بصورة حذرة لم يكونوا ليصدقوه أيضا .

وفى يوم ١٠ من سبتمبر غداة مؤتمر عدم الانحياز فى الجزائر وضعت اللمسات الأخيرة لخطة بدر . وفى هذا اليوم وصل الأسد وحسين الى القاهرة لعقد اجتماع « قمة ثلاثى » غير أن رد الاعتبار الى العاهل الهاشمى على هذا النحو العلنى ومنحه هذا الصفح الرسمى أثار الدهشة فى وزارات خارجية الدول الأجنبية . لقد أصبح ذلك الذى كان يطلق عليه السادات عام ١٩٧٠ لقب « جلاد المقاومة الفلسطينية » يستقبل الآن بكثير من الاحترام فى « عاصمة القومية العربية » أما قادة المقاومة فقد أثارت هذه المصالحة

حفيظتهم وذكرت اذاعة منظمة التحرير الفلسطينية فى تعليقها قولها « انه لمن المحزن أن يسمح لهؤلاء الذين خضبوا أيديهم بدماء الفلسطينيين بأن يخرجوا اليوم من عزلتهم » . وقد نشرت الصحيفة الفلسطينية فلسطين الثورة « مقالات افتتاحية تعمر بالعداء الصارخ » لمؤتمر القمة بالقاهرة وقالت هذه الصحيفة : ان الفدائيين لم يدركوا بعد أن الحرب تسير فى طريقها هذه المرة .. حقيقة أنهاحرب قد نحوا عنها جانبا .. ومهما يكن الأمر فان صياحهم وتشددهم العقائدى كان يهدد بالحاق الضرر بعملية بدر وبهذه الحرب المحدودة التى نحوا عنها جانبا .

وفى ١٤ من سبتمبر حصل السادات على موافقة الأسد على اغلاق اذاعة منظمة التحرير الفلسطينية التى تبث برامجها من درعه على الحدود السورية الاردنية ، وأن يصادر صحيفة فلسطين الثورة . وعلى العكس من ذلك أظهر حسين مبادرات طيبة : فقد أصدر يوم ١٨ من سبتمبر قرارا بالعفو الشامل عن ٧٤٥ فدائيا كانوا معتقلين فى سجون عمان منذ سبتمبر ١٩٧٠ . بل انه ذهب الى حد تناول اقداح القهوة مع أبى داود القائد السابق لقوات الميليشيا الفلسطينية فى السجن المركزى بعمان .

واعتبارا من ١٢ من سبتمبر اصبح الطريق ممهدا امام السادات ..

وقد افسح مؤتمر القمة بالقاهرة خلال يومين السبيل نحو تحديد مختلف جوانب خطة الشرارة بصورة دقيقة . وكان هدفه المحدود ينحصر أولا فى استعادة الاراضى المحتلة (وليس تدمير اسرائيل) بتفجير ازمة دولية وتدخل الدولتين الكبريين . أما العمليات الاستراتيجية فكانت تتلخص فى أن تكون سوريا قادرة على استرداد الجولان ، وعلى أن مصر لن تدفع بجيشها داخل سيناء ولكنها ستكتفى بالاستيلاء على شريط عرضه ٣٠ كيلو مترا بمحاذاة القناة . اما الملك حسين الذى ما زال يبدو متحفظا (والذى لم يبلغ بكل شىء عن خطة بدر) (١) فانه بالرغم من ذلك سيجمد جزءا من القوات اليهودية من خلال التلويح بفتح جبهة ثالثة . أما فيما يتعلق بما تبقى من أمور فقد ترك شانها للرئيس السادات .

وقد اتسم تعقيب القدس على اجتماع القمة بالقاهرة وعلى عملية رد الاعتبار المفاجئة للملك حسين بالهدوء والرزانة . وكانت القدس تعتقد ان

---

(١) أكد الملك حسين الذى كان يرتاب فى السادات فى كثير من أحاديثه الصحفية التى نشرت عقب الحرب بأنه شخصيا فوجىء بهجوم السادس من اكتوبر .

الهدف منها هو ببساطة تنشيط الجبهة الشرقية « وافساح المجال من جديد أمام الفدائيين لكى يعملوا على طول نهر الأردن » .

ولم يكن هناك ما هو أشد تهديدا بالنسبة لاسرائيل من ذلك . ولم يكد الزعماء الثلاثة يفترقون حتى جاء حادث ١٣ من سبتمبر الجوى الذى غمس اسرائيل بأكملها فى دوامة من الفرح والسرور . فقد أسقط الطيارون اليهود فوق طرطوس ٢٣ طائرة ميج سورية . وما تزال ظروف هذه المعركة الجوية غامضة فمن يا ترى صاحب المبادرة ؟ وهل هى عملية خداع قاسية من جانب السوريين ؟ ولماذا لم يطلق الخبراء السوفيينت فى سوريا صواريخ سام ؟ وهل أرادت اسرائيل أن ترهب سوريا عقب مؤتمر القمة بالقاهرة ؟ وهناك ثمة أمر مؤكد وهو أن النتيجة الأولى لهذا النصر المظفر الذى احرزه الطيارون الاسرائيليون هى الاسراع فى الخطى نحو الاعداد لخطة الشرارة . وقد اتصل الأسد الذى كان يملؤه الغضب ضد الروس بالسادات تليفونيا وقال له : « لقد حان الوقت » (١) .

انها نصيحة لا داعى لها : فقد كان تاريخ الهجوم قد حدد بالفعل منذ بضعة أيام على أن يكون يوم ٦ من أكتوبر وهو يوم عيد الغفران فى اسرائيل . لقد قال احمد اسماعيل على فيما بعد « اننا نحتاج الى ليلة صافية يكون القمر فيها بدرا يرافقنا بصورة أو بأخرى خلال الساعات الحاسمة كما نريد ليلة يكون فيها التيار فى القناة صالحا لعملية عبور سريعة ، لا يرتاب فيها العدو فيما نفعل ولا يكون فيها مستعدا للرد . لقد اختير يوم ٦ من أكتوبر مقدما ومنذ عدة شهور نتيجة لحسابات فلكية وفى ضوء تقارير هيئة ادارة القناة على مدار سنوات طويلة حول مياه القناة وسرعتها . ومن ناحية اخرى لم يكن العدو يتوقع أن يشن القتال خلال شهر رمضان فى الوقت الذى كان هو فيه مشغولا بالاحتفال بكثير من أعياده » .

لقد بدأت المجموعات الأولى من الدبابات المصرية تتحرك يوم ٢٠ من سبتمبر .

ولم تحرك اسرائيل ساكنا . ومنذ عشرة اعوام والمصريون يجرون مناوراتهم دائما فى الخريف انها تدريبات تقليدية .

---

(١) جرى غداة المعركة الجوية لقاء وصف بأنه « عاصف » بين عبد الحليم خدام وزير الخارجية السورى ونور الدين محى الدين نوف السفير السوفييتى ولام السوريون السوفييت لانهم يتصفون كأسياد فى سوريا ولانهم لم يطلقوا صواريخ سام ورفضوا تزويد سوريا بطائرات الميج ٢٣ وقد اتخذ الاسد فى نفس المساء اجراءات بالحد من حرية ترك المستشارين فى التجول وقد خدمت اسرائيل نتيجة لذلك .

غير ان وكالة المخابرات الأمريكية لاحظت يوم ٢٤ من سبتمبر بفضل محطة الكترونية للتجسس أقامتها فى ايران أن مناورات الخريف التى يقوم بها الجيش المصرى تضم لأول مرة فرقا بأكملها مزودة بأسلحة هائلة وبمعدات هندسية غير معتادة وبنظام متكامل للاتصالات اللاسلكية . وقد أجابت اسرائيل على الاستفسارات التى وجهت اليها فور ذلك وعلى أعلى المستويات بأن « ليس هناك ثمة خطر لنشوب الحرب » .

وفى نفس اليوم بدأ الجيش السورى ينتشر تحت سفوح الجولان فى وادى دمشق . وقد سجلت « عين اسرائيل » المفتوحة فى يقظة تامة على قمة جبل الشيخ كافة تفاصيل هذا الاستعدادات الا ان أيا من الضباط لم يعبأ بذلك بعد : لقد كانوا يتصورون أن الوحدات السورية أخذت مواقع دفاعية ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك . ثم ان اسرائيل بأكملها كانت مشغولة بالاستعداد للاحتفال بالعام الجديد .

وفى عيد رأس السنة وعلى وجه التحديد فى يوم ٢٦ من سبتمبر قام موشى ديان بجولة تفقدية زار خلالها المنشآت العسكرية السبع عشرة فى الجولان . وكان على علم بالاستعدادات السورية . وكان يعلم أيضا أن السوريين دعموا قوتهم الدفاعية المضادة للطائرات بصواريخ سام . وقال ديان فى هذا الصدد : « هناك على الطرف الآخر من الحدود مئات من الدبابات ومئات من المدافع ونظام متكامل للصواريخ على غرار النظام الذى أقامه المصريون على طول القناة » . واستخلص ديان أمام الصحفيين الدرس المستفاد من هذا الموقف قائلا :

ان الجولان أكثر عرضة للخطر من القناة ومن ثم يتعين تعزيز المستوطنات والمستعمرات الزراعية « نحال » بحيث يتم تزويدها بأسلحة ثقيلة .

وطمأن الوحدات الاسرائيلية فى الجولان فدعمها باللواء السابع المدرع الذى سحب ووضع فى منطقة بير سبع ووضع ديان الجيش على الجبهتين فى حالة تأهب . ثم وجه كلمة لها دلالتها الى السوريين قائلا : « آمل أن يدرك السوريون أن اى مبادرة عسكرية من جانبهم لا يمكن الا أن تجلب آلاما وخسائر ستكون بين صفوفهم أكثر مما ستكون بين صفوف اسرائيل » ولم تشر الصحف الاسرائيلية التى توقفت عن الظهور لمدة ثلاثة أيام خلال عيد رأس السنة الى هذه الزيارة التى قام بها ديان الا يوم ٣٠ من سبتمبر وكان تعقيبها على هذه الزيارة يبعث على الطمأنينة والرضا .. وقالت فى هذا الصدد : « ان حالة التأهب أمر معتاد خلال فترات الأعياد » .

واستمرت المخابرات الأمريكية تسأل يوما بعد يوم تل ابيب التى كانت ردودها دائما متماثلة « لا يوجد ثمة خطر ينذر بوقوع هجوم » . ولم يلاحظ أحد ان الولايات المتحدة قد اتخذت بالرغم من ذلك اعتبارا من يوم ٢٧ من سبتمبر احتياطات محدودة : فقد اطلقت قمرا صناعيا للاستطلاع من طراز ساموس من قاعدة فاندنبورج بكاليفورنيا . وكان مدار هذا القمر يمر بالشرق الأوسط .

وبينما كانت اسرائيل بأكملها مصابة بالشلل يوم ٢٨ من سبتمبر بمناسبة الاحتفال بعطلة العام الجديد كان السادات يلقى خطابا بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة جمال عبد الناصر . واتخذ السادات فى هذا الخطاب اجراءات تتسم بالتسامح ازاء الطلبة والصحفيين المسجونين واختتم السادات كلمته بقوله : « أيها الاخوة والاخوات ربما لاحظتم ان هناك موضوعا لم أطرقه وهو موضوع المعركة . لقد فعلت ذلك عن قصد . اننا نعرف هدفنا واننا عاقدون العزم على بلوغه . اننى لن اعد بشىء ولن اناقش ايه تفاصيل » لقد أثار هذا الهدوء الخادع وهذا التواضع الذى طبع خطبة الرئيس المصرى ابتسامة ساخرة فى اسرائيل . أليس هذا اعترافا بالعجز ؟

ومنذ اليوم التالى وقع حادث طمس بقوته ما عداه من أحداث الساعة وهو حادث معسكر شونياو . فقد ملأ هذا الحادث أعمدة الصحف . ولم يكن هناك معلق واحد فى اسرائيل الا كشف عن بعض التفاصيل وان كانت على قدر من الأهمية . فقد ذكرت هذه التعليقات أن الفلسطينيين اللذين أرغما كرايسكى على الخضوع وينتميان الى منظمة نسور الثورة هما فى الواقع أعضاء فى منظمة الصاعقة التى انشأتها عام ١٩٦٨ اللجنة المركزية لحزب البعث وهى منظمة يسيطر عليها السوريون تماما . وكان زهير محسن زعيم هذه المنظمة قد هاجم قبيل عملية فينا باسبوع واحد الأعمال التى تفتقر الى الاحساس بالمسئولية والتى يقوم بها بعض الفدائيين . فمن يا ترى جعله يعدل عن رأيه ؟ ربما كانت عملية شونياو جزءا من عملية بدر .

ومنذ يوم ٣٠ من سبتمبر وبينما كان جميع القادة الاسرائيليين لا هم لهم كما كان متوقعا الا الحديث عن خيانة المستشار النمساوى استمرت المخابرات الأمريكية وثقيفتها التابعة لوزارة الخارجية تراقب الاستعدادات العربية ولكن دون أن تبدى قدرا متزايدا من القلق . وقد رفعت وزارة الخارجية الأمريكية مذكرة الى هنرى كيسنجر يوم ٣٠ من سبتمبر أوضحت فيها أن ليس هناك ما يبرر هذه المخاوف تماما . أما المخابرات الأمريكية وهى أكثر تشاؤما فقد استندت الى الثقة الراسخة التى تبديها اسرائيل . وفى الواقع

فان تقديرات المخابرات الأمريكية التى تتسم بالدقة قد أفسدتها المخابرات الاسرائيلية التى كانت تستحوذ دائما على اعجاب الـ .C.I.A . كذلك فان المخابرات الاسرائيلية التى افسدتها عقدة التفوق التى تسيطر عليها كانت تضع يدها على معلومات طيبة الا انها أساءت تفسيرها .

واخذت الأمور تتدافع وتسرع الخطى .

ومع فجر اليوم الأول من اكتوبر اخذت الدبابات والمدفعية الثقيلة فى سوريا تتحرك . وفى هذه المرة ساورت المخاوف مرصد جبل الشيخ الذى أبرق الى تل ابيب يقول ان السوريين يتحولون تدريجيا من مواقف الدفاع الى مواقف الهجوم . وعلى القناة ايضا لوحظ وجود تحركات غير عادية كما أن عددا من الضباط فى نقاط خط بارليف الحصينة أخطروا هيئة الأركان بما يساورهم من قلق . لكن تل أبيب كان لها رأيها الذى تمسكت به وهو أن السوريين يريدون القيام بمناورة للارهاب والتخويف بعد هزيمتهم الجوية يوم ١٣ من سبتمبر وان المصريين يتضامنون معهم فى ذلك .

وفى يوم ٢ من أكتوبر توجه الفريق احمد اسماعيل على الى دمشق ليضع اللمسات الأخيرة لعملية الهجوم يوم ٦ من أكتوبر . . وقد حددت ساعة الصفر الثانية ظهرا . وفى نفس اليوم عبأت سوريا قوات الاحتياط واعلنت مصر حالة الطوارىء وعللت ذلك « بالحشود الاسرائيلية الموجودة على الضفة الشرقية » ولم يكن ذلك صحيحا وان كان عملا بارعا . قد لاحظت المخابرات الاسرائيلية بالرغم من ذلك أن تصاريح العمرة كان يسمح بها فى الجيش المصرى وأن بعض الوحدات استدعيت الى الصفوف الخلفية . لقد كان ذلك يبدو أمرا أبعد من أن يصدق واثبتت حيل الخداع العربية فاعليتها . وبالرغم من ذلك ابلغ قادة الوحدات ولأول مرة فى ذلك اليوم أن ذلك لا يدخل فى نطاق المناورات العسكرية . لقد بدأت خطة بدر توضع موضع التنفيذ . غير أن الصحف الاسرائيلية التى اشتهرت بميلها الى التشاؤم السريع لم تشر فى اليوم التالى الى هذه الاستعدادات كافة الا من خلال برقيات مقتضبة صاحبتها تعليقات اتسمت بالغباء (١) وكان هذا الاجماع يدعو الى الدهشة فقد ذكرت صحيفة أيديعوت أحرونوت فى عددها الصادر يوم ٣ من أكتوبر أن الأنباء الخاصة باعلان حالة التعبئة على الحدود السورية وعلى قناة السويس لم يكن لها الا صدى محدود فى اسرائيل وفى العالم وهذا يؤكد الاعتقاد العام

---

(١) لقد تلقت الصحف الاسرائيلية تعليمات بأن تضفى على الموقف طابعا مأساويا .. وهى تعليمات لم تكن فى حاجة اليها .

السائد فى اسرائيل بأنه لا ينبغى ان تخشى تجدد القتال خاصة وان العـرب يخشون نشـوب حرب جديدة ، ويبدو من المحتمل انه فى ظرف ايام قليلة فان كل شيء سيعود الى سيرته الأولى .

كما ان صحيفة دافار كتبت فى نفس اليوم تقول : « ان الدول العربيـة تشعر بطبيعة الحال ، بأثر النصر السياسى الذى أحـرزه الارهابيون على الحكومة النمساوية ، وانها مضطرة أن تثبت انها بنفس القدر من النشاط وكان أول ما اقدموا عليه فى هذا الصدد هو اعلان حالة الطوارىء على القناة ونقل بعض القوات السورية الى الجولان » . . اما صحيفة جيروزاليم بوست فقد نشرت مقالها الافتتاحى تحت عنوان : « تعبئة زائفة » واضافت الصحيفة ان رئاسة الأركان الاسرائيلية اتخذت الاجراءات المناسبة لاحتمال وقـوع عمل عسكرى مفاجىء . وعلى أية حال فان المراقبين يعتقدون أن التوتر الحالى لن يدوم طويلا .

وفى اليوم التالى بدأ الاتحاد السوفييتى يطلق من أعماق غابات الاستبس فى كازاخستان وفى الكوسمدروم العسكرية بليخانجهلسك بروسيا أقمـار الاستطلاع كوزموس ٥٩٧ و ٥٩٨ و ٥٩٩ ... الخ . ولكن من كان بوسعه أن يعرف ذلك فى اسرائيل (؟) وكان المدار القريب من سطح الأرض للقمـر الأول والذى كان يدور بزاوية ميل قدرها ٦٥ر٤ درجة يسمح له بأن يلتقط صورا فوتوغرافية لساحات القتال فى منطقة الشرق الاوسط باسرها وكانت هذه الصور بالغة الدقة بفضل آلات التصوير المزودة بها ولعله من المعروف أن الأقمار من طراز كوزموس تستطيع أن تميز من ارتفـاع ٢٠٠ كيلو متر جنديين لاتفصل بينهما مسافة تزيد عن المتر الواحد .

وفى يوم ٤ من اكتوبر عقد اجتماع محدود فى مقر القيادة العامة بلانجلى بولاية فيرجينيا ضم « قادة » أجهزة المخابرات الأمريكية لدراسة الموقف ، وقد تلقى هنرى كيسنجر الذى كان يستفسر منهم دون توقف عن حقيقـة الموقف منذ عشرة أيام بعد ظهر هذا اليوم تقريرا يشيع منه التفاؤل . ونظرا للاختلاف فى التوقيت فقد كان ذلك يوافق فى اسرائيل فجر الخـامس من اكتوبر .

وفى ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم عقـد اجتماع فى تل ابيب بمكتب وزير الدفاع حضره الجنرال ايلى زيرا مدير المخابرات الاسرائيلية وعدد من مساعديه . وعرض زيرا انباء غريبة فقد قال أن الطائرات بدات فى القـاهرة ودمشق عملية ترحيل للخبراء السوفييت واسرهم . وبسط ايضا على المائدة

صورا فوتوغرافية التقطت من الجو للخطوط المصرية والخطوط السورية . وقد شوهد بوضوح على هذه الخرائط اعداد ضخمة من الدبابات ووحدات المدفعية والصواريخ غير ان أحدا لم يكن يعتقد امكانية حدوث هجوم عربى بل ان زيرا هز كتفيه مؤكدا ذلك عندما انزعج بعض مساعديه للصورة التى بدا عليها الموقف . ولذلك صرح بتراخ لدافيد اليعازر بأن يضع الجيش فى حالة استنفار من الدرجة الثالثة وبأن يلغى التصاريح التى لم تكن قد أعطيت بعد لأصحابها بمناسبة يوم عيد الغفران الا أن هذه الاجراءات كانت أقل مما ينبغى .

فقد ذكر بعضهم انه : « ربما كان يتعين استدعاء الاحتياطى » ولكن هذا الاحتمال نحى جانبا خاصة وأن مثل هذا القرار سيثير ذعرا لا يتفق ويوم عيد الغفران . وسيكتفى باخطار المسئولين اذا لزم الأمر باجراء التعبئة كما سيطلب من رؤساء شركة ايجد الأوتوبيس (التى تتولى عند الاقتضاء نقل القوات الى الجبهة) بأن لا يخلو سبيل السائقين ممن اكملوا عملهم فى الدورية الأولى بحيث لا يسمح لهم بالعودة الى منازلهم الا فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر وفى الوقت الذى أعلن فيه راديو اسرائيل بداية يوم عيد الغفران وقبل أن يختتم برامجه عقد اجتماع محدود آخر بمقر رئاسة الأركان حضرته جولدا مائير والوزراء الذين يسكنون فى تل ابيب .. وقد حضر اربعة منهم هم : شيمون بيريز وحاييم بارليف وموشى ديان واسرائيل جاليلى . اما رادو / اليعازر الذى دعى الى حضور الاجتماع قد بدأ متشائما تماما . واعرب عن أمله فى أن يتم من الآن استدعاء الاحتياطى كما حدث فى مايو الماضى . غير أن اقتراحه رفض بالاجماع . وكان ديان أول من لم يشق بامكانية اندلاع الحرب .. وفى رأيه ان القوات التى أرسلت الى الحدود ستكون كافية تماما لاحتواء اى هجوم محتمل الى ان تصلها قوات الاحتياطى . والا تقوم الاستراتيجية « الدفاعية » الجديدة التى وضعها تسهال على هذا الأساس ؟ اذن فما جدوى « العمق الاستراتيجى » ؟

وفى ديزنجوف بتل أبيب وفى شوارع القدس وحيفا أغلقت المحال والمقاهى أبوابها ، وكانت المجموعات الأخيرة من سيارات الأوتوبيس التى تسير فى الشوارع تتجه نحو حظائرها . لقد بدأ يوم عيد الغفران يوم السبت بما يشوبه من مسحة صمت أليم . فقد كانت الشوارع خاوية والمعابد مليئة بالمصلين . وذكرت صحيفة معاريف المسائية أن « قوات تسهال ترقب عن

كشب كل ما يدور على الجانب المصرى من قناة السويس . لقد اتخذت كافة الاجراءات لتفادى وقوع هجوم مفاجىء » .

وفى شهر اكتوبر يجىء الليل سريعا .

وفى نقاط خط بارليف أمام الساتر الرملى كان عدد الجنود الاسرائيليين لا يكاد يبلغ ٦٠٠ جندى من قوات اللواء ١١٦ التابع لقوة مدينة القدس وقد تفرقوا على امتداد ١٨٠ كيلو متر بطول الجبهة . وفى مرتفعات الجولان فان القوات العاملة التى بقيت فى مواقعها كانت تشعر بالسخط لأنها لم تحصل على تصاريح للاحتفال بيوم عيد الغفران كما هى الحال بالنسبة لقوات الاحتياطى .

الفصل الرابع

فقد الاتزان

(٦ ـ ٩ اكتوبر)

« ان اليوم العاشر من هذا الشهر العاشر سيكون يوم التكفير ستوجه لله فيه دعوة مقدسة » .

انتشر نبأ الحرب ووصل الى اسماع المارة . لقد استقل هنرى سيارة الأوتوبيس التى صودرت وهى تتجه الآن صوب الجولان . ولكن ماذا عن هنرى انه يبلغ من العمر ٢٦ عاما . وتتدلى على جبينه خصلة الشعر الأشعث . لقد خلف وراءه طفلين فى شارع ريهوف بن زكى جنوب القدس . الاتوبيس تسوده الفوضى . وموجة من القلق الغامض تسرى هنا وهناك .. ولكن كانت تسمع أيضاً اهازيج حماسية ويتخللها نكات ثقيلة يطلقها الجنود انهم فى طريقهم ليمسحوا الصدأ لقد اكتشفوا ثمة جمعا غفيرا من الجنود الذين يرتدون الزى العسكرى على الطرق المؤدية الى الجليل . وكان هناك جلبة شديدة عند مفارق الطرق التى مروا بها كافة لقد كان هنرى يشعر بحرارة الجو ويعانى منها بشدة .

انه يوم السبت السادس من اكتوبر . لقد انتقل نبأ الحرب صباح اليوم الى شوارع القدس بماذا يمكنك ان تشبه الحرب ؟ لا يمكن أن تشبهها بشىء فى الواقع وفى بداية الأمر كان الحديث يجرى همسا لا يمكن تحديد معالمه ، ثم انتقلت الشائعات متعثرة من بيت الى آخر ومن سلم الى آخر ومن تليفون الى آخر . لقد كانت شائعة أثارت الدهشة . ففى صبيحة ذلك اليوم حلقت فى حوالى السابعة فجر يوم عيد الغفران وهو يوم تغلب عليه السكينة والهدوء طائرات الميراج الاسرائيلية فوق القدس فى موجات متتالية وهى تنشر ضوضاءها فوق الشوارع الخالية . وكانت الطائرات تختفى فى الأفق فوق تلال يهوذا ثم تعود ادراجها فوق المدينة وهى تحلق على منخفض فوق اسطح المنازل . لقد ادرك الآن الرجال الذين خاضوا حرب الأيام الستة، كما ادركت قوات الاحتياطى التى اشتركت فى الحروب الماضية ما هو المقصود بذلك . انها التعبئة وبعد ذلك بقليل عندما سطعت الشمس بقوة على القدس كانت الشوارع تبدو عجيبة الشأن .

ووفقا لما هو متبع فى عيد الغفران فان السيارات لا تسير فى الشوارع فى هذا اليوم كما أن سيارات الاوتوبيس والتاكسى تتوقف بدورها أن التوراة تحرم ذلك السير وبطبيعة ألحال فان جماعة الحاسديم المتعصبين الذين يقطنون حى مياشاريم وهم يعرفون بنزعتهم نحو المحافظة على الهالات (الفدائية اليهودية) وبغطرستهم كانوا سيقومون قطعا بقذف الملحدين الذين يجرءون على السير بسياراتهم فى هذا اليوم بالحجارة . ويوم عيد الغفران يوم مخصص للصلاة والاستغفار يحيا فيه اليهود طوال النهار حتى المساء حياة قظة بالضرورة لا يجدون فيه محال تجارية مفتوحة أو دورا للسينما يرتادونها او حتى اذاعة يستمعون اليها أو صحفا يطالعونها . انه يوم سبت تتوقف فيه الحياة بصورة تفوق ما يحدث أيام الآحاد فى بريطانيا . اذن فقد شاهد كل فرد فى ذلك الصباح العربات العسكرية وسيارات الأوتوبيس التابعة لشركة ايجد وهى تنهب شوارع الملك داود فى ارشال بعضها خلف بعض وتتوقف أمام كل بيت وقد انضم اليها راكب جديد أنهى صلاته بسرعة ثم تقلع على عجل . وكان بعض المصلين الذين احتشدوا للصلاة قبل ذلك بساعات فى مساء اليوم السابق يبدون دهشتهم بسبب هذا الالغاء المفاجىء لتصاريح الاجازات بالنسبة للجنود ، وبسبب استدعاء قوات الاحتياطى خلال يوم عيد الغفران . « فلم يكن أحد بعد يتصور ولو لمرة واحدة أن بوسع العرب أن يشنوا هجوما » .

لقد بدأت عملية التعبئة كما لو كانت أداة ميكانيكية معقدة مبهمة ولكنها دقيقة ومنظمة خاصة بعد ما تدربوا عليها آلاف المرات فهذا الشخص مسئول عن كذا وذلك عن كيت وعندما يدق بوق السيارة يكون الزى العسكرى معدا . . فكل يعرف وحدته ونقطة تجمعه وهذا كل ما فى الأمر . نهنرى فعلا جاويش فى وحدة للمظليين تعسكر بالقرب من رام الله لقد أخذ سترته العسكرية وقبل زوجته اذ عندما تبدأ الحرب فان احدا لا يعرف شيئا أكثر من ذلك .

وقد انطلقت الشائعات طوال الصباح فى القدس تزكيها بعض هذه التفاصيل التى لم يعتادوها . ولم يكن أحد يدرك حقيقة الموقف على وجه التحديد . وكان بعض الجنود يطلون برؤوسهم خارج نوافذ سياراتهم العسكرية ويصيحون بلهجة ساخرة لاثارة انتباه الفضوليين انها المعركة الكبيرة . . الا ان الذين تصوروا أنها الحرب من الاسرائيليين عدد قليل .

وكان أحد أصدقاء هنرى وهو صحفى ينتمى الى جناح الحمائم المعادى للصهيونية متخصص فى شئون العالم العربى يشرح الموقف من وجهة نظره فيقول : ان احدا لا يتقبل الأشياء المستحيلة هكذا بسهولة . . ربما كان

الأمر لا يعدو أن يكون صداما عاديا على القناة أو الجولان ولكنه ليس على أية حال صداما خطيرا .. ان العرب لن تذهب بهم الحماقة الى هذا الحد » ..

وحتى فترة الظهيرة أو بعدها بقليل كان هناك نوع من الهمس الذى لايخلو من الريبة يسرى من فم أحد الاسرائيليين لكى تتلقفه اذن آخر غير اسرائيل .

لكن النبأ لم يعرف الا فى الساعة الثانية ظهرا .

وفى ميدان شومار الذى انطلقت من أبواقه النداءات يوم عيد الغفران تدعو اليهود الى الصلاة انطلق فيض من الصفارات وكلها تدعو الاسرائيليين فجأة الى الحرب ـ وللمرة الرابعة فى غضون خمسة وعشرين عاما . وفى ظرف دقائق قليلة انغمست مدينة القدس فى جو من الاضطراب فقد أخذت السيارات الخاصة تنهب الشوارع الى حد انها كانت تذهب الى حد اختراق قلب مياشاريم نفسها . وتدافعت الأسر فى كل مكان نحو المخابىء . واندفع الجنود داخل المعابد لترحيل رجال الاحتياطى والذين كثيرا ما كانوا حتى هذه اللحظة ملتحفين بالشال (ازار الصلاة) لم يخلعوه بعد . ولم تكد الصفارات تتوقف حتى استأنفت الاذاعة الاسرائيلية التى توقفت منذ المساء عن بث برامجها من جديد لكى تعلن الهجوم الموحد للجيوش العربية فى الجولان وعلى قناة السويس . وجاء فى البيان العسكرى أن قوات الدفاع الاسرائيلية اتخذت الاجراءات الدفاعية اللازمة « ثم أخذ المذيعون يرددون كل ربع ساعة عبارات قصيرة غريبة يكتنفها الغموض . » حلة اللحم « ذئب البحر » « سيدة جميلة » وكانت كل من هذه العبارات موجهة الى جنود وحدة معينة تعنى أن تساهال تناديها .

أما هنرى فلم يسعفه الوقت لكى يلتقط النداء الذى « يخصه » فقد حضر اليه فى شارع بن زكى أحد أفراد وحدته العسكرية قبل أن تطلق الصفارات نداءاتها وقبل أن تستأنف الاذاعة بث برامجها وأبلغه نبأ الاستدعاء وقال له « أسرع ان السيارة تنتظرك » ولم يحر هنرى سؤالا وغادر الجندى قاعة الطعام التى سادها نوع من الفوضى على عجل . نعم كانت الفوضى تغمر القاعة .. فقد كانت أكداس الكتب مبعثرة هنا وهناك وكانت رسومات أطفال تشاهد فوق الكراسى أما المطبخ فكان يعج بالأطباق القذرة . وكانت منافض السجاير ممتلئة بالرماد وبقايا السجاير ... انها قاعة طعام ... أشبه بقاعات الطلبة ... فقد كان هنرى وزوجته يعيشان حياة بوهيمية وهذا كل ما فى الأمر .

لم يكن هنرى سعيدا بذلك كثيرا كما لم يكن متحمسا له بصورة خاصة وكان قد وصل الى منزله يوم الخميس بعد أن حصل على تصريح عسكرى من وحدته وكان من المفروض أن ينهى فترة الخـــدمة العسكرية « مع بداية الأسبوع . غير أن هنرى ليس جندى صاعقة فى ميدان القتال وهو ليس بالقطع كذلك ... وكان يقول وهو يهز كتفيه « اننى لست نموذجا للمواطن الاسرائيلى ... اننى يسارى كما يقولون ... »

وبدأ سيل متدفق من الشباب يحتشـــد على الطرق كافة فى اسرائيل وعلينا أن نتابع ليومين آخرين ملامح هنرى وسط هـــذا الحشد من الصبية العاطلين الذين شاءت الاقدار ان تبعث بهم من جديد الى مناطق الحدود . لقد كان الاحرى بهنرى أن يشاهد فوق أحد أرصفة الحى اللاتينى بدلا من وجوده فى فصيلة من المظليين انه شخص يقنع بالقليل ذو نزعة متمردة ولكن ها هو الآن يتجه الى ساحة القتال دون أن يكون لديه شغف بالحرب أو القتال انه شخص متواضع لا يتكبر على احد ولا يزدرى احدا . انه شخص فقد ايمانه بالصهيونية وله منذ وقت طويل أصدقاء من العرب فى القدس . وربما كانت هذه حالة استثنائية ، وربما كانت نادرة ، غير أن ما يمكن أن يعانيه اليوم جمع غفير من أبنـــاء الصابرة الأشـــداء وهم يشقون طريقهـــم بالمئات والآلاف فى السيارات الى ساحات القتال أمر لا يثير بالتأكيد الاهتمام بالقدر الذى يثيره هذا اليهودى الضائع « وسط حشد من الجنود الذين لا يقهرون » .

لقد عاشت اسرائيل بأكملها بين فترة اطلاق الصفارات يوم ٦ اكتوبر وفجر الاربعاء ١٠ اكتوبر أى طوال اربعة أيام تقريبا فيما يشبه فقد الاتزان لقد كانت هذه الأيام الأولى من الحرب أشبه بأسطورة تتحرك واشترك الطالب المعدم ابن شارع بن ساكاى فى هذه المسيرة الهائلة من الأوهام التى انطلقت من القدس الى روش بينا ومن تل أبيب الى العريش ويمكن القول بأن الاستثناءات تعكس صورة افضل للموقف من القواعد الراسخة خاصة عندما تبرز هـــذه الاستثناءات فجأة بحيث لا يمكن تجاهلها . هكذا كان الموقف وكان محـــور تفكير هنرى اليسارى الموالى للعرب . « يتركز كغيره من الناس وهو يهم بركوب سيارته الى الميدان يقول لنفسه ان العرب شرفاء لكن تسهال سوف يسحقهم سحقا « ولم يكن تفكيره » يزيد عن ذلك أو ينقص وقال لزوجته وهو يعانقها تماما كما قال غيره من الاسرائيليين لزوجاتهم فى تلك الساعة سأعود يوم سوكوس أى يوم الخميس القادم فستة أيام تكفى للاطاحة بالسوريين وغيرهم .

لقد بدات الحرب فى اسرائيل يوم السبت السادس من اكتوبر فى جـــو

من الغضب المتئد وان كان لا يسيطر عليهم فقد ما احساس قوى بالنصر . فلم يعد هناك « صقور » أو « حمائم » أو « ليكود » أو « فهود سوداء » . بل كان هناك فقط آلاف من الاسرائيليين يهرعون لكى ينتصروا فى حربهم الرابعة .

غضب متئد ؟ هذه هى المرة الأولى التى تتعرض فيها اسرائيل فى تاريخها لهجوم مباغت . وهذه هى المرة الأولى التى يتعين فيها على اسرائيل أن تدافع عن نفسها بدلا من أن تنقل القتال بصورة خاطفة الى أراضى العدو . لقد حدث هذا التحول فى العادات العسكرية وطبع بصورة خاصة حرب يوم عيد الغفران بطابعه فى الفترة ما بين الساعة الرابعة صباحا والثانية ظهرا . لقد كانت ساعات طويلة . . . طويلة جدا .

وفى الساعة الرابعة دقت أجراس التليفونات فى منازل جولدا مائير وموشى ديان والياهو وزيرا لتوقظهم من النوم وكانت المخابرات الاسرائيلية والمخابرات الأمريكية هما اللتين رصدتا الاستعدادات العربية فى مراحها الأخيرة واجمعتا بصورة قاطعة على أن هجوما مصريا وسوريا سيقع اليوم فى وقت واحد فى الساعة السادسة بعد الظهر وبمجرد ان أخطر « داود » اليعازر رئيس الأركان بذلك طلب شن هجوم جوى وقائى فورى خاصة وان هذا الهجوم كان فى رأيه كفيلا بتحطيم الجيوش العربية حتى قبل أن تبدأ اجتياز خطوط وقف اطلاق النار وقد وضع على مكتبه خطة مجهزة للتنفيذ . الا ان جولدا اعترضت على ذلك بغض النظر عما قد يترتب على ذلك من مخاطر عسكرية . لقد كانت جولدا تعلم ان اسرائيل لا تستطيع سياسيا هذه المرة ان تمنح نفسها حق الاعتداء « أمام العالم » وقد وجه اللوم كثيرا الى اسرائيل عام ١٩٦٧ لأنها اخذت المبادرة وارسلت طائراتها لمهاجمة المطارات المصرية وقد برز من بين اليهود أنفسهم فيما بعد عدد ليس بالقليل ممن كانوا يعتقدون أن المسألة كانت لا تخلو من اندفاع وعجلة حقيقة ان تلك الحرب قد منحت تسهال « نصر الأيام الستة » الا أن ذلك القى على عاتق اسرائيل عبئا باهظا الا وهو سخط الرأى العام العالمى عليها .

وكان من بين ما تردد فى هذا الصدد وعلى سبيل المثال تصريح للجنرال مانا نياهوبليد الذى أوضح ان المبدأ القائل بأن خطر الابادة كان يحوم فوقنا فى يونية ١٩٦٧ ، وان اسرائيل تناضل من أجل بقائها العضوى لا يعدو أن يكون خدعة ولدت ونمت عقب الحرب (١) كذلك ذهب حاييم بارليف نفسه

(١) مؤتمر عقد بنادى نترالتا بتل ابيب ــ ها آرتس ١٩ مارس ١٩٧٢ .

الى حد معارضة الفكرة القائلة بان اسرائيل كانت مهددة . وقال فى هـذا الصدد « اننا لم نكن نتعرض لتهديد بالابادة عشية حرب الأيام الستة ولم نقل او نفكر مطلقا فى أن هـذا الاحتمال كان ممكنا » (معاريف فى ١٩ أبريل ١٩٧٢) وضرب عـزرا وايزمان على نفس الوتر عنـدما صرح « بأن يهـود الشتات كانوا يريدون أن يروا فينا لأسباب تتعلق بهم أبطالا أكرهوا على ذلك إكراها . الا أن هذه الرغبة لا تستطيع أن تغير شيئا من الحقائق » (معاريف فى أبريل ١٩٧٢) .

واذا كانت الاجراءات الوقائية التى كانت عام ١٩٦٧ موضع جدل بين جنرالات اسرائيل انفسهم فماذا يحدث هـــذه المرة ؟ ان جولدا مائير التى استدعيت من فراشها فجر يوم عيد الغفران تعتقد انه ينبغى اللجوء الى مخاطرة محسوبة وذلك بالمحافظة الى آخر مـــدى ممكن على الفوز بحقها المشروع » ولم يكن لكافة الجهود العسكرية التى بذلت منذ عام ١٩٦٧ وكذلك الخطط الاستراتيجية المعدلة التى اتبعها جيش الدفاع الاسرائيلى سوى هدف واحد . الحد من هذه المخاطر الى أدنى حد ممكن . وبطبيعة الحال فان « الأراضى المحتلة » تشكل عمقا استراتيجيا يبعث على الطمأنينة وهـو ما كانت تفتقر اليه اسرائيل فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وعلى قناة السويس ثم تصميم خط بارليف بحيث يستطيع أن يعطل « الهجمات المصرية » لمدة ٢٤ ساعة على الأقل . ولا ينبغى فقط أن تصمد حصون خط بارليف ولكن ينبغى أن يوقف السد الرملى الهائل الذى يمتد على طول هذه الحصون ــ وحتى قبل أن يصل العدو الى هذه الحصون ــ القوات العربية لمدة اثنى عشرة ساعة على الأقل . وفضلا عن ذلك فان تسهال كان يعتمد على سلاح سرى . فقد كان يخرج من كل نقطة حصينة من نقط خط بارليف أنابيب للمازوت تتجه الى مجرى القناة فى وسعها أن تقيم فى دقائق قليلة سدا من النيران واللهب أمام المهاجمين . وعلى الجولان كانت الاستعدادات الدفاعية أقل تعقيدا وان كانت مهولة وفى جميع الحالات كانت اسرائيل تملك الوقت الكافى لتعبئة الاحتياطى .

وهناك مخاطر ينبغى مواجهتها ولكنها مخاطر محدودة .

فمنذ عشرة أعوام واليهود يسمعون عن « قلاعهم الآمنة » ولكن ما جدوى هذه القلاع اذا لم يكن فى وسعها أن تقدم لاسرائيل ميزة حرمت منها دائما . وهى أن تكون هى المعتدى عليها ؟ لقد كان أصدقاء مناحم بيجن والمنادون بالحرب من أعضاء ليكود يطالبون بالحاح بطبيعة الحال فى كل مناسبة بهجوم وقائى » ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ ألم يبلغ جيش الدفاع الاسرائيلى عام ١٩٧٣ قدرا كافيا من المنعة بحيث يكون فى وسعه أن يدع العدو يبدأ القتال ؟ لقد

فكرت الجدة جولدا صباح السبت فى كل هذه الأمور واشعلت خلال ذلك أول سيجارة لها فى ذلك اليوم . كما انصرف تفكيرها الى اشياء اخرى غير ذلك .

وهل سيكون فى وسع احد فى الخارج ان يدرك الى أى مدى ما زالت اسرائيل تتعذب وتضطرب الى أعماقها لأن التاريخ قد زج بها دون رجعة بحيث جعلها تتقوقع فى دور « الشرير » ؟ وهناك دائما هذا النوع من الهستيرية الكامنة الحائرة بين القدس وتل أبيب وهى هيستيرية تخرج بصورة مضطربة بين الوقاحة والشك والغرور والاضطهاد .

وعن تلك المقامرة الكاذبة التى لا تنتهى والتى صبغت مشكلة الشرق الأوسط لم تستطع اسرائيل المعتدية « أو اسرائيل ذات النوايا التوسعية » ان تسمح لنفسها بالمقامرة على مائدة القمار الروسية « فى مواجهة العرب » « ذوى النوايا الطيبة » .

وهذا ما كانت تتصوره جولدا ــ فعلى اسرائيل أن تهاجم لأنها مقتنعة بأن العدو يعد العدة للقضاء عليها « وعليها ان تتحمل الجفاء الدولى لأنها تفضل هذا الجفاء على الموت . وهذا هو موقف اسرائيل دائما سواء أكانت محقة فيه أم مخطئة وهو البديل الوحيد أمام عينيها ولكنه بديل مؤلم على أية حال .

غير أن الموقف اختلف هذه المرة . ان التاريخ قدم لليهود فرصة فريدة لكى يقلبوا فيها الأدوار بحيث يستردون الحق المشروع « الذى يكفل للمعتدى عليه حق الدفاع عن نفسه . بل أسوأ من ذلك فان السياسة الدولية تفرض على اسرائيل ان تدع نفسها لكى تتعرض للهجوم .

وفى الساعة السادسة صباحا اجتمعت جولدا مائير وكتبت كيتنج السفير الأمريكى الذى بدد بأدب جم وبراعة دبلوماسية آخر ما يكون قد ترسب فى ذهن رئيسة الوزراء من مخاوف وأوضح السفير أن الولايات المتحدة ستشعر بحرج شديد عند تزويد إسرائيل بالسلاح والذخيرة لو انها كانت البادئة بالهجوم لقد كانت الولايات المتحدة تتعرض فى العالم أجمع لحملة من النقد لمساندتها الدولة اليهودية . واذا ظهر الجيش الاسرائيلى مرة أخرى فى صورة المعتدى فان ذلك سيشكل عقبة سياسية جديدة .

لقد ادركت جولدا على الفور حقيقة الموقف ولذا قررت الا تقوم بالعملية الوقائية وبذا تعلم أمريكا والعالم أجمع حقيقة الأمر .

وقد شرحت جولدا مائير بعد ذلك فى صبيحة نفس اليوم امام وزرائها الذين استدعوا على عجل وجهة نظرها . واعلنت أنه يمكن اجراء تعبئة جزئية فورا وفرض حالة الاستنفار القصوى على الجبهتين الا أن موضوع الهجوم المفاجىء ليس مطروحا . ووافقها ديان . وقال « علينا أن نقبل مخاطرة عسكرية محسوبة . لكى نكسب بعض النقاط السياسية » اما حاييم بارليف فقد أبدى بعض التحفظات . وقال فيما بعد « كلما أولينا الرأى العام الخارجى اهتمامنا تحتم علينا أن ندفع ثمن ذلك غاليا أرواحا بشرية » غير أن القرار اتخذ فعلا وقد ساهم فى ذلك الضغط الودى الذى مارسه الأمريكيون .

وبطبيعة الحال لم يعرف هنرى عن هذا الأخذ والجذب شيئا فقد كان يجلس محشورا فى الأوتوبيس يصغى الى المزاح العصبى لزملائه الجنود ، وكان يحاول من خلال ذلك أن يكبح جماح احساس غريب كان يعتمل بداخله . وأنها نوع من النشوة الجماعية « التى لا يعترف بها الانسان دون عناء .. هذه هى الحقيقة على أية حال ويكفى ان تطلق الصفارات أصواتها حتى تحتشد اسرائيل فجأة خلف أسلحتها لقد انتهى مع ذلك عهد الاضرابات كما طويت صفحات المعارك المستمرة وخفتت المعركة الانتخابية الحامية والموضـــوعات المرهقة المرتبطة بتحديد من هو اليهودى . وعلى امتداد الطرق المفضية الى الجهات كان هناك موكب متنافر يحتشد . وكان الموكب خليطا من سيارات النقل الصغيرة والسيارات الخاصة وســـيارات الأوتوبيس والدراجات البخارية أن جيش الدفاع الاسرائيلى ليس جيشا كغيره من الجيوش .

انها البلد باكمله يرتدى على البزة العسكرية على عجل ويلقى بنفسه فى أتون المعركة . انها أمة حملت السلاح فجأة أمة يتحول فيها مدرسو القانون الى ضباط برتبة رائد وتحل فيها الزوجات محل ازواجهن فى المصانع والأطفال يقمن على توزيع البريد حتى الجنرالات المتقاعدون يقومون طواعية بجمع القمامة .

لقد اختفت الأحاديث الصاخبة الغاضبة من محال البقالة .. كما أن الذعر الضئيل الذى أصاب المدنيين لم يدم بدوره طويلا . وفى تل أبيب كانوا يحفرون الخنادق فى حدائق ديزيحوف . وكان الصبية الأعضاء فى لجان الدفاع المدنى يوقفون السيارات لكى يطلوا مصابيحها باللون الأزرق . لقــد أصبحت اسرائيل كلها فجأة أسرة صغيرة جد منها العزم والاصرار .. أسرة لا تتوافر لها الامكانيات التى تجعل أى فم من بين الافواه العديدة فيها كما مهملا أو جهدا ضائعا أو ذراعين عاطلتين ولا عمل لهما .. انها أسرة لا يراودها أدنى شك فيما ينتظرها من مهام وعمل .

لقد انقضت أيام السبت والأحد والاثنين ... الا أن الطرق فى منطقة الجليل وغزة لم تبد بالرغم من ذلك حزينة مقبضة . وان هذه الطرق القديمة التى يسلكها الجنود الى القتال ما زالت تحمل بصمات حروب ثلاثة ماضية متراكمة مختلطة صدئة وكان جموع الصبية والفتيات اللذين بدأوا منذ السبت يتجهون الى خطوط القتال فى ازياء شبيهة بالزى العسكرى يبدون فى حالة هى أقرب لعيد كشفى كبير منه لحالة حرب حقيقية وفى مدن رافولا وطبرية وعسقلون وروشيينا حيث تسطع شمس اكتوبر بقوة اقيمت على الارصفة على عجل نقاط يتم فيها توزيع قطع الحلوى والمشروبات الطازجة على الجنود . وعلى جانبى الطريق وفى كل مكان تقريبا وفى ظل اريكة من أشجار الأوكاليبتوس تجمع حشد عجيب أشبه ما يكون برحلة صاخبة تستخدم سيارات عتيقة أو سيارات أو أتوبيس يغطيها الوحل .. تلك كانت وحدات الجيش الاسرائيلى فى نقاط تجمعها .

وهل سيتذكر هنرى فيما بعد أن كل شىء بدأ بعيدا سريعا صاخبا ؟ ثم وهل عساه سيتذكر الوجوه التى شاهدها فى سيارة الأوتوبيس والتى لم يكن قد علاها الحزن بعد انها وجوه الآباء والأبناء التى قرب بينها فجأة ازى الكاكى ؟ انها وجوه هؤلاء الذين يباعد بينهم اى تقدم تحرزه اسرائيل أو مرور عام سلام وأمن الى ان ظهرت فجوة بينها اكثر عمقا فى اسرائيل منها فى أى مكان آخر فى العالم . انها هوة كما يطيب لأساتذة علم النفس فى القدس أن يطلقوا هذا الاسم عليها . وفى نفس سيارات الأوتوبيس .

تشاهد طلائع الحرب الرابع فى زيها العسكرى ... انهم اليهود الذين حضروا من حارات اليهود فى بولندا وسيلزيا لكى يشيدوا لهم حلما فوق صخور وطين المستعمرات الأولى . وهاهم الآباء ذوو المظهر الخشن الذين تنوء ذاكرتهم بالأحداث والذين ما زالت تمتلىء نفوسهم بمخاوف كثيرة قريبة وبكثير من السخرية التى ما تزال عالقة بأذهانهم لم يطوها النسيان بعد . ها هم الآباء ولكن ها هم أيضا الأبناء المنطلقون فى مرح .. هؤلاء الأبناء الذين ورثوا تركة مثقلة ... ها هم جيل الصابرا الذى اصابه الاسترخاء والذى يعرفونه فى القدس بانه جيل « ليس له حتى مظهر اليهودى ان الاسرائيليين الجدد يعيشون دون عقد » ويعتقدون ... ان الصهيونية .. هذا المشروع العظيم المتخم بالعمل والدم أصبح عام ١٩٧٣ كلمة ثقيلة تثير الضجر لها مرادفها الاخلاقى فهم ينظرون اليها كسبة أو اهانة .

وعندما كان يدور الحديث حول الهوة التى تفصل بين الأجيال فى اسرائيل أو التخلف الثقافى للشبيبه اليهودية كانوا يصفونهم بأنهم غرباء بالنسبة لبعضهم البعض وعندما نطالع الصحف تصادفنا احيانا عبارات التأنيب مثل « أن شباب الصابرا لا يريدون ان يتميزوا بصفات فكرية ولكنهم يتميزون بنزعتهم العدوانية . وبالغموضـــاء التى يحدثونها وبجهلهم فان يهودى الشتات ضئيل الحجم نحيف البنية مريض يفحم عينيه الحزن انه شاحب اللون مغلق على نفسه ويشعر بالغربة فى اى مكان يحل فيه انه متخوف متشكك وملتزم بالتراث الدينى » .

ولكن ها هم المؤسسون والوارثون .. الآباء والأبناء قد تجمعوا فى سيارة أوتوبيس واحدة فالأولون جابهوا الموت ثلاث مرات لكى ينقشع الخوف عن الآخرين والأولون يعتقدون أن بناء اسرائيل كان عملا خارقا اما الآخرون فيرون أنه شيء طبيعى انهم قد ولدوا هناك . ولكن ها هم يستقلون السيارة جنبا الى جنب متجهين الى ميدان القتال . وكان ينبغى أن يكون أ'رمز قد أصابه اليأس ولكنه ما زال مليئا بمرح مكفهر ولعل هذا المرح سيكون مفاجاة للطلائع الأولى التى أرسلت الى اللد . وقبل أن تطلق المدافع قذائفها ، وقبل أن ينشب القتال كان هنرى ينظر الى الحرب باعتبارها أولا تجمعا اخويا .

وكانت هناك عبارة واحدة تتردد فى سيارة الأوتوبيس « لقد سعوا اليها بأنفسهم ستكون نزهة افضل من مثيلتها عام ١٩٦٧ . » لقد اتجهت اسرائيل الواثقة بقوتها وبحقها المشروع الى الحرب منتعشة مرحة . وحتى بالنسبة لهنرى فأنه بالرغم من كل ذلك لم يكن يمكنه أن يتقبل هذا الأمر فى يسر أو يستريح له أو يلقى الضوء عليه . وبالأمس فقط ، لو قدر له أن يستعرض تاريخ حياته لكان فى وسعه أن ينسقه بحيث يصبح أشبه بعملية تأنيب ضمير طويل أو قرار اتهام أليم ضد اسرائيل التى كثيرا ما خذلته ، وضد الصهيونية التى لم يعد تفهم منها شيئا . هنرى ذلك اليهودى الذى ينحدر من أصل فرنسى والذى كان والداه يكرران على مسامعه « فى العام القادم تتجه الى القدس » حتى قبل اقتراحهم دون جدل ... أن شهادته ما هى فى الواقع سوى قصة رهيبة كفيلة بأن تحقر كل مؤسسات فلسطين .

وبالنسبة لهنرى فان الرحلة التى ستنتهى به بعد قليل الى صخور الجولان التى اشعلت فيها نيران الحرب قد بدأت فى الواقع من باريس منذ فترة طويلة .. منذ عشرين عاما . فقد اكتشف هنرى ، وهو صبى فى الخامسة من عمره وهو فى احدى كبائن الاستحمام على احدى بلاجات فرنسا يقضى عطلة نهاية الاسبوع ، أنه يهودى .. اكتشف هنرى ذلك وهو ينظر

فى عينى صبى فى نفس عمره : طفلان يكتشفان وهم عراة ذلك الفارق الغريب بينهما . لقد اكتشفا ذلك وهما ينظران الى فخذيهما .. لماذا يختلف جهازك التناسلى عن جهازى ؟ ان هنرى يتذكر الآن انه اجاب ذلك اليوم فى طلاقة طفل فى الخامسة من عمره ودون أن يعى تماما ماذا يعنى بقوله انه يهودى .. وان اليهود خلقوا هكذا .. وقد رد الصبى الآخر ببساطة قائلا !

ـ ولكن اذن أنت لست محظوظا .. فانت لا تتلقى فى عيد الميلاد هدايا مثلى .

وبالنسبة للأجيال التى ظهرت جيل « حارات اليهود » وعقب البيشانولد فان « الضمير اليهودى » يمكن أن يولد هكذا بصورة هزلية .. وعاد هنرى الى منزله وهو مكفهر يحمل تأنيب طفل يسال عن هدايا عيد الميلاد « وادركت امه كل شىء . وقالت له « اعتبارا من اليوم سنحتفل بعيد راس السنة الخاص بنا » وهكذا نما هنرى وقد أصبح يهوديا يدرك حقيقة يهوديته بين اب صهيونى مناضل وان كان اقل تدينا وام ذات نزعة عاطفية . لقد عمرت طفولة هنرى كلها بما يعرف بالصهيونية التاريخية . والتى كان يطلق على ابطالها بصورة ملزمة اسم تيدور هيرتزل أو ثرمبيلدور . لقد كانت الملاحم تنتهى دائما بالنسبة لهذه الصهيونية التاريخية بالمسادا ان هنرى يتذكر بصورة خاصة عبارة كان يسمعها طوال طفولته كلازمة ثابتة : « لا تنسى ابدا انك يهودى » وبطبيعة الحال فانه لم ينس .. ويقول هنرى : « لم نعد نذهب قط الى المعبد اليهودى للاحتفال بعيد الغفران ولكن كنا نذهب الى جدتى حيث كنت اسمعهم دائما يتحدثون عن مسألة فينالى والبطولة اليهودية واسرائيل وكان احساسى يترسخ شيئا فشيئا بأننى يهودى » .

وفى الخامسة عشرة من عمره انضم هنرى الذى كان تهزه المبادىء المثالية الى احدى حركات الشبيبة الصهيونية فى باريس حيث كانوا لا يعدون المشروع الوحيد هو السفر الى القدس . وهل يمكن أن يكون هناك شىء آخر ذو شأن بالنسبة ليافع متشدد سوى أن يذهب الى آخر المدى فى طفولته وفى السابعة عشرة من عمره وبينما كان نصف الشباب اليهودى ينتحل المعاذير الواهية لكى يبقى حيث هو لم يتردد هنرى فى أن يسافر الى القدس .. بل ان والديه نفسهما أدهشهما هنرى بمنطق متسور ينجح بفضله فى اقناعهما بصورة . لماذا سافر هنرى ؟ (لقد أتى ليعيش المثالية الصهيونية الاشتراكية فى احدى مستعمرات اسرائيل) . لقد ذهب الى اسرائيل بلده .

لقد سافر الى اللد عام ١٩٦٤ مع تسعة من رفاقه المناضلين . وكان قد حصل لتوه على الشهادة الثانوية وكانت نفسه تجيش بالآمال العريضة . وعاش ستة شهور جياشة بمدينة القدس قضاها فى دراسة التاريخ والدين اليهودى وتاريخ الصراع العربى الاسرائيلى واللغة العبرية بصورة خاصة فهذه هى جواز السفر الحقيقى بالنسبة لهذا المهاجر الجديد ... لقد كانت الشهور الستة مليئة بالعمل الدائب الحقيقى الكثيف ويروى هنرى قصته قائلا : « لقد اصطحبونا مرة واحدة فى زيارة قرية درزية لمقابلة بعض اعيان العرب ... وقد شرحوا لنا كيف أن اسرائيل جلبت لهم السعادة وادخلت لهم الكهرباء .. وحدثونا عن أشياء من هذا القبيل .. ووجدت أن ذلك الأمر طيب .

وبعد ذلك يأتى دور الجيش . أن تسهال فى اسرائيل ليس جيشا فحسب ان أكثر الأمكنة التى تشيع منها روح الأخوة انها البوتقة التى تصهر وتوحد كل شىء الى الخليط المنطلق الذى تذوب فيه فجأة كل الاختلافات وان كانت تقسم البلاد الى متخلفين ثقافيا والى طبقات لقد أحب هنرى وكان ذلك فى احدى المعسكرات الزراعية ثم فى احدى الوحدات ، الا انه لم يفقد مطلقا حماسة الصهيونى ووفقا للبرنامج المعد عاد الى فرنسا بعد عامين لكى يناضل ويواصل دراسته وقد حدد لنفسه هدفا . أن يعود بأسرع ما يستطيع وان يستقر نهائيا فى اسرائيل .

ومن ثم كان هنرى فى باريس عندما اندلعت حرب الأيام الستة وامتدت معها كل جوارق . وكغيره من يهود فرنسا كان يمضى الليل الى المذياع يصغى ويستمع وفى الصباح يشترك فى العديد من المظاهرات الموالية لاسرائيل فى الشانزليزيه .. ويقول هنرى وهو يحدثنا عن هذه التجربة « لقد عشت الحرب بنوازعى الوطنية .. لقد عشتها على هذا النحو » .

انه يتذكر الصدمة الاولى التى تعرض لها ... كان ذلك فى سبتمبر ١٩٦٧ عندما أعلن ايفى أشكول رئيس الوزراء اذ ذاك توحيد القدس ، انها عاصمة اسرائيل ولن نفرط فيها ابدا . وبالنسبة لهنرى فان هذا الاعلان لا يعنى شيئا اى شىء ؛ فلم يكن رجلا متدينا الى حد كبير (٣٠٪ من الاسرائيليين هم المتدينون فقط) لقد كانت اسرائيل تمثل بالنسبة له مشروعا اشتراكيا أخويا أكثر منها ذكرى دينية . ونظرا لعدم تحمسه لما ورد من التوراة من حجج وأسانيد ، وانه شعر مع هذا الاعلان القاطع لليفى اشكول باحساس غامض بهزة وقال متسائلا : ماذا ؟ هل كسبنا الحرب لكى تنجو من الجحيم أم لكى تضم القدس ؟ واعتمل فى نفسه الشك .

وفى عام ١٩٦٨ عاد هنرى الى اسرائيل ولكن لم يعد هـــذه المرة كعضو مناضل فى تنظيم معين انضم اليه ودرب ، ولكن جاء الى اسرائيل كمهاجر مجهول يسعى ليبدأ حياة جديدة . لقد أصبح كل شيء مختلفا بالنسبة له وهو يقول فى هذا الصدد « لقد تطلعت الى اسرائيل بنظرة مختلفة » كيف كان ذلك ؟ فقد عاش أولا فى احدى مستوطنات النقب وهى بالتأكيد لا تشبه مطلقا الأحلام الاشتراكية التى راودته فهناك شعر هنرى بالحيرة فقد شاهد مستعمرات تتحول الى مجتمع بورجوازى عام ١٩٦٨ وشاهــد الفلاحين الموسرين وهم منشغلون بغسالاتهم الكهربائية وبسياراتهم الفارهة . فقد كان يصطدم طوال طفولته كصهيونى بهذه المستعمرات المائة والعشرين المتقشفة الواقعية التى كانت تشحذ خيالات «الفرنسى الصغير» . كان هنرى يتحدث عن الاشتراكية وعن النشاط الثقافى الى الرعيل القديم الذى كان ردوده تنحصر فى الاحتفال بعطلات نهاية الاسبوع والحديث عن الأموال التى يعتزم انفاقها هذا العام . خيبة أمل ومرارة .. وكانت هنـاك أيضا النزعة الريفية والميل الى احترام الناس ؛ وكانت هناك أيضا الثرثرة والرغبات الصغيرة .

ودون ان يعرف عاد هنرى بذاكرته الى الوراء ستين عاما سلختها من عمره الصهيونية وانضم الى المهاجرين الاشتراكيين الرعيل الثانى الذى جاء قديما من أوربا الوسطى (١٩٠٤ ـ ١٩١٥) لاقامة المستعمرات الأولى والذين كانوا يشعرون بالحنق ازاء الدعة التى ميزت الزراع المتبرجزين الذين جاءوا الى اسرائيل مع أولى موجات الهجرة لقد كان القادمون الجدد اذ ذاك مثله تماما يشعرون بالسخط ازاء النزعات المادية والانحلال الذى طبع الرعيل الاول من الموجة الثانية تلك الحفنة القليلة من المراهقين المولعة بالأحلام . تلك النزعات المادية مثله تماما بالغضب عندما يشاهد فى شارع صهيون منازل من طابقين بما يتعارض والتقشف الصهيونى . وأخيرا كان هنرى مثل الرعيل الأول من الموجة الثانية تلك الحفنة القليلة من المراهقين المولعة بالأحلام . تلك الأحلام التى تدفع بقوتها المحراث وترسى قواعد الدستور الاشتراكى المقبل لفلسطين اليهودية كان هنرى مثل هذه الجماعة التى حامت حولها شكوك الرعيل الأسبق والذين كان يرى فيهم جماعة من الفوضويين الخطرين . ان هذه الأفكار القديمة المتعلقة تعود لتلح عليه من جديد بصورة غريبة .. وانى به يضع أصبعه على حقيقة التناقض الذى تعانى منه اسرائيل الذى يتمثل فى ضعف العقائد الايديولوجية لشاب صهيونى يتحرق شوقا لابد وان يحقق ذاته . غير انه كان هناك ما هو أخطر من ذلك .

وذات يوم سأل هنري عما تعنيه هذه المنازل المحطمة على بعد ثلاثمائة متر من المستعمرة .

ماذا تقول ! انت تمزح هذه هي القرية العربية القديمة لم يكن هنري يتصور مطلقا انه يمكن ان يكون هناك فيما سبق عربي في مكان هذه المستعمرات اليهودية . وخاصة ان أحدا لم يحدثه عن ذلك قط . وقال هنري « هذا امر سخيف لا يصدق الا انني لم أواجه نفسي الا هذا اليوم بهذا السؤال . اذن لقد طردنا العرب لكي نقيم المستعمرة ؟ » ولم يشعر هنري بالارتياح : لقد باغت فجأة عقيدته الصهيونية وهي متلبسة بالكذب . ومنذ ذلك اليوم وبذور الشك لم تكف عن التولد في نفسه ولقد شعر بالغضب عدة مرات مثلا لأن المستعمرات تستخدم أيدي عربية مقابل أجر ضاربة بذلك عرض الحائط بقاعدة « العمل اليهودية » (١) المقدسة لاحظ هنري أن المستعمرات تستخدم مواطنين عرب من قطاع غزة وهو حق لا يملكه من الناحية النظرية الا الجيش الاسرائيلي الذي يحق له أن يبعث بهم الى المستعمرات صباحا ومساء . لقد كانت أجورهم تبلغ ٢٤ ليرة اسرائيلية يخصم منها جيش الدفاع الإسرائيلي النصف ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد علم هنري سريعا ان هناك أيضا اشخاصا يحترفون تهريب الأيدي العاملة العربية بصورة سرية من سكان المستعمرات وانهم يحصلون على ثلاث ليرات عن كل عامل ولم يستطع هنري أن يدرك شيئا بعد ذلك : هل يستطيع يهود اسرائيل أن يصبحوا شعبا من السادة دون أن يخونوا بذلك مبادىء الصهيونية ، وهل من حق الأساليب الرأسمالية والاستغلال أن يستوطنوا المستعمرات ؟ لقد كانت هذه المسائل تثير حنق وسخط الرعيل القديم الذي كان يقول له :

— نريد أن نقول لك شيئا ان العرب لا يصلون بخيالاتك الايديولوجية الدقيقة أن ما يريدونه هو الأجور التي تدفع لهم ؛ وهذا كل ما في الأمر . فهل تريد أن تحرمهم منها بنظرياتك الصهيونية المثالية .

وبعد ستة شهور غادر هنري المستعمرة وهو يشعر بخيبة الأمل والاضطراب . ولكنه لم يغادرها بمفرده بل اصطحب معه طالبة قدمت من فرنسا كانت تشاركه نفس الاحساس بخيبة الأمل . وفي تل أبيب تزوج الاثنان . ويحدثنا هنري عن ذلك فيقول : « قبل اتمام الزواج كان يتمين المرور

---

(١) وفقا لمبدأ عافودا ايفيت (العمل اليهودى) الذى وضعه الصهيونيون الأول الاعضاء فى حزب بوليه زيون والحزب الأول الذى انتمى اليه (بن جوريون) ان الرواد اليهود فى اسرائيل مطالبون بان يفعلوا كل شىء بأنفسهم فقد كتب اليزار شوهات يقول : « ان العمل وحده هو الذى يخلق طابعه على البلاد » .

بسلسلة من الاجراءات الدينية المعقدة بغرض اثبات انتمائنا الى الديانة اليهودية . وكان يتعين علينا أن نقدم عند (الخطوبة) عقد زواج والدينا وقد وجدت ذلك الأمر مهينا ويدعو للسخرية . وكان ذلك خطوة اخرى على طريق خيبة الأمل . وبعد ذلك التحق هنرى وزوجته بالجامعة حيث التقوا بجماعات من الصابرا كانت تعتقد ان الأسطورة الصهيونية لم تعد تعنى شيئا . . انها جماعة أمريكية تعيش فى الشرق الأوسط جماعة تعمر بالبرجوازية وبالفجور . كما التقى هنرى وزوجته هناك ببعض الطلبة العرب .

ويروى هنرى هذا الجانب من تجربته فيقول : « لقد كان ذلك بمثابة صدمة أخرى لقد التقيت بعدد من حملة الشـــهادات العرب ووجدتهم يفضلون أن يعملوا فى المقاهى على أن يصبحوا نخبة مختارة ووديعة فى دولة اسرائيل . لقد شاهدت مهاجرين شبانا مثلى حضروا منذ قليل من بوستون أو مرسيليا . . واخذوا يشرحون فى تؤدة وبلغة عبرية ركيكة : هذه هى بلدنا اننى لا أعرف لماذا بدا لى ذلك فجاة أمرا غير معقول .

وخلال بضعة شهور قضاها فى جحيم كصهيونى يشعر بخيبة الأمل وان كان ما زال متمسكا بصهيونيته انتقل هنرى مرة أخرى الى الجيش ليقضى فترة تدريب سنوى . كان ذلك خلال عمليات القمـــع الكبرى التى قادها الجيش ضد الارهابيين الفلسطينيين فى الاراضى المحتلة . . واشترك فى عمليات لتصيد الفدائيين . ويقول هنرى لقد كنا حوالى عشرة مضطجعين أثناء الليل فى سكون . وتركنا الرجال يقتربون ببطء الى أن يصيح الجاويش بنا مطالبا باطلاق النار وفى هذه اللحظة اصطدمت بعربى أمام فوهة بندقيتى وقلت لنفسى ماذا تفعل أيها المجنون ؟ ان الامر مستحيل . وكانت هذه نهاية قصة بدأت منذ عشرين عاما ، بدأت فى كابينة الاستحمام على الحدى بلاجات فرنسا . لقد أصبح هنرى اليهودى الصغير صهيونيا مناضلا ثم اسرائيليا وها هو فجأة يقرر ان ينحى ذكريات طفولته جانبا ومعها أهله وذويه والدروس التى لقنوها اياه . لقد ولد من ذلك الصهيونى الشاب الخائب الأمل مناضلا ضد الصهيونية يحدوه نفس التشدد ونفس النزعة الراديكالية .

وعندئذ القى هنرى بنفسه فى شغف فى أحضان الكتب السياسية كما لو كان يريد تعويض عشرين عاما مضت وهو يقول فى هذا الصدد : كنت أريد فجأة أن أعرف ما حجب عنى . لماذا وصلت الصهيونية بصورة قاتلة الى نصب هذه الكمائن ؟ وأين كانت الكذبة الأولى ؟ .

انها عملية تحول ما فى ذلك شك ! لقد أصبح هنرى فى مدينة القدس يساريا متطرفا بل انه اقترب من الماتزين (١) .

وبطبيعة الحال فان كل ذلك لم يتم فى سهولة ويسر . وأيضا فان سرد تاريخ عشرين عاما فى بضع سطور يعنى اللجوء الى عمليات اختصار واختزال طويلة . والواقع ان رحلة هنرى السياسية قد عمرت بالشك والريبة والتراجعات وعدم اليقين والحنق ازاء « حقائق » راسخة ولاصقة بالمؤسسة الاسرائيلية والمهم انه لم يغير رأيه مطلقا وكذلك فعلت زوجته . وأتى عام ١٩٧٣ ليجد امامه زوجين من « المتمردين » أصبحا فى عداد الغرباء حتى بالنسبة لأصدقائهما ثم جاءت صفارات يوم عيد الغفران لكى تقلق راحتهما فى مقر اقامتهما بشارع بن زكاى .

لقد ارتدى هذا الفتى زيه العسكرى بوصفه جنديا بسلاح المظلات وكان هو يستطلع بناظريه من نافذة أثناء ركوبه سيارة أتوبيس شركة ايجد ويتابع الطريق الى الجولان تراوده لأول مرة منذ فترة طويلة أحاسيس غريبة الاهتداء الى الاخوة المفقودة نعم حتى هو كان يشعر بذلك . ان الأمور ليست بهذه البساطة فى اسرائيل ولكن هل سيصبح كل شيء بهذه البساطة ازاء الحرب ؟ لم يفكر هنرى فى الهرب من الجيش ان الشعور بالقلق لم يراوده .

سينجح هذا التفاؤل الراسخ فى مقاومة كل الصعاب خلال الأيام الثلاثة الأولى لقد كان الصحفيون الأجانب الذين تدفقوا بالمئات على اسرائيل ابتداء من يوم الأحد السابع من أكتوبر يستقبلون عادة فى اللد .. وكانوا يقابلون هذا التفكير الذى يدعو الى السخرية . « لقد جئتم متأخرين .. ان جيش الدفاع الاسرائيلى لم يعد أمامه الكثير كى يحرز النصر » غير ان ما واكب هذا اليوم من صعوبات كان أمرا يبعث على الدهشة فمن عمليات دخول متعثرة الى داخل تل أبيب الغارقة فى الليل الدامس بسبب قرارات الاظلام الى عمليات نقل جماعية للمبعوثين الخصوصيين الى فنادق دان العتيق الذى جرت العادة على أن يلتقى فيه الصحفيون خلال الحروب السابقة .

---

(١) اسم صحيفة شهرية (مانزين : البوصلة) تصدرها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية (موزى) التى أسست عام ١٩٦٢ وتضم فى صفوفها جميع العناصر المعادية للمبادىء الستالينية باستثناء الحزب الشيوعى ومختلف الاتجاهات اليسارية المتطرفة وهذه المنظمة عرفت بعدائها الشديد للصهيونية وتنادى بالماركسية الثورية كما تنادى هذه المنظمة بتفريغ اسرائيل من المضمون الصهيونى وتتجه للاتحاد مع القوى الثورية . العربية من اجل خلق جمهورية اشتراكية موحدة تمتد من الخليج الفارسى الى المحيط الأطلسى « ولم تكف مانزين منذ ١٩٦٧ من مهاجمة السياسة الامبريالية والتوسعية » للدولة الاسرائيلية .

اليس هذا الهدوء المطبق الذى تلوذ به اسرائيل فى الوقت الذى يعرب فيه العالم عن انزعاجه وقلقه وحيرته امرا يدعو للدهشة . لقد كان الهدوء يســـود شوارع تل أبيب كما كان يسود مقاهيها يقين متئـد فى الوقت الذى تهـدأ فيه المبرقات ولم تكف اجهـزة التليفون عن الرنين فى عواصم العالم كافة .

غير أن هذا الهدوء المزعج لم يكن فى حقيقة الأمر ضربا من التظاهر . فقد كانت تبرره سلسلة من الاعتبارات ظهرت بجلاء تام مساء الاثنين فى تل أبيب وأول هذه الحقائق البديهية انه على خلاف حرب ١٩٦٧ كانت طلائع الحرب لا تزال بعيدة منغرسة هناك فيما وراء الأراضى المحتلة . ولم يعد احد يشعر بصورة مادية أو حسية كما كانت الحال قديما بوجود القتـال على مقـربة منه . ان الحرب هذه المرة لم تجىء فى صورة دوى للمدافع أو اعمدة من الدخان تتصاعد فى سماء القدس . انها مجرد تصور .

ثم ان اسرائيل بأسرها كانت تنصت دقيقة بعد دقيقة الى نشرات الأخبار التى يذيعها الراديو وهى نشرات لم يفكر احد مطلقـا لحظة واحـدة فى ان يضعها موضع الريبة بل على العكس تماما . أو لم تكن دقة الأخبار الرسمية وصدق راديو اسرائيل المطلق منذ زمن بعيد مدعاة فخـر واعتزاز بالنسبة للاسرائيليين الذين لم يشعروا مطلقا على عكس العـرب بالخوف من اعلان الحقيقة « عندما يعلن الراديو شيئا فان ذلك لا يعنى هنا الا الحقيقة . وحتى اذا ما صمت ــ وهو ما يحدث عادة ــ فان ذلك غالبا ما يكون مؤشرا طيبا . لقد علم اليهود فجأة عام ١٩٦٧ انه تم احتلال الضفة الغربية لنهر الأردن والجولان وان الطيران المصرى قد دمر عن بكرة أبيه وذلك فى الوقت الذى كانوا يتصورون فيه انهم ما زالوا فى اتون المعركة . فلماذا اذن لا يقارنون فى عام ١٩٧٣ بين أحداث الأمس وأحداث اليوم ؟

لم تكن البيانات التى بدأ العرب يذيعونها منذ يوم السبت لتثير قلقهم فبعد ١٩٦٧ لم يصبح « تبجح الاذاعات العربية المضحك » فقط مادة تهكم من جانب الشباب فى اسرائيل « انت تكذب مثل راديو القاهرة » بل أصبحت مادة للتحايل الاجتماعى من جانب عدد كبير من الخبراء المدققين فقد كتب ى . هاركابى يقول : «ان الافتقار الى الأمانة فى حياتهم العـامة وميلهم الى تسميم أفكارهم هى ، أخطاء شائعة عن العرب انفسهم وهى أخطاء ينددون

هم انفسهم بها بمرارة (١) « وعلى الصعيد العسكرى فانهم يذهبون الى حد منع قيادتهم من تقييم الموقف تقييما سليما .

اذن . فماذا قال راديو اسرائيل « المصـــدر الجاد الوحيـــد » منذ يوم السبت ؟ لقد ذكر انه تم احتواء الهجوم السورى فى الجـولان وأن الهجوم المضـــاد سيبدأ وشيكاً ، وأن تســـعة من الكبارى الاحـــد عشر التى اقامها المصريون على القناة قد دمرت وان الطيران الاسرائيلى له الغلبة المطلقـــة على الجبهات كلها . اما فى ظهر الاثنين . فقد ذكر راديو اسرائيل ان « مرحلة الدفاع قد انتهت وان جيش الدفاع الاسرائيلى بدأ الهجوم » .

وفى جميـــع الصحف العبرية التى ظهـــرت يوم ٧ ، ٨ من أكتوبر أبدى جميع المعلقين نفس التفاؤل فقد تحدثوا عما اسموه الكوارث العربية الأولى « فقد ذكرت لنفورماسيون يوم ٧ من أكتوبر ما يلى : « من وجهـــة النظر العسكرية فان هذه المواجهة المسلحة مع العدو تدور فى ظل استراتيجية أفضل بكثير من مثيلاتها عام ١٩٦٧ » اما هاآرتس فقـــد ذكرت فى نفس اليـــوم ان واشنطون على ثقة من أن اسرائيل ستتصدى للهجوم فهى تعتقد أن الحرب ستستمر يوماً أو يومين » . اما صحيفة هاتسوفييه فقـــد قالت يوم ٨ من أكتوبر . ان الضربات التى يوجهها جيش الدفاع الاسرائيلى الى الجيشين العربيين ستكون أقسى من الضربات التى وجهها اليهما فى الماضى « بل ان كتاب المقـــالات الافتتاحية اليهـــود ذهبوا يوم الثلاثاء الى حد تقييم « المشكلات العسكرية » ومعالجتها على أساس انه تمت تسويتها على الحدود وتساءلوا بصفة خاصـــة عن النتائج السياسية لهـــذا النصر الجـــديد لقد طمأنت المؤسسة الاسرائيلية نفسها ومواطنيها منذ يوم السبت السادس من أكتوبر كما اسهمت اذاعتها وصحفها فى تحديد موقف اسرائيل الجغرافى . ولم تمض بساعات قليلة على بدء الهجوم العربى حتى ظهرت جولدا مائير على شاشات التليفزيون ونددت فى صوت مفعم بالتأثر والغضب «بخسة» وخيانة العرب الذين هاجموا اسرائيل فى يوم عيـــدها . غير أن الاسرائيليين اســـتوقفتهم بصورة خاصة بعض الجمل القصيرة التى وردت فى كلمـــة جولدا مائير فقد قالت « لقد كانت المخـــابرات الاسرائيلية تعلم منـــذ بضعة أيام أن الجيوش السورية والمصرية حشدت للقيام بالهجوم فى وقت واحد وقد اتخذت قواتنا الاستعدادات العسكرية اللازمة لمواجهـــة الخطـــر ، ونحن لا نشك أبدا فى أننا سننتصر » .

---

(١) فلسطين واسرائيل .

ووعد موشى ديان فى الاذاعة بدوره بالحاق هزيمة مجلجلة « بالعرب بل انه استخدم فى هذا الصدد عبارة تعنى فى العبرية « سحق كليتهم » واعترف ديان فى هذه الكلمة بوقوع بعض الخسائر فى صفوف الاسرائيليين وعزى ذلك الى عامل المباغتة واختتم كلمته معلنا أن النصر لا يتطلب بضعة شهور او بضعة اسابيع أو حتى بضعة أيام » اما دافيد اليعازر رئيس الأركان العامة فقد قدم أمام مئات الصحفيين الأجانب الذين ازدحمت بهم يوم ٨ من اكتوبر قاعة بيت سوكولوف للمؤتمرات وهى المركز الصحفى لجيش الدفاع الاسرائيلى عرضا اجماليا لنتائج يومين ونصف يوم من القتال لقد بدأ اليعازر وقد تقلص فكاه وبرقت عيناه فى نوبة قلق أكثر منها نوبة غضب وقال محاولا أن يتفوق على ديان سنطرد العدو وسنلاحقه وسنسحق عظامه » .

ومن ثم باتت اسرائيل تغط فى نومها يوم الاثنين وهى تنتظر ان تكتشف بين لحظة واخرى وبصورة رسمية ـ أبعاد النصر الهائل الذى حققته اذن فالأمور تسير سيرها الطبيعى . والعالم شاهد رقيب . ان الهجوم الغادر الذى شنه العرب لن يكلفهم فقط غاليا ولكن اظهر أيضـــا لاسرائيل وللعالم اجمع مدى سلامة السياسة التى اتبعوها .

« لقد انقذت الأراضى المحتلة البلاد كما أن الحدود الآمنة » لم تكن عبارة فارغة من المعنى « وقد اخـــذ الاسرائيليون يوجهون يوم الأحـــد اللوم الى حكومتهم لأنها لم تشن هجوما وقائيا ولأنها تكبدت مخاطر كثيرة . وقد أشار استفتاء للرأى العام اجرته صحيفة ها آرتس الى هذه الحقيقة . الا أن هذه الانتقادات خفت حدتها فى اليوم التالى وخاصة أن النصر الساحق بات فى متناول اليدين . وسيبرر هذا النصر ما كانت تعانيه اسرائيل من الريبـــة طوال الستة اعوام .

وقد تصور مليونان ونصف مليون من الاسرائيليين أن القدس كانت فعلا على حق ازاء نفاق العالم وريائه . ولكن هل كانوا يعلمون فى ذلك الوقت أن هذا الطيف من الأوهام بدأ فى مكان ما جهة القنطرة أو قناة السويس يتهاوى ويتآكل ؟ وبالنسبة لاسرائيل التى لم يعد يراودها شك فى ذلك ، فان عالما جديدا بدأ يظهر مهتزا مع مرور الليلة الثالثة .

الفصل الخامس
شرخ فى المرآة

ان الاسرائيليين يديرون مفاتيح اذاعتهم كما كان أجدادهم يستديرون لكى يصلوا اموز أيلون :

لقد ضاع هنرى وسط رعود الجولان المبهمة .

ان اسرائيل لا تشك أبدا فى أن الموقف قد أصبح مأساويا .. وفى احد الخنادق فى سيناء ، مساء يوم الاثنين ٧ من أكتوبر ، واجه « بيريمياجو بوفيل » المراسل العسكرى غضب جنوده اليهود . واجه غضبا امتزج بالدهشة . وصرخ الجنود انكم تكذبون . ليس صوت اسرائيل الذى يتحدث بل اذاعة القاهرة من القدس . اذ أن الاذاعة التى تستمع اليها جميع وحدات الجبهة من الترانزيستورات التى يحملونها ، تنقل للمرة العاشرة على التوالى منذ يوم السبت بيان المتحدث العسكرى الذى يقول فيه « ان قواتنا تسحق ـ اكرر تسحق ـ القوات المصرية » .

ويعتبر هذا البيان بيانا خاطئا يتسم بالجنون . مثله مثل جميع البيانات التى تلهب خيال شعب اسرائيل منذ بدء عيد الغفران . واتضحت المأساة اذن من هذا الاكتشاف الخارق : « ان الاذاعة تكذب . ان اسرائل تكذب على نفسها » !

وبدأ بوفيل يغلى غيظا . فقد اتصل بطريقة عاجلة بصوت اسرائيل فى تل أبيب وصرخ قائلا : « أوقفوا هذه الأكاذيب ! انكم تخدعون انفسكم .. ويطالب بوفيل المراسل المرابط على جبهة قناة السويس بتصحيح عاجل لهذه البيانات » .. ما زال الموقف هنا سيئا للغاية .. ولم يتلق المراسل الخط من الطرف الآخر اللهم سوى سكوت محرج .

ان المؤخرة هناك فى تل أبيب والتى تبعد ٣٠٠ كم عن خط النار تتمسك بشدة بهذه التأكيدات الأخيرة وفقد بوفيل أعصابه وقذف بالتليفون فى الخندق . والتف حوله ثلاثون من جنود الاحتياط . وهم منهكون وواجمون . وقال أحدهم فى هدوء « لا تغضب نحن نعلم انك لست مسئولا عن هذه الأكاذيب بيد أن زملاءك الذين يعملون فى صوت اسرائيل لن يضيرهم شيئا اذا قالوا الحقيقة » ..

ولم يجب يوفيل . وبعـد لحظة عادت الاذاعـة تكرر بيانها : ان قواتنا تسحق ـ أكرر تسحق . . . » ثم اخذ صوت اسرائيل فى اذاعة رسائل الجنود الشبان الذين يتسمون بالسذاجة والذين يتصـورون الآمال كأنها حقائق امامهم . وقد اذاعوا رسائل مثل نحن هنا على الجبهة الجنوبية . لا نرضى ان نكون مكان المصريين ان تسهال الجيش قد أجهز عليهم » وشعر يوفيل بالغثيان . فقد كان حتى مساء الجمعة الخامس من اكتوبر مدرسا للفلسفة فى جامعـة القـدس ، وتمت تعبئته يوم السبت كمراسل عسكرى لصوت اسرائيل (وهى الاذاعة المدنية) ولصوت تسهال (وهى الاذاعة العسكرية) . . وهما الاذاعتان اللتان بداتا منذ الهجوم المصرى السورى اذاعة موجاتهما تحت اشراف المتحدث العسكرى لبيت سوكولوف . الا أن يوفيل لا يعتبر مراسلا مبتدئا . فقد غطى للاذاعة كل عمليات سيناء العسكرية عام ١٩٦٧ . وقد اقترح عليه بعضهم بعد الحرب أن يصبح مسئولا عن جميع المراسلين العسكريين برتبة كولونيل الا أنه رفض لأنه كان يشعر انه أكثر فائدة على أرض المعركة فى حالة الحرب .

أبات يوفيل مقيدا ؟

ان يوفيل يشعر هذه المرة بالازدراء من جراء الاكاذيب الرسمية التى تنقلهـا الاذاعة بل يشعر ايضا بالدوار . فلم يحـدث ابدا أن كذب راديو اسرائيل بمثل هذه الطريقة . وليست هذه البادرة هى ، تصديق الاذاعـة التى حظيت به بصعوبة على مدار السنين بل تعتبر هذه الظاهرة بادرة خطيرة تضاف فى النهاية الى جميع البوادر الأخرى .

وابتداء من بعد ظهر السـبت قفز يوفيل فى عربته من طراز ٣ س. ف لكى يتجه الى الجبهة الجنوبية ـ واستمر يقود عربته طوال الليل عـلى أرض الصحـراء المدحرجة وسـط الفوضى التى لا مثيل لهـا من عربات النقـل والاتوبيسات والسيارات الخاصة والمدرعات التى كانت تسير نحو الهلاك لعـدم وجـود حاملات المدرعات (١) والتى شكلت ازدحاما اتسم بالصراخ والشتائم . ومما لا شك فيه ان الفوضى التى كانت تسود الجيش اليهودى تعتبر فوضى تقليـدية . ومنذ الأزل ، يرجع عـدم النظام فى ملبس جنود الأوجداس (الوحدات) الذين لا يحملون أية رتب عسكرية ولا يتبعون أى نظام الى جانب رجال الاحتياط الفاشلين الذين اطالوا شعورهم ، الى أسطورة

---

(١) اضطرت المدرعات التابعة لوحدة بير سبع المصفحة الى أن تسير ٢٠٠ كم لعدم وجود ناقلات المدرعات التى تنقلها لساحة القتال . وقد توقفت نصفها قبل أن تصل الى الجبهة .

« تسهال الذى لا يقهـر » ومع ذلك تمت التعبئة هذه المرة فى فوضى اثارت الاعصاب .

وسوف يثبت المستقبل هذا الشعور . ووصل « يوفيل » فجر يوم الأحد ٧ اكتوبر الى القاعدة الكبرى التى تقع خلف بير جفجافة حيث اجتمعت الوحدة ١٠١ التى يراسها اريل شارون والتى سوف يقوم يوفيل بتتبع اخبار عملياتها العسكرية . وكان الجندى « اريك ثائرا » للغاية أيضا عند تلقى امر التعبئة وهو فى منزله فى بير سبع ، اسرع نحو سيناء فى عربة نصف مجنزرة وهو ثائر على سياسة القدس لانهم لم يستطيعون توقع اندلاع الحرب . ومنذ يوم الجمعة كان اريك مقتنعا بأن هجوما عربيا على وشك الحدوث بعد ان رأى الصور الجوية لحشود القوات العربية . بيد أن أحدا لم يصدقه . . وعندما وصل الى الجبهة الجنوبية اليوم وجـدها فى بابلة كبرى وقد بدأ الارهاق على قائدها . الا ان القـائد الذى تولى رئاسة الجبهـة بعد سفر شـارون فى يوليو سنة ١٩٧٣ ، هو شوييل جونين الذى يطلق عليه اسـم « جورديش » وكان معروفا بانه ضابط متشدد وكتوم ولا يحظى بشعبية وكان اريك لا يحبه وعندما تولى اريك قيادة احدى وحدات الجبهة الجنوبية فقد وجد نفسه تحت رئاسة جورديش المباشرة وكان هذا الشعور وحده كافيا لأن يثير حمق قائد كتلة ليكود .

وانقسمت جبهـة قنـاة السـويس برئاسـة « جورديش » الى ثلاثة قطاعات : ويتـولى ابراهان آدام الذى يطلق عليه اسـم « برين » القطـاع الشمالى حتى الاسماعيلية وكلف شارون برئاسة القطاع الأوسط وتولى ابراهام مالدلر (١) رئاسة القطاع الجنوبى حتى شرم الشيخ ولم يكن هنـاك تناسق ما بين جورديشى الرئيس العام وبين جنرالاته الثلاثة بل اتسم الاتصال بينهم منذ يوم السبت بالاختلال الذى امتزج بتبادل الشتائم والصرخات وبدأ كل رئيس يعمل داخل قطاعه كما يحلو له . ولم تلبث الاحداث أن ازدادت خطورة مما أسفر عن مشـهد غريب لا يتفق مع الأساطير التى كانت تشكل هالة تحيط بتسهال .

تحرك اريك سريعا يوم الأحد مع مدرعاته متجهـين من بير جفجافة الى خط النار . وعندما وصل بعد ظهر الأحد عند المضائق التى تطل على القناة ، اكتشف مدى اتساع المأساة مرة واحدة : فلم يعد هناك وجود لخط بارليف واحتلت خمس وحدات مصرية قطاع طوله عشرة كيلو مترات على طول قنـاة السويس ، وبهذا سقطت السماء فوق راس اسرائيل .

---

(١) قتل ابراهام ماندلر بعد بضعة أيام من توليه رئاسة القطاع .

وجمع اريك من افواه الجنود خائرى القوى الذين استطاعوا أن ينهضوا للمؤخرة بعد أن عبروا الخطوط العربية طوال الليل التفاصيل الأولى لسير الهجوم العربى .

وقد بدا الهجوم يوم السبت فى الساعة الثانية بعد الظهر (وليس فى الساعة الرابعة بعد الظهر كما كانت القدس تعتقد) وفاجأ الجنود الستمائة المتمركزين فى خط بارليف وهم فى حالة من اللامبالاة الكاملة . وكان بعضهم يقوم بغسل الثياب بينما كان الآخرون يلعبون كرة القدم . وبعضهم يصلى . ولم تكن اشارات الانذار قد وصلت الى جميع الوحدات ولم تأخذ تلك الاشارات مأخذ الجد .

وفجاة فتح الفا مدفع مصرى كانوا مختبئين على الضفة الغربية لقناة السويس نيرانهم فى وقت واحد . وكان من بين تلك المدافع ، مدافع من طراز ١٣٠ و ١٦٠ ــ السوفيتى واستمرت اربع وحدات للمدفعية تدك المواقع بعنف لا يكاد يصدق قبل ان تبدأ الموجة المصرية بالهجوم على ثلاث قطاعات رئيسية فى القنطرة والاسماعيلية والسويس .

وفى كل خندق حاول الجنود اليهود الذين أثارتهم الدهشة من جراء دق المدفعية المصرية ومن مد مئات من الجسور المطاطة ؛ حاولوا سريعا استعمال « سلاحهم السرى » الذى كان يجب أن يلقى أطنانا من المازوت الملتهب فوق مياه القناة . ولكن دون جدوى . اذ أن جميع الأنابيب الممتدة تحت الأرض ، وجميع المواسير كان قد تم تخريبها بواسطة الكومندوز المصريين ليلة ٥ و ٦ من اكتوبر . وكان الاسرائيليون قد اكتشفوا صباح السبت احدى العمليات التخريبية ولكنهم لم يتبادر الى اذهانهم ابدا أن تكون هذه العملية جزءا من خطة تخريب جميع المواسير كما لم يشكوا لحظة فى ان المهندس الاسرائيلى الذى استدعوه على عجل لاصلاح العطب فى المكان الذى اكتشفوا فيه التخريب قد قامت القوات المصرية بأسره .

وبين حصون خط بارليف (الذى كان الواحد يبعد عن الآخر عدة كيلو مترات ، اندفع ثمانية آلاف جندى مصرى على الضفة الشرقية لقناة السويس وتسلقوا السد الترابى وتوغلوا الى الداخل . وتعتبر عملية العبور هذه بمثابة مناورة كان الجنود المصريون قد قاموا بها اكثر من ٦٠٠ مرة ، وقد اتخذوا من موقع جنوب مصر لشبه القناة مسرحا لعمليتهم . بل قاموا بها على قطاع القناة الذى يتفرع الى ذارعين . وكان جنود الموجة الأولى من العابرين يحملون على ظهورهم أنابيب غريبة الشكل وحقائب صغيرة تحتوى على الصواريخ الجديدة المضادة للدبابات السوفيتى الصنع ، وطبقا للخطة الدقيقة التى

وضعها اللواء الشاذلي لم يحاول هؤلاء الجنود الاستيلاء على الحصون الصغيرة من خط بارليف . وبلا توقف تجاوز الجنود التحصينات الاسرائيلية وهم مسرعون ليتقدموا بجرأة فى مقابلة المدرعات والمدفعية . وكان هدف هذه الخطة هو القيام بحصار وصد الهجمات الدفاعية اليهودية الاولى وذلك بالقاء الصواريخ عليهم حتى يتم لجنود الصف الثانى تشييد الجسور لمرور المدرعات والعتاد الثقيل .

ونجحت المناورة

وعلى طول الجبهة التى تبلغ ١٨٠ كم ، لم يكن تحت تصرف اسرائيل خلف خط بارليف سوى ٢٣٠ دبابة من طراز م ٤٨ و م ٦٠ كانت هى الأخرى مبعثرة فى وحدات صغيرة . وخلال الفوضى التى عمت المعركة حينئذ من الجانب الاسرائيلى وموجة الهرع استطاعت الصواريخ السوفيتية ومدافع البازوكا القضاء على الدبابات الاسرائيلية جميعا ، وعندئذ ، اندفعت الموجة الثالثة من الجنود المصريين على الخنادق مستخدمين قاذفات اللهب والاشتباك مع الاسرائيليين وجها لوجه .

وبعد انتهاء هاتين المهمتين مباشرة ، القى اللواء الشاذلى بوحداته البارعة تحت قيادة اللواء على محمد والمزودة بالعناصر الجديدة لمد الجسور المطاطة التى كانت تحملها السيارات وكانت تلك هى المرة الاولى التى تستعمل فيها هذه الجسور المطاطة . وقد تمكن المصريون من مدها فى أقل من نصف ساعة . وقال أحد الجنود اليهود عنها : كنا نراها كالاذرع تزداد طولا من ضفة الى اخرى . وطبقا للتوقعات الاسرائيلية كان الساتر الترابى يمكن أن يقلل من فاعلية الجنود مدة لا تقل عن اثنى عشرة ساعة . مما كان يتيح الفرصة أمام اسرائيل لتنقل جنود الاحتياط حتى قناة السويس . ولكن للأسف فبعد أن أجرى المصريون عدة تجارب لنسف السد الترابى ، استطاعوا عام ١٩٧١ — ان يتوصلوا الى طريقة جهنمية لبعثرة هذا الساتر مما أكسبهم نصف الوقت ، اذ أن رجال اللواء على محمد استخدموا خراطيم المياه لفتح ثغرات تحت الساتر الترابى .

وقد تمت المناورة فى القطاعين الشمالى والأوسط كما لو كان الجنود المصريون يقومون بتمرينهم اليومى . اما فى القطاع الجنوبى فقد تعطل الجنود لأن الساتر الترابى فى هذا القطاع كان أكثر سمكا . الا أن العملية فى النهاية أثارت دهشة اللواء الشاذلى الذى لم يكن يتوقع لحظته مثل هذا النجاح . وهكذا كان الرئيس السادات اذ قال لبعض الصحفيين البريطانيين بعد ذلك :

« كانت أعصابى متوترة فى الساعات الأولى من العبور اذ لم تكن نعلم ما لدى الإسرائيليين من الاحتياط وما هى الأسلحة الجديدة التى يستعملونها ؟ » ولكن بعد انقضاء ثلاث ساعات وضح لنا أن الاسرائيليين قد أخذوا على غرة وكانت قواتنا قد عبرت شواطىء القناة الوعرة » ..

وبدأت طائرات الميراج الاسرائيلية والسكاى هوك قصف الجسور الممتدة بعد ظهر يوم السبت ، وكانت المفاجأة تنتظرهم : فالى جانب الطرق المنحدرة التى تم تثبيت الصواريخ سام ٢ وسام ٣ عليها على طول خط قناة السويس والتى كان القادة الاسرائيليون يعلمون جيدا بوجودها ، استخدمت القوات المصرية الصواريخ سام ٦ المحمولة على العربات وسام ٧ التى يستطيع الجندى أن يحملها على ظهره . وقد اضطر الطيارون اليهود الشباب الى أن ينقضوا على أهدافهم وسط غابة حقيقية من الصواريخ التى كان يطلقها المصريون بكميات هائلة . وقد تحطمت عشرات الطائرات الاسرائيلية فى بضع دقائق فوق هذه المظلة الحديدية الواقية لجيش اللواء الشاذلى . واستطاع الاسرائيليون أن يقصفوا تسعة جسور من الأحد عشر جسرا الممتدة على مياه القناة ولكن تم اصلاحها طوال الليل . ومنذ ذلك الحين بدأت فرق المدرعات المصرية العبور وبلا توقف . وبعد بدء الحرب بعشر ساعات أى فى الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، يوم السبت ، عبرت ٥٠٠ دبابة وعشرات من صواريخ سام ٦ القناة وتشبثت بالأرض .

وفى الوقت نفسه ، كان الشاذلى يرسل الكوماندوز المصريين المحمولين بالطائرات الهليوكوبتر الى قلب سيناء خلف الخطوط الاسرائيلية وذلك من أجل تعطيل وصول قوات الاحتياط الاسرائيلية بقدر الامكان على أن تلك العملية العسكرية كانت من أكثر العمليات مخاطرة ومما لا شك فيه أنها أثبتت أنها كانت أكثر مراحل خطة بدر افتقارا للتوفيق ، اذ استطاعت المدفعية الاسرائيلية منذ ٦ اكتوبر اسقاط الطائرات الهليكوبتر الثقيلة . وقد استشهدت القلة القليلة من الكوماندوز المصريين الذين توصلوا الى أهدافهم اذ انهم لم يكونوا مزودين سوى بتموين يوم واحد وبذلك ماتوا عطشا فى الصحراء أو استسلموا بالعشرات .

وعندما وصل يوفيل بعد ظهر يوم الأحد فى مواجهة الخطوط المصرية ، استجوب هو الآخر الجنود الذين استطاعوا النجاة من خط بارليف وسجل لهم رؤياتهم . وقد سجل يوفيل دقيقة بدقيقة الحوار الساخن الذى دار بواسطة الراديو بين وحدة أريك التى لم تكن تستطيع الحركة وهى مرابطة على المرتفعات فى مواجهة الاسماعيلية وبين العشرين جنديا الذين كانوا يدافعون

عن حصن صغير لخط بارليف وهو حصن « هيزايون » الذى يقع بالقرب من جسر الفردان القديم . وبعد أن تم حصار جنود حصن « هيزايون » وأصبح هؤلاء كالغرقى وسط مد وجلر أمواج الجنود المصريين ، أخذوا ينادون على وحدة أريك لتهب لنجدتهم بأصوات لا يمكن أن تنسى :

« اننا عشرون داخل الخندق وقد أصيب القائد . ان الذى يتحدث هو جندى المراسلات ـ انهضوا لتخرجونا من هنا » .

وقد اضطر اريك بنفسه الى أن يتناول السماعة عدة مرات ليطمئن الجنود قائلا :

« عليكم بالهدوء يا أولادى . لا تخرجوا من الخندق بأى حال وسـوف نغطيكم بالمدفعية » . .

ـ حسنا لقد فهمنا ذلك . ولكن لا تقطعوا الارسال بيننا . . ان الموقف قاسى للغاية . .

وطيلة ساعات وساعات من يوم الأحد حتى يوم الاثنين اخذت المدافـع الاسرائيلية فى الدفاع عن حصن « هيزايون » عن بعد مستعينة بالصـوت المضطرب للجندى المسئول عن الارسال . وكان عمل المدفعية شبيها بدقات المطارق على ذباب غير مرئى .

ـ وعلى بعد ٤٠٠ م من الباب الشرقى ، عاد المصريون الى الهجوم . . . . القوا سريعا بقنبلة . . تحركوا . .

وفى الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الثلاثين ، أصاب الذعر فجـأة راديو الحصن وأخذ صوت بداخله وصرخ :

ـ « انهم يقتربون ـ اطلقوا المدافع سريعا انهم على بعد ٥٠ مترا » . . ثم انقطع الارسال . وتم أسر بعض الجنود من داخل الحصن وتوفى الباقون .

واحتفظ يوفيل بهذه الاصوات على شريط التسجيل . وكان مضـطربا اضطرابا شديدا مساء الأحد ولكن يوم الاثنين سـوف يحمـل له مفاجآت جديدة . فعند وصول أريك الى الجبهة أخذ جنوده يتساءلون : هل سـنقوم بهجوم مضاد ؟ هل سننتظر ؟ اذ أن العلاقات بين جورديش وشارون أخـذت تسوء وأصبحت علاقات اشبه بالعاصـفة ، ولذلك اتسمت خطط الهجـوم الأولى بالمبادرات غير النظامية عنها بالاستراتيجية المتكاملة ، وقرر بعضهم عدم الهجوم مساء الأحد فى محاولة لاحتواء الجيش المصرى وسوف يبدأون الهجوم غدا عندما يكون الاحتياط على أهبة العمل .

ونفد صبر اريك وكان يرى ان الواجب يحتم عليهم الهجوم مباشرة .
وفى صباح يوم الاثنين تم اعداد خطة للهجوم فى خطوطها العريضة . وكانت تلك الخطة مستمدة من استراتيجية وضعتها القدس بعد سنة ١٩٧٠ عندما تم انشاء القواعد الأولى للصواريخ الروسية على القناة . ولما كان الطيران يمكن أن يفقد فاعليته بسبب الصواريخ ، ولن يستطيع سحق الجيوش العربية فقد كان اريك يرى انه يجب فتح ثغرة فى خط الجبهة الضعيف وابطال مفعول الصواريخ سام على الأرض . وبهذا كان اريك يريد أن يحتفظ بالقوات المصرية ويمر سريعا نحو الجنوب ويفاجىء القوات الدفاعية العربية حتى القناة عن طريق ثغرة بينهما . وكان على « برين » أن يوسع مدى فاعلية مدرعاته ويتولى ــ رئاسة القطاعين وحده : القطاع الشمالى والقطاع الأوسط . ومما لاشك فيه أن هذه الخطة يمكن تنفيذها وهى مخططة على الورق اذ أن « برين » كان لديه أفضل وحدات تسهال المدرعة وكان اغلب رجاله من مدرسى الكلية الحربية فرع دبابات وكانت الدبابات والطيران دائما من بواعث فخر اسرائيل فاذا ما شنت هذه الدبابات هجوما على خطوط الجنود العرب ، فهل يكون هناك أدنى شك فى أنها موفقة ؟

وفى الساعة الثانية عشرة أخذ اريك يتحرك بوحدته نحو الجنوب وهم يسيرون على خط موازى لخط قناة السويس . وأخذت الدبابات والعربات نصف المجنزرة ترفع أعمدة سميكة من اتربة سيناء الصفراء اللون . وبدأ العرق يتصبب من جنود المجموعات الذين كانوا يلبسون الخوذات فوق رؤوسهم لتحميهم من الشمس المحرقة . واخذ اريك يضغط على اعصابه ويرد بضيق على ضباطه الذين كانوا يحدثونه بلا توقف عن الصواريخ الجديدة « شميل » التى كان يحملها المشاة المصريون .. كما كانت الصواريخ « شميل » محور حديث جميع الوحدات الاسرائيلية ، بعد أن استطاعت تحطيم هجمات المدرعات المضادة الأولى ، لدرجة أن افكارهم تسلطت نهائيا عليها . وأخذ اريك يفقد أعصابه .. شميل .. شميل .. لن يزعجونى أكثر من ذلك بأحاديثهم هذه .. » .

ووقعت المفاجأة فى الساعة الخامسة عشر والدقيقة الثلاثين اذ وصلت الطائرات U H 1 الهليكوبتر التى تقوم بعملية الاتصال بالقائد الأعلى للقوات المسلحة الى الوحدة وهى على مشارف ممر متلا . وكان الضابط الذى يقودها برتبة جنرال من وحدات جورديشى ، وهو يهودى وعراقى ، واسمه ساسون اتيساشى . واقترب من اريك وهو مقطب الجبين وقال له :

« يجب أن تعود فورا بأمر القيادة . اذ أن ديان لا يريد أن يجازف على خط القناة علاوة أن « برين » يعانى هناك كثيرا من المشكلات .

وكانت هذه الأوامر بمثابة قنبلة سقطت فوق راس اريك . اذ ثار وتوعد وكان مقتنعا « بان تل أبيب » تريد ان تمنعه من ان يقوم بعملية فتح ثغرة بين صفوف المصريين . . انها تريد ان تمنعه لأسباب سياسية فمما لا شك فيه . ان جورديشى لا يستطيع أن يقوم باى عمل . وفى النهاية اذعن اريك لأوامر ديان الشخصية . ولهذا لم تتم عمليـــة فتح ثغرة بين صفوف المصريين فى الثامن من أكتوبر . واستدارت جميع عربات الوحدة وتوجهت بكل سرعتها نحو القطاع الأوسط الذى تركوه منذ عدة ساعات . وبالفعل كانت الاحداث هناك على غير ما يرام صباح يوم الاثنين (وما بين الساعة ١١ صباحا والثالثة عشر على غير ما يرام أيضـــا) . وقد اطلق عليها يوفيل فيما بعد : الساعات الحاسمة » .

الا ان دبابات السانتوريون والشيرمان التى كان يقودها جنود « برين » عندما هاجمت الجنود العرب وكانت مقتنعة بأنها تستطيع القضـــاء عليهم سريعا قد واجهت دفاعا مخيفا وخارقا .

بل واجهت شراسة مميتـــه من جانب المقاتلين العرب . اذ ان جميع المشــــاه المصريين كانوا متزودين بالصواريخ المضـــادة للدبابات من طراز « ساجير » و « سواتر » و « شميل » بواقع صاروخ لكل ثلاثة رجال . على أن استخدام الصاروخ ساجير لا يتطلب أية مهـــارة معينة بقدر ما يتطلب شجاعة من الجندى الذى ســيقذفه . فهو يتكون من صاروخ يمكن حمله ، وحقيبة صغيرة ، ونظارة لتحديد المرمى : ويستطيع الجنود وهم مختبئون وراء احد التلال أو حتى وهم على الأرض المكشوفة أن يتوقفوا ويدمجـوا عناصر الصاروخ المختلفة ويفتحوا النيران . ويكفى الجندى عادة بمتابعـة الهدف المتحرك ، (سواء أكان دبابة أم عربة نصف مجنزرة أسرائيلية) من خلال نظارة المرمى ويقوم جهاز الصاروخ الخاص بتحديد الهدف وهو يقوم بباقى العملية بواسطة خيط رفيع . ومن المعروف أن مدى هذه الصواريخ يصل الى ثلاثة كيلومترات وتحديده للهدف شبه مؤكد . وقد نجحت قوات المشاة الحاملة لهذه الصواريخ فى القضاء على كتيبة « برين » التى أمطرتهم بنيران مدفعيتها ولكن دون جدوى . وقد روى الجنود الاسرائيليين الذين اصابهم الذعر مما شـاهدوه بعد ذلك فقالوا : كنا نضرب ونضرب ، وكان الآخرون يأتون دائما » . .

وكانت هذه المفاجأة فى تكتيك العمليات من الامور المثيرة للغرابة اذ أن اسرائيل لم تكن تجهل وجود هذه الصواريخ وكان الصـــاروخ R.P.G. 7 الذى صنعه السوفييت عام ١٩٦٤ قد تبادلته جميع الكتب العسكرية لجيش

نسهال بالوصف الدقيق . اما فيما يتعلق بالصواريخ شميل او الصواريخ ساجير فقد أستعملت من قبل فى حرب الأيام الستة وحرب الاستنزاف . اما الصواريخ سام ٧ ستمريللا فقد استخدمت فى فيتنـــام واستعملهـا الارهابيون الفلسطينيون فى هجومهم على مطار روما فيمينكو عام ١٩٧٣ وقد أعلنت جميع الصحف العبرية عن وجودها فى الجيوش النظامية العربية فى ابريل سنة ١٩٧٣ . والحقيقة ان ما أثار دهشــــة الضباط اليهـــود هو استخدام المشـــاة المصريين لمختلف هذه الصواريخ باعـداد كبيرة . وكتب « زيف شـــيف » الخبير العســـكرى فى صحيفة هارتس الصادرة فى ٩ من نوفمبر ١٩٧٣ يقول : كنا نعتقد أن الدبابة تسحق دائما قوات المشاة ، وقد ادهشنا ان يقوم المصريون بالهجوم على الدبابات . وكانت لدى جنود المشاة الشجاعة لاطلاق هذه الصواريخ على المدرعات الاسرائيلية » .

وقد تم تدمير عدد كبير من المدرعات . وقد اضطر عساف ياجورى احد قواد وحدة « يرين » وهو قائد الوحدة ١٩٠ ، أن يترك دبابته السانتوريون وهى مشتعلة وسلم نفسه أســيرا فى ايدى المصريين . ووسط لهيب المعركة استطاعت بعض المدرعات الاسرائيلية الوصول الى مشارف قنــاة السويس بالقرب من جسر الفردان الا أنها اضطرت سريعـــا الى الانسحاب مثل باقى الوحدة (على أن هذا التقدم الشارد سيكون أساس سوء التفاهم الخطير فيما بعد) .

وقد سمع يوفيل من خلال الترانزوستور الذى يحمله البيـــان الذى اذاعته تل أبيب وكانت تقول فيه : ان قواتنا تسحق ... » فى الوقت الذى هب فيه أريك لنجدة « يرين » . أى أنه سمع البيان بعد الانسحاب المباشر والنكسة القاسية التى اصابت الجيش الاسرائيلى فى الجبهـــة الجنوبية ! وبعد أن قام باتصـــال تليفونى سريع لراديو اسرائيل أخـــذ يكتب بعض الملاحظات على ورقة وقد فقد أعصابه فجاء : « لقد أعلنتم أن قواتنا تسحق قوات العدو على خط القناه ويريد المراسل العســكرى الذى يلازم القوات الاسرائيلية أن يكذب هذه المعلومات . وفى الحقيقة لقد نجحنا فى عرقلة تقدم العدو وسوف ندخل فى مرحلة الهجوم المضاد ، بيد أن هذه المرحلة ما زالت فى بدايتها . لقد استطاع المصريون أن يعبروا الى الضفة الشرقيـــة باعداد ضخمة طوال ليـلة السبت الى يوم الأحـد ٧ اكتوبر ، وقد بداوا فى تنظيم صفوفهم . ومن هنا يجب أن نستنتج أنه على عكس ما ورد فى بياناتكم فان جميع الجسور التى تم مدها فوق القناة لم يتم تدميرها بعد » . على أن يوفيل الذى حرص على الا يثير القلق والبلبلة داخل اسرائيل اختتم كتابه

قائلا بحذر : « سوف ننتصر الا أن هذا النصر سيتحقق بعد مدة طويلةوحتى الآن لم تتم أية عملية عسكرية محددة ، ولم يتخذ بعد اى قرار » .

واخذ الجنود الاسرائيليون ينصتون لهذه الرسالة الشفوية التى بعث بها يوفيل تليفونيا . ثم أخذ الجميع ينتظرون النشرات الأخبارية القادمة . وفى الساعة السابعة عشرة قام مذيع صوت اسرائيل بنقل البيان السابق نفسه : « وعلى قناة السويس سحقت قواتنا قوات العدو » .. واذيع البيان نفسه فى الساعة الثامنة عشرة .

وفى الساعة التاسعة عشرة . وفى الساعة العشرين والدقيقة الثلاثين اذاع الراديو المؤتمر الصحفى الصاخب الذى عقده قائد قوات الجيش الاسرائيلى حيث قال : « سوف نحطم عظامهم » . وعندما سمع جنود خنادق سيناء هذه الكلمات بدا لهم أن وعد قائد القوات ذو معنى تافه . وفقد يوفيل اعصابه . واتسمت تعليقات الجنود من حوله بالمرارة اذ قالوا :

اذا كانت الاذاعة تنقل مثل هذه الأكاذيب عنا ونحن فى سيناء فمما لا شك فيه ان البيانات التى تذاع عن سير العمليات فى الجولان من هذا النوع نفسه » ..

وتناول يوفيل التليفون مرة ثانية وطلب تل ابيب ـ وقد اثار فضيحة هذه المرة عندما وصف المسئولين عن الاعلام بأنهم كذابون لا ضمير لهم ومذنبون . وقد أجاب المسئولون عليه وهم محرجون انه من الصعب على اذاعة اسرائيل أن تنقل معلومات متناقضة سوف يأخذها العالم كله عليها . وزاد غضب يوفيل . وعندما أغلق الخط بعنف ، حدق له جنوده لمدة طويلة . وأخذ الثلاثون جنديا الذين كانوا ينتظرون الخط للاتصال بعائلاتهم يعلقون ويوافقون على دفاعه من أجل نشر الحقيقة .

واخذ يوفيل يفكر فى هذه المرة . وادرك انه من اجل أن يتوصل لاذاعة ملاحظاته يجب الا يسهم بهذا العنف فى اختياره للكلمات ويجب عليه اذن أن يراوغ .. وفى الساعة الواحدة والعشرين اتصل مرة اخرى بالاذاعة تحقيق جديد . وبين سلسلتين من التحقيقات الساخرة عن الحالة فى الجبهة واذاعة بعض النكات العسكرية استطاع يوفيل أن يدس فى نشرته بيانا عن الحالة الحقيقية فى الجبهة الجنوبية . ثم اخذ ينصت الى الراديو . وفى الليل سمع اخيرا نشرته التى بعث بها ، ولكن للأسف اذيع الجزء الخاص بالنكات والتحقيقات الساخرة وحذف الجزء الاخبارى وأدرك المراسل أن الاذاعة الاسرائيلية والرقابة العسكرية قد ثار غضبهما من اتهامه لهما

بالكذب ومن اصراره على ارسال المعلومات فحذفوها مما جعله يصل الى النتيجة الأولى عنها . عدم استطاعة نشر الوضع الحقيقي عن الجبهة .

وادرك يوفيل ايضا ، وهو الذى يعلم بردود الفعـل العسكرية ، أن العنصر النفسى قد لعب دوره : اذ أن الجيش الاسرائيلى بأجمعه ، من أصغر جندى الى اكبر جنرال بجميع مراسليه العسكريين عندما توجهوا مسـاء السبت الى الجبهة : كانوا ضحية نوع من « النصر النسبى » فالكل كان يقارن الموقف بالنسبة لموقف عام ١٩٦٧ وكان الجميع يحمل بداخله نشوة انتصارات اسرائيل السابقة وفكرة الجيش الذى لا يقهر . وانطلاقا من هذا الشعور لم يكن أحد يتصور ولو ثانية واحدة أن الموقف تغير وأصبح غير عادى وأصبح تسـهال على خط الدفاع .. وفى مواقع أخرى كان ينسحب . ان اكاذيب راديو اسرائيل لم تكن أكاذيب أذيعت عن عمد ، بل كانت تشكل نوعا من الامتداد الذهنى لأساطير « روشى هاثانا » .

وقد استطاع والتر ايتان مدير الاذاعة والتليفزيون أن يحلل فيما بعد ظاهرة عدم الرؤية هذه تحليلا منطقيا اذ قال : « ان مراسل الجبهة الذى كان يحصل على دقيقة أو دقيقتين من الاذاعة لم يكن يتحدث الا عن المعارك الباسلة « وردت العدو » و « سحقته » أو أن يستعمل كلمات أخرى من هذا القبيل . وعلى الرغم من أن كلا منهم لم يحظ الا لدقيقتين أو ثلاث دقائق ليذيع فيها أخبار الجبهة ، فان تلك الدقائق كانت تتجمع فى تل أبيب الى جانب التحقيقات مما شكل برنامجا لا ينقطع ارساله عن أخبـار الجولان وسيناء وقناة السويس . وكانت النتيجة مأساوية . اذ قدمت صورة مشوهة وغير صحيحة عن الموقف ، على أن جهـاز مخابرات الجيش كان يستمع هو أيضا لكل كلمة مذاعة قبل ارسالها وبهذا تلقى المراسلون الذين كانوا يطلبون توضيحات رفضا مؤقتا لمطالبهم لأنه كان يتعين حينذاك تنظيم جهاز الاعلام من جديد . بيد أن تسهال كان لاول مرة منذ سنوات فى موقف غير معلوم ، فكان ينسحب من جبهة قناة السويس ومن الجولان وقد فاجأته الحرب . ولمدة يومين أو ثلاثة ظل الجميع غارقين فى جو حرب أخرى . ولم يكن أحد يريد أن يصدق الأخبار التى حملها بعضهم من الجنوب أو من الشمال . وكانت البيانات العسكرية التى يذيعها تسهال تتسم بالتفاؤل وكان الكل مقتنعين تماما بأن النصر الاسرائيلى لا يتطلب غير بضع ساعات . وقد أكد المؤتمر الصحفى الذى عقـده رئيس أركان حرب الجيش هـذا التفاؤل اذ أكد الجنرال اثناءه « أنه سوف يحطم عظام العرب » . وربمـا لم يخطىء رئيس اركان حرب الجيش فى تقـديره المقبـل للموقف بيـد أن التصريحات التى أدلى بها زادت فيما بعد من خطورة عدم تصديقه ..

وبالفعل لم تكن تعليقاته تعنى انه قد « تمت زحزحة الجيش من الجولان ومن سيناء وأن القوات كانت تقاتل بمرارة للاحتفاظ فقط بمواقفها » .

وماذا كان فى وسع يوفيل ان يقوم به مساء يوم الاثنين بينما باتت المؤخرة غارقة فى اعتقادها الخاطىء بالتوصل الى تحقيق نصر مؤكد . وقد رد عليه القائد عندما اتصل به يوفيل بالتليفون بطريقة عابرة يقول : انه لا يمكننا أن نقول الحقيقة أثناء الحرب » .. الخ .. وحينئذ اتخذ يوفيل قرارا عنيفا انه سوف يذهب بنفسه الى تل ابيب ليروى الحقيقة الى أولئك الذين لا يرغبون سماعها . واستطاع ان يصل الى قاعدة « الرافدين » ووجد هناك طائرة عسكرية . وفى الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الثلاثون من يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر كان يوفيل فى تل ابيب فى اروقة بيت سوكولوف : وأخذ يصرخ ويعترض ويروى للكل ما شاهده على الجبهة الجنوبية . الا أن شهادته جاءت متأخرة بعض الشىء وبذلك لم تثر أية فضيحة اذ أن سلسلة الخيالات بدأت تنهار بهدوء من ليلة الاثنين الى صباح الثلاثاء وبدأت الحقيقة تروج فى شوارع تل أبيب . ولم نعد نلتقى فى شوارع تل ابيب الا بالوجوه الواجمة .

ان كثيرا من الدول حتى ولو كانت صغيرة قد تراكمت منذ مساء الأمس لتكون شيئا غير واضح يشبه اليأس الصامت .

وفى الولايات المتحدة أعلنت اجهزة اعلام البانتاجون عن ميزانيات الحرب الأولى . وطبقا لتقدير الأمريكيين فان اسرائيل خسرت فى ثلاثة أيام أكثر مما خسرت فى حرب سنة ٦٧ . وقد تلقت كثير من العائلات التى فقدت أبنائها فى الحرب الأخبار الرهيبة لهذه الخسائر . واظهر التليفزيون المصرى مئات من الأسرى الاسرائيليين وأجرى تحقيقا صحفيا مع عساف قائد الوحدة ١٩٠ الذى أسر صباح الاثنين بالقرب من الاسماعيلية .. « مئات من الأسرى ! ومن بينهم كولونيل ! ! » وبدأ الاتحاد السوفيتى فى نفس اليوم اقامة جسر جوى لتزويد مصر وسوريا بالعتاد العسكرى فى الوقت الذى رفضت أمريكا اقامة مثل هذا الجسر بينها وبين اسرائيل .

اباتت اسرائيل وحدها ؟

وفى الساعة الثانية عشر والدقيقة الثلاثين اكد التليفزيون الاسرائيلى ان السوريين الذين اعتقد الجميع انه تم القضاء عليهم ، قاموا فى الليلة الماضية بعدة هجمات مضادة على الجولان .. وعاد المراسلون الأجانب الذين استطاعوا أن يندسوا سرا صباح يوم الثلاثاء بين الصفوف الأولى على

الرغم من المتاريس العسكرية ، الى تل أبيب لارسال برقياتهم محاولين خداع الرقابة العسكرية وقد حملوا معهم اخبارا مثيرة للقلق اذ أن جنود الاحتياط الذين تمت تعبئتهم وارسلوا الى الجبهة صباح يوم الاثنين انتقل شعورهم مرة واحدة من التفاؤل الى التشاؤم . « لقد انتهى عهد الجيش الذى لا يقهر وانتهى العيد ... » وتناقلت الألسنة نفس الجملة :

« ان الأمر صعب للغاية . انهم يقاتلون افضل مما كانوا يقاتلون عام ١٩٦٧ ... الوداع يا سوكون » .

فما الذى حدث ؟

***

وفى مرتفعات الجولان . استطاع السوريون أن يفتحوا فى مساء السبت ٦ من اكتوبر ثلاث ثغرات فى ثلاث قطاعات واستطاعوا أن يمروا بثلاث وحدات والف دبابة ، وعشرين فرقة آلية مزودة بستة صواريخ سام وبسبعة وعشرين وحدة من المدفعية المضادة للطائرات وبالرغم من الخنادق والحفائر المضادة للدبابات فقد فتح السوريون الخطوط الاسرائيلية فى الشمال بالقرب من قرية صادج الشرم الدرزية فى القنيطرة والخطوط الاسرائيلية فى الجنوب نحو « هوشينيا » . ومن أجل احتواء موجات المدرعات السورية التى كانت تقوم بعملية الاحاطة بالخطوط الاسرائيلية « مثل الكماشة » لم يكن لدى الاسرائيليين الذين اخذوا على غرة سوى ١١٠ دبابة من بينها خمسين سيارة من المدرعات الخفيفة وبضع مئات من الجنود المجندين وقد قامت القوات السورية بسحق هؤلاء الاسرائيليين منذ يوم السبت ، واضطر الجنود أن ينسحبوا انسحابا مأساويا « وتمكنت وحدات الرئيس الأسد فى يوم الأحد من التغلغل الى ١٥ ك.م داخل الجولان . وبهذا هددت مدن طبرية وروش بينا وتقدمت حتى وصلت على بعد ثلاثة كيلو مترات من جسر بنات يعقوب » على نهر الأردن والأعجب من ذلك أن الفدائيين المغاربة الذين تم انزالهم بالطائرات الهليكوبتر استطاعوا الاستيلاء على قمة جبل الشيخ .

وكانت جبهة الجولان تثير قلق ديان ومخاوفه اكثر مما تثيره جبهة قناة السويس . وان كان أمام المصريين ٣٠٠ ك.م من ارض الصحراء ليستولوا عليها ، فان السوريين يهددون مباشرة قلب تل أبيب . ولأن ديان لم يستطع التورط فى عمليتين مضادتين للدفاع عن الجبهتين فى آن واحد ، فقد اكتفى بأن يركز أكبر كمية من قواته على الجبهة الشمالية . وابتداء

من مساء يوم السبت قامت الطائرات الاسرائيلية بقصف مئات من الدبابات السورية . ولكنها دفعت مقابل ذلك ثمنا باهظا (١) . وقد تم ارسال المدرعات اليهودية ، التى كانت تصل الى مؤخرة الجيش ، سريعا الى الجبهة حتى انه فى بعض الأحيان لم يكن لدى القادة الوقت الكافى لتكوين وحدات منهم .

وكانت أول الوحدات ، المكونة من جنود الاحتياط ، الذين تم ارسالهم على مرتفعات الجولان هى كتيبة شيرمان برئاسة القائد ايتزيك . الا أن نصف كتيبة شيرمان الذى يرجع تاريخها الى الحرب العالمية الثانية « كانت مزودة بمدافع عيار ٧٥ تطلق نيرانها على المدرعات السوفييتية من طراز ٥٤ و ت ٥٥ و ت ٦٢ » . « وكان النصف الآخر من الكتيبة مزودا بمدافع حديثة ذات فوهة سعتها ١٠٥ ميلليمتر » وعند تجمع الكتيبة يوم السبت على مشارف جنوب الجولان بالقرب من « الجبال » سمع الجنود وهم يرتعشون قائدهم وهو يعلن عن الموقف :

« سنجد ما لا يقل عن ٨٠ دبابة ت ٥٤ و ت ٥٥ ومئات من السوريين مختبئين داخل الخنادق . وعلينا اذن أن نتصرف » .

ومع زحف الليل هاجمت الكتيبة بجنون عدوا يتفوق عليها عددا وعتادا . ولكن أتاح تمرين وجرأة الجنود اليهود الفرصة لهم لتبديل الموقف . واتسمت المعارك بالضراوة والعنف من الجانبين ، واختلط سير المعارك لدرجة أن احدى الدبابات السورية من طراز ت ٥٥ وجدت نفسها وحيدة وسط العربات الاسرائيلية نصف المجنزرة التابعة لرئاسة الأركان والتى لم تستطع القيام بعمل ما ضدها . وروى القائد « ايتزيك » هذه الحادثة قائلا : لقد كان موقفا كريها اذ أن العربات نصف المجنزرة لم تكن تريد اثارة الدبابة السورية . وكانت المسألة تتمثل فيما يجب القيام به . وفجأة دارت الدبابة وخرجت عن دائرة المرمى دون أن تطلق مدفعا واحدا » . وفى مواجهة المدرعات الثقيلة والمزودة بعتاد أفضل من عتادهم العسكرى ، توصل جنود ايتزيك الى طريقة للعمل أخيرا : وهى عدم التوقف لتثبيت المرمى ، وعدم الدخول فى مباريات قتالية على بعد ولكن عليهم أن يهجموا مباشرة وبفضل هذه الطريقة استطاعت الكتيبة تدمير خمس عشرة من المدرعات السورية واحتواء الهجوم وفتح ثغرة صغيرة نحو مدينة « هوشينيا » .

---

(١) فقدت اسرائيل ٨٠ طائرة على الجبهة السورية من بين الـ ١١٥ طائرة التى فقدتها طوال الحرب .

وروى الجندى يهودا هذه اللحظات قائلا : لقد عشت أصعب ساعات حياتى . وقد اتضحت خطورة الموقف عندما أعلن مساعد قائد القطاع ان الاستيلاء على هوشينيا مسالة حياة او موت بالنسبة لجبهة الجولان . وكان هذا واضحا للغاية اى انه لم يكن أمامنا خيار .

على ان المعركة التى دارت فى هوشينيا كانت من اصعب معارك الحرب على الاطلاق . اذ كان السوريون مختبئين داخل المنازل وخلف الحوائط ينتظرون تقدم المدرعات اليهودية وهم يحملون الصواريخ المضادة للدبابات ومدافع البازوكا . واسفرت المعارك عن خسائر فادحة من الجانبين الا ان السوريين قاموا فى صباح يوم الثلاثاء بعدة هجمات مضادة ادهشت الجنود اليهود . وفى فجر يوم ٩ من اكتوبر ساد الشعور بالقلق جميع وحدات الاحتياط التى وصلت الى الجبهة فى يومى السبت والأحد وهى متأكدة من احراز النصر .

على ان هذا القلق الذى كان بمثابة نهاية العالم « بدأ يتسرب رويدا رويدا الى داخل اسرائيل . تسرب هذا القلق مثلما يتسرب السم ببطء داخل جسم الانسان ومن بين سكان اسرائيل ، كان كثيرون يعرفون حقيقة الموقف . لأن اسرائيل بلد صغير لا يمكن اخفاء خبر عنه لمدة طويلة . وفى استوديوهات اذاعة اسرائيل انزعج الفنيون من سماع الأشرطة المسجلة القادمة من الجبهة « والتى كانت الرقابة قد منعت اذاعتها » وبدأوا ينقلون الإخبار . ووقعت حادثة عجيبة فى استوديوهات أجهزة تصنت الاذاعات العربية التى تقع فى شارع صدلين هامالكا . وكان المسئول عن الجهاز رجلا يبلغ التاسعة والثلاثين من العمر من أصل مصرى يدعى سقراط كوستا . وكان قد استدعى مثل الجميع فى الساعة الثانية والنصف يوم ٦ من أكتوبر . وطوال ثمانية وأربعين ساعة تابع وسجل جميع النشرات الاخبارية التى نقلتها اذاعات القاهرة ودمشق وبيروت . وقد دهش كثيرا لسماع تلك البيانات اذ أنه لاحظ أنه يستمع الى بيانات معتدلة وأكثر تحديدا عن بيانات اسرائيل بدلا من بيانات اسرائيل الصاخبة ونداءات الابادة التى كانت تنقلها الاذاعات العربية عام ١٩٦٧ .

وعندما غادر سقراط كوستا مكتبه يوم الثلاثاء التف حوله جيرانه واصدقاؤه يسألون عما تقوله اذاعة القاهرة ودمشق وبيروت ؟

وتبدلت الأوضاع فى العـــالم .

وفى القدس شعرت جولدا مائير ومجموعتها بالقلق ابتداء من مســاء الأحد من جراء المشكلات الاعلامية . واراد موشى ديان الذى هزته المفاجاة وانتقده الجميع ووجهوا اليه اللوم وبعد أن أوشك على تقديم استقالته ، ان يعلن الحقيقـــة للشعب بنفســه . وقد كشف لمديرى الصحف الذين اجتمعوا به صباح الثلاثاء عن جزء من المأساة بيد أن جولدا مائير منعته من أن يسترسل أكثـر من ذلك اذ ان الحكومة قد أدركت مدى تأثير نشر ما يعتبره البعض نهاية العالم « على ثلاثة ملايين اسرائيلى اضطروا الى أن يتحولوا الى خط الدفاع . وبعد عدة مماطلات اضطروا الى أن – اضـطرت جولدا مائير الى أن تسند مهمة الاعلام للجنرال اهارون ياريف » وكانت تطلق عليها اسم المهنة القذرة . .

وقد اجتمع ياريف يوم الثـلاثاء بعـدة مئـات من الصحفيين فى بيت سوكولوف . وكان هذا الاجتماع العام يتسم بالتوتر ، فكان ثقيلا وعدوانيا . وكان كثير من المراسلين الأمريكيين والانجليز والألمان قد تلقوا فى الصباح اوامر من رؤساء تحرير جرائدهم جاء فيها الا تثقوا ببيانات اسرائيـل العسكرية . وعندما تخطى ياريف باب صالة الاجتماعات فى بيت سوفولوف ، كان الكل يدرك أن شيئا مهما سوف يحدث . وقد نقلت الاذاعة والتليفزيون المؤتمر الصحفى مباشرة على الهواء وسمح للصحفيين المجتمعين فى القدس بالاشتراك فى هذا المؤتمر بواسطة خط فتح خصيصا لهم .

* * *

وتعلق شعب اسرائيل بأ جمعه بكلمات ياريف القاسية التى صرح بهـا فى المؤتمر الصحفى الذى عقده يوم الثلاثاء اذ قال : « ستكون هذه الحرب صعبة وطويلة الأجل . وقد خاطرنا بترك المصريين والســوريين يبـادرون بالهجوم مع الاحتفاظ بالمزايا التى تحتوى عليها تلك المبادرة . وان الأمر لا يعنى خطــرا على وجود اسرائيل . اذ أن هــذا الخطر غير قائم الا انه لا يجب أن نتشبث بالانتصارات السريعة الأنيقة » .

واخذ ياريف يسرد الموقف على الجبهات المختلفة . ففى جبهة قنــاة السويس استطاع الاسرائيليون تثبيت خطوطهم على بعد ٥ كم من القناة . وفى الجولان بدأ التوازن يميل الى جانب تسهال . وقال فى هذا الصدد : « لن أقول انه تم تحطيم السوريين أو ردهم بعيدا . ولكننا نملك الآن خطا ثابتا للقتال » .

ونهض صحفى من الحاضرين يسأل :

« هل حقيقة أن القوات الاسرائيلية تقاتل على قناة السويس ؟ »

ونفى ياريف السؤال مكتفيا بايماءة من رأسه ..

وحينذاك اظهر فيكتور سيجلمان مراسل « لونوفيل أبزرفاتير » الفرنسية بيانا رسميا أصدرته اجهزة الجيش الاعلامية وكان موقعا من احد المراسلين العسكريين وصف فيه قتال وحدة مدرعات على قناة السويس فى القطاع الأوسط . وثارت ثورة ياريف وتلقت اسرائيل اجابته مثلما يتلقى المرء لكمة قوية اذ قال المسئول عن الاعلام : « اننى آسف ولكن البيان غير صحيح » (١) .

وبدأ التحول الكبير . وزلزلت الأرض من الذى يقول الحقيقة ؟

واندفعت اسرائيل مرة واحدة الى الفراغ الداكن وهى تردد جملة تفوه بها الجنرال هيرجوز المعلق الرسمى مباشرة بعد ياريف اذ قال : انها حرب استنزاف .

ونشرت صحيفة دافار الموالية للحكومة فى اليوم التالى مقالا افتتاحيا طويلا وقاسيا . فكتبت تقول : « ان العرب قد أدلوا منذ زمن بعيد بتصريحات عن عزمهم شن الحرب ، وليس الخطأ خطأهم اذ لم نأخذ تلك التصريحات مأخذ الجد .

واليوم بات من حق أعدائنا ان يستغلوا عنصر المفاجأة ويجب ان نتذكر ان الحرب ليست شركة تأمينات .

ولا يبدو على هذه الحرب أنها قد اثبتت أن خطوط وقف اطلاق النار يسهل الدفاع عنها أكثر من الدفاع عن خطوط الهدنة القديمة . وعلينا ان نسأل عما اذا كانت الظروف التى أحيطت لشن هذه الحرب ليست الا نتيجة للسياسة التى انتهجناها فى الأعوام الأخيرة ونتيجة لعزلة اسرائيل المتزايد التى لم يعد يساندها سوى الولايات المتحدة » .

* * *

وانه عيد « السكوت » . وفى الوقت الذى كان من المفروض أن تحتفل

---

(١) فى الحقيقة أن هذه الكذبة التى جرحت اسرائيل لم تكن كذبة بالمعنى الصحيح . فأثناء كتابة التحقيق الصحفى كانت وحدات « يدين » المتقدمة تقاتل على قناة السويس قبل ان تضطر الى الانسحاب .

فيه اسرائيل بانتصارها الرابع بدأ يوم السكوت مساء الاربعاء دون ان يشترك الجنود فى هذا اليوم المشئوم .

وعلى الرغم من ذلك قالت جولدا مائير التى تجاوز عمرها مائة عام : كل عام وأنتم بخير . على الرغم من ذلك . وشعرت اسرائيل بالدوار فى هذا اليوم الذى تخللته الحرب وشرخت مرآة روش هاشانا . ان كل قطعة من هذه المرآة وكل حقيقة وضعت بالأمس تؤلم النفس أشد الألم . وقد انقلب الوضع وتغير يوم السكوت ليصبح انقلابا لروش هاشانا .

— الم تكن الحرب مستحيلة الوقوع ؟ لقد شنت .

— ان العرب جبناء غير قادرين ؟ انهم يندفعون نحو الدبابات ويقومون بهجمات مضادة ليلا . وافرطوا فى استخدام الحيل العسكرية لتسهال .

— ان اسرائيل تملك افضل اجهزة مخابرات فى العالم ؟ ربما حصلوا على جميع المعلومات ولكنهم لم يفهموا شيئا ، وعلموا بكل الأحداث ولم يتوقعوا حدوثها .

— الحدود الآمنة — لم تمنع هذه الحدود اى شىء بل ربما كانت هى التى اثارت كل شىء .

— الطيارون البارعون ؟ لقد تحطموا بالصواريخ السوفييتية .

— الجنرالات البارعون ؟ انهم يخادعون انفسهم ويتقاتلون . لقد انقذهم جنودهم وموتاهم من الخزى ؟

— الاستغلال التكنولوجى ؟ ستصبح تسهال بدون امدادات بين آيدى نيكسون .

— خط بارليف الذى لا يمكن عبوره ؟ لم يستطع الصمود سوى ست ساعات .

— التعبئة الخاطفة ؟ لقد غرقت وسط الفوضى وعدم النظام .

— صداقة امريكا غير المشروطة ؟ ان كيسنجر يملى رغباته على اسرائيل ويميل الى القاهرة .

— وثم هناك الموتى .. انهم كثيرون وان أسبوع السكوت اسبوع رهيب على اسرائيل بينما ساد الفرح اتجاه نابلس الأرض القريبة منا هناك ، وهو فرح لا يحتمل .

الفصل السادس

الرهائن

« وبدلا من السير فوق الثعبان الذى كان يهددهم ، ابتلعوه واليوم عليهم ان يتعايشوا معه او يموتوا من سمه » .

عطا الله منصور « كاتب فلسطينى »

نابلس ، غرب الأردن المحتل : العالم الآخر الذى يبعد ساعة عن تل أبيب ولا يفصله عنها أية حدود . وهناك كان القلق الرهيب يسيطر تماما . أما هنا فقد ساد الفرح الذى شكل صدى رهيبا مع هـذا القلق . اذ بدأ الفلسطينيون يحتفلون فى حذر بهذه الحرب التى سمعوا اخبارها من خلف اسوار سجونهم ..

وعادت الأراضى المحتلة منذ يوم السبت ٦ من أكتوبر لتصبح الجهة الأكثر ترديدا والأكثر كتابة عنها والأكثر تناولا فى الأخبار العالمية . اذ أن جميع المستشارين قد تناولوا بالدراسة أسباب الحرب وراس مالها وحجتها او الحقل المغلق للحرب الاسرائيلية العربية الرابعة وثار قلقهم عندما ظلت تلك الأسباب تجريدا سياسيا بلا مضمون وبلا شكل . الا أن التجريد اتخذ فى نابلس شكلا آخر اذ عادت اليه الحياة تتحرك وتتم . وبدات « الأراضى المحتلة » تتخذ شكلا جديدا فى نابلس القديمة حيث اشتهرت بعرض الزبيب فى شوارعها الضيقة المزدحمة وحيث فتح الجميع راديو القاهرة المنتصرة ليسمعوا بيانات اللواء الشاذلى على طول طريق جمال عبد الناصر الذى تصطف على جانبيه أشجار التين والذى تفوح منه رائحة الزيتون وحيث كانت تتنقل خمير الانجيل . وقد أوقظ الأمل : أمل استرداد الكرامة العربيةعلى بعد خطوتين من الدبابات .H. L. M »الاسرائيليةفى نيتانيا «عاصمة السامرية » واخذت الشوارع تغنى سرا ..

وكان الأطفال يلقون الحجارة على السيارات الاسرائيلية المتجهة الى وادى الأردن وهز الكبار رؤوسهم عندما قرأوا العناوين الحمراء لصحيفة

القدس العربية والتى تتحدث عن عبور الجنود لقناة السويس وثار تلاميذ مدرسة ناصر . واتخذت بعض الدبابات الاسرائيلية مواقعها أمام مقر الحاكم العسكرى الذى تحيطه الأسلاك الشائكة . واخذ الجنود اليهود يتجولون وهم يحملون أسلحتهم من شارع فيصل « وهو الشارع الرئيسى » الذى يقع حول معسكر « بلاطة » الذى يضم عشرة آلاف لاجىء منذ عام ١٩٤٨ حتى الأحياء البورجوازية واحياء وطنى « الرادفية » الذين يقيمون داخل منازل ذات اعمدة تحيط بها الحدائق : وقد تم القاء القبض التحفظى على بعض الشباب العربى واخذ الجيش الاسرائيلى يراقب المدارس عن قرب ..

على أن هذه الاجراءات الاحتياطية تعتبر اجراءات بلا فائدة فلم ولن تقم ثورة فلسطينية داخل نابلس أو فى غزة أو حتى فى القدس . لن تقوم اية ثورة على الرغم من أوامـر منظمات الفتح الملتهبـة . وقامت المنظمة بتوزيع بعض البنادق هنا وهناك وقامت بعدة اغتيالات لتمنع العمال العرب من الذهاب الى إسرائيل طلبا للعمل . وتوقف العمل عند هذا الحد .. وفى نهاية الحرب وبعد وقف اطلاق النار فقط بدأ الارهابيون يعملون داخل غرب الأردن وفى غزة والقدس ويعتبر هذا عملا بسيطا ..

وعلقت الصحف الاسرائيلية على عدم قيام الفلسطينيين بأى عمل مضاد فى الأراضى المحتلة بأنهم لا يعتقدون فى النصر العربى بيد أن عمد نابلس قد ردوا على هذه التعليقات قائلين : ان مقاومتنا قد تحطمت منذ زمن بعيد ، وما زال أملنا اليوم محبوسة أنفاسه ولكنهم يكررون تلك الجمل القصيرة التى سادت العالم العربى بأجمعه : لن يعود الأمر الى ما كان عليه ، ان الاسرائيليين يمكن قهرهم ، ان العرب يعرفون كيف يقاتلون عدوهم ، ربما كان المستقبل لنا .. وقال حكمت المصرى رئيس البرلمان الأردنى السابق وهو جالس فى مصنع الصابون الصغير الذى يملكه « ان كل يوم يمر فى صالحنا الآن ويجب على السادات الا يتوقف عند اجراء المفاوضات يجب أن نستمر . انها المرة الأولى التى يقاتل فيها العرب يهودا فقدوا قدرتهم ..

وفى نابلس ، مثلما هى الحال فى الأراضى المحتلة الأخرى — من العريش الى الجليل ومن طولكارم الى القدس — كان الأمل الذى أظهره وأشعله الهجوم المصرى — السورى أملا صادق الشعور . وبدا وكأنه اختلاجة عميقة ، غير محدودة لم يصدقها الكثيرون اذ انها ظهرت على أثر انقضاء الستة أعوام العجاف التى عاشـها العـرب . ومازلنا نلتقى فى مدن فلسـطين بالوجوه الواجمة داخل تلك المدن التى أعلنت اسرائيل أن الحياة قد عادت فيها الى طبيعتها واستقر السلم . ولكننا مع ذلك نلاحظ فى نظرات هؤلاء العرب شعلة

الأمل البسيط التي تؤكد ان المحتمل يدرك تماما معنى الاحتلال الذى يمكن ايذاؤه . بيد أن الفرح الذى ساد شوارع نابلس انما هو أفكار جزين. وفى نفس الوقت ثورة . اذن ليس هناك احتلال يتسم بأن لا صداقة وليس هناك منتصر يتسم بالأخوة . ان اليهود الآن مهددون ويشعرون بالقلق ولذلك اغتبطت مدينة نابلس .

الا أن عرب نابلس وشرق القدس قد عاشوا عام ١٩٦٧ وبعد النصر الذى حققته اسرائيل فى حرب الأيام الستة الذى جعلها تسيطر على سيناء وغرب الأردن والجولان وعلى ۲۰۰,۰۰۰ر۱ عربى ، على فكرة تحقيق أملهم فورا . اذ اعتقد الجميع أن الاسرائيليين سيرحلون عن هذه الأراضى سريعا وذلك بواسطة ألاعيب السياسة الدولية . وكان هذا الاعتقاد مستبدا بشعورهم لدرجة ان مرضى عيادات التأمين الصحية فى الحصدا رفضوا تقييد أسمائهم فى قوائم انتظار طويلة الأجل خوفا من عدم استطاعتهم استكمال علاجهم عند جلاء الاسرائيليين . ثم حان وقت الآمال الضائعة واتخاذ القرارات العديدة ، وقت المناشدات والنصائح الدولية التى ظلت بلا فاعلية . جاء بعد ذلك وقت تحمل ثقل الوضع الراهن تدريجيا حول الفلسطينيين من شعب محتل الى سجناء بلا شخصية وبلا مستقبل وبلا مشروع ..

ثم تسلسلت سريعا أعمال المقاومة والأعمال الانتقامية التى كانت بمثابة مزايدة دامية بين عنف منظمة فتح وبين ردع اسرائيل القاسى وانتشر وضع القنابل فى الأتوبيسات ونسف المنازل ــ الا أن أعمال المقاومة لم تكن قوية فى نابلس ، ولكنها استمرت حتى عام ١٩٧٢ فى قطاع غزة حتى أعلن ديان عودة الهدوء داخل الأراضى المحتلة ، عندما قدم بيانا حسابيا عن هذه العمليات فأعلن عن قتل ١٨٥٦ ارهابيا على الحدود وداخل البلاد ، وعن القاء القبض على ٨٦٣ ، ووقوع ٢٤٢ عربيا ضحية الارهاب فى قطاع غزة وحده ..

وبفضل تسابق تسهال فى القيام بالأعمال الانتقامية « وقام بمساندته جيش الملك حسين العربى فى سبتمبر ١٩٧٠ » وبفضل دهاء ديان المرن الذى مزجه بأدنى « مستوى المعيشة » استطاعت اسرائيل ان تضيف الى جميع تأكيداتها الخيالية ، حقيقة رسمية فى عامى ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ . وكانت تلك الحقيقة هى هدية العام الجديد وتتمثل فى أن الهدوء والسعادة قد استتبا داخل الأراضى المحتلة . وكانت تتمثل أيضا فى التعايش السلمى الذى ختمته ألف مرة المقابلات العظيمة التى تمت بين ديان وأعيان فلسطين وكانت تتمثل أيضا فى شبح « الارهاب » الذى تم التآمر عليه أخيرا واعادة الوضع السياسى الى طبيعته ، وقد توجته انتخابات البلدية التى أجريت فى مارس ١٩٧٢ .

وكان بعضهم يكرر ان الحقيقة الرسمية التى اضافتها اسرائيل الى خيالها تتمثل ايضا فى اكتشاف اليهود والعرب بعضهم لبعض وفى اكتشاف التعايش بين المهزومين المعتدلين والمنتصرين المتسامحين . ولقد كانت تتمثل ايضا فى نابلس التى بدأت تتعلم العبرية . .

على أن هذا النجاح كان احد الانتصارات اللامعة لأساطير « روش هاشانا » التى اسفرت عما سنطلق عليه فيما بعد بافراط اسرائيل فى « التفاؤل » اذ نشرت الصحافة الاسرائيلية فى شهر سبتمبر عام ١٩٧٣ ــ وقبل اندلاع حرب يوم عيد الغفران بعشرة أيام ــ رواية أحد اليهود العائدين من رحلة طويلة داخل الأراضى المحتلة فقد انجذب بجمال « الأعمال المعمارية » وظروف السكان ، وكان سعيدا حين كتب عنهم يقول : ان جيراننا اناس مثلي ومثلك . ويجب علينا ان نتجه اليهم برغبة صادقة للتفاهم . والواقع أن العرب أكثر انفتاحا فى اتصالهم باليهود عندما تتاح لهم الفرصة وهم يظهرون أهمية أكبر من التى يظهرها اليهود فى مثل هذه اللقاءات (١) .

على أن صفة الظروف التى وصف بها السائح اليهودى السكان العرب لم تكن زائفة كما ان صدقهم كان حقيقيا . وكان دفاع احد رجال شارع اسرائيل يرمز الى الأمل الذى كان يراود اسرائيل عشية حرب ٦ من أكتوبر . ويمكن أن يضاف الى جميع الضمانات العسكرية والسياسية من أجل اقرار الوضع الراهن ، ضمان آخر ذو فاعلية سحرية وهو استسلام الفلسطينيين المحتلين ورفضهم الحكيم فى اتباع ياسر عرفات وبهذا بدا للجميع ان المحتلين نسوا المهانة وبرئوا من الشقاء .

وبهذا اعتبر الفرح الذى انتشر فى شوارع نابلس ــ حتى لو لم تقم المقاومة بأعمال انتقامية بداخلها ــ تحطيما لأسطورة اخرى من أساطير روش هنيانا . وفى الوقت الذى فقدت اسرائيل توازنها وهرول اليهود مذعورين واندفعوا نحو هوة الشك ، قدمت نابلس صورة لمدينة هادئة مثل صورة المياه الراكدة التى تم تعكيرها فجأة ولم تستطع القدس أن تنظر الى هذه الصورة دون أن تشعر بالخوف . وبذلك انقلبت الأسطورة رأسا على عقب .

وعندما قدمت الأراضى المحتلة « عمقا استراتيجيا » ؛ وعم شعور الأمن بداخلها ، وأوفدت عددا من الأيدى العاملة وهيأت سوقا لترويج صناعاتها ، فهى انما قامت تلك الأراضى ببث السم فى الروح الصهيونية وفى قلب اسرائيل . بل ان نابلس صنعت يهوديا جديدا هو اليهودى المذنب الذى يشعر

---

(١) جيروزاليم بوست ــ ١٠ سبتمبر ١٩٧٣ .

بعدم احقيته فى العودة . وقد غاصت اسرائيل تحت وطأة كل ذلك فى المستنقعات المحركة للقوة ويذكرنا فرح نابلس اليوم بهذه الحقيقة فاذا كانت مشكلة الأراضى المحتلة مشكلة قائمة بين اسرائيل والدول العربية ، فهى أيضا مشكلة قائمة بين اسرائيل ونفسها . واذا كانت الأسلحة تستطيع غدا أن تحل تلك المشكلة لصالح اليهود فى بادىء الأمر ، فان اسرائيل لن تستطيع أن تحل المشكلة أبدا بواسطة طلقات المدافع .. ان الهدوء شامل ولكن ..

لقد استطاعت الأراضى المحتلة ان تحقن الشباب اليهودى بسم بطىء يظهر مفعوله مؤخرا وهو الشعور بالذنب . ومنذ عام ١٩٦٧ لم يشعر شباب الصابرا المنتصرون بالفخر عندما كانوا يتجولون فى نابلس وغزة أو الناصرية وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ويرغمون الأطفال العرب الذين أصابهم الذعر أن يرفعوا أيديهم فوق رؤوسهم . وقد قال جندى يهودى « لم أعد احتمل هذا المنظر » لقد كان يستبد بى شعور فظيع عندما كان الأطفال الذين لم يتجاوزوا الرابعة أو الخامسة من عمرهم يرفعون أيديهم ويمشون فى ذعر . وكان هذا المنظر بالنسبة لى منظرا مشينا . اذ أن اطفالا فى عمر أولادى لا يمشون الا وقد رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم . وأنى اتذكر منظر الكهول وكبار السن الذين كانوا يحضرون الينا يستجدوا عطفنا ، لقد كان شعورا رهيبا . وكان من الفظاعة أن نشرح لنساء أنه ما من احد ينوى قتل ازواجهن . أن المنظر رهيب ولم أستطيع أن أنساه أبدا (١) .

ولم يظل الاسرائيليون غير عابئين بارتفاع عدد العمليات الانتقامية التى دفعت بهم تدريجيا الى الخروج على المبادىء الخلقية للصهيونية وقام تسهال بنسف مئات من المنازل التى اتهم سكانها بمساعدة الفدائيين ، وسد آبار المياه واحراق وتذرية محاصيل منطقة « عقصبة » التى تقع بالقرب من نابلس ، وفى فبراير عام ١٩٧٢ طرد بدو منطقة رفح جنوب غزة ، واستولى بالقوة على ثلاثمائة هكتار من الأراضى فى الجليل ، واغلاق متاجر العرب فى القدس وغزة بعد اتهامهم فى الاشتراك فى « الاضطرابات السياسية » ، وسحق منازل معسكرات « جبالية » وهى مأوى الارهابيين بواسطة البولدوزر على ان الحلقة الجهنمية لعمليات القمع القديمة التى فاقت جميع عمليات القمع التاريخية وكانت مبرراتها المحافظة على الأمن « والعمق الاستراتيجى » لم تجلب فقط على اسرائيل انتقاد العالم الغربى بل أسرعت فى عزل الدولة اليهودية ، ولم تزد فقط من حذر وكراهية الفلسطينيين لها ، بل اشاعت

---

(١) ذكرت هذه الفقرة فى سياسة لوهامين « حوار المقاتلين » وروايات شباب المعسكرات الذى نشر بعد حرب ١٩٦٧ ..

الشك في الرأى العام الاسرائيلى وهو الداء الذى لا دواء له وبخاصة فانها نشرت الصلف . . بينهم الا ان حق « استعمال السلاح الذى كانت اسرائيل تبثه فى الأطفال اليهود »، قد أثار ايضا بعد عام ١٩٦٧ تمردا وسخطا » وكان الكل يردد : « هل من حقنا القيام بمثل هذه الأعمال الانتقامية . . »

وانتشرت فى اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ المناقشات القديمة الخاصة بـ « حق استخدام القوة » وقوة هذا الحق وكانت تلك المناقشات خطيرة على الدولة العبرية اذ كان من نتائجها أن جعلت الشباب اليهودى يشك فى « الصهيونية » واذا ما قرات الأدب الاسرائيلى المعاصر وخاصة الأدب الذى نشر بعد عام ١٩٦٧ فستلاحظ أن « الشعور بالذنب المؤلم » يسيطر عليه ومن ابراهام ب يهوشافا الى اموس اوز ، ومن س ايزهار الى دان بن اموز ، ترى جميع الكتاب يتناولون هذا الشك الرهيب بالدراسة وقد اصبح اشد من المجادلات التى بين « الصقور » و « الحمائم » . وقد قال أحد الموظفين الكبار عام ١٩٦٩ : « لقد تمردت على قيام اسرائيل بهذه الاجراءات وأقولها فى صراحة لا اريد ان يسألنى ابنى يوما ما : لماذا لزمت الصمت يا أبى ازاء ذلك ؟ » (١)

بيد ان الابناء اخذوا يوجهون الأسئلة الى آبائهم منذ عام ١٩٦٧ وكان يمكن للمتحدثين الرسميين ووزراء المؤسسة الاسرائيلية ان يكرروا تلقائيا ان اعمال العنف ليست سوى رد على الأعمال الارهابية وانهم لا يمسون الأبرياء ولكن ما قيمة البقاء للاصلح ازاء الشك الذى ينبث بذوره ؟ وماذا يمثل جندى يهودى يرتدى الخوذة ويحمل سلاحه فى نظر طفل من نابلس ؟

وكان ديان يردد دائما للصحفيين « اعترفوا اذن بتحرر احتلالنا » . فلم يحدث فى أى دولة من دول العالم أن اتسم الاحتلال العسكرى بالتسامح — فى بعض الجوانب — وهل كان الجندى يبتسم وهو خلف مدفعه ؟ ان سكان الضفة الغربية لنهر الأردن الذين يبلغون ٠٠٠ر٧٥٠ نسمة فى وضع غريب منذ حرب عام ١٩٦٧ . اذ أنهم يقعون مباشرة تحت السيادة العسكرية الاسرائيلية على الرغم من أنهم مواطنون أردنيون وما زال نوابهم يتسلمون مرتباتهم من حكومة عمان . وما زالت الصحف والمعادية لاسرائيل (وأهمها صحيفتا القدس والشعب) تطبع فى القدس بتصريح من الحكومة اليهودية وعلى نهر الأردن تم فتح جسور اللنبى وداميا اللذين يقعان على الحدود ولم يتوقف أيضا مرور البضائع والأشخاص من ضفة الى أخرى . وبفضل هذا الوضع

---

(١) فيكتور سيجيلمان « الموند ديبلوماتيك » ٢ ديسمبر ١٩٦٩ .

استطاع عشرات الالاف من السياح العرب زيارة اسرائيل « ۱٥۰ر۰۰۰ سائح عام ۱۹۷۲ » والتقت العائلات التى تفرقت منذ حرب عام ۱۹٦۷ مدة قصيرة هى مدة الزيارة . واستمر غرب الأردن فى تصدير المواد التى كان يصدرها قبل انضمامه لاسرائيل . وكان الأردن يزود بـ ٦٥ ٪ من الخضروات و ٦۰ ٪ من الفاكهة و ۸۰ ٪ من الزيتون بل قام ايضا بترويج البضائع الاسرائيلية التى لا تحمل علامة مميزة الى الدول العربية ..

وياله من تناقض خارق ذلك الذى يتمثل فى الدولة العربية «الحرة» التى تقع فى قلب اسرائيل والتى تدين للدين الاسلامى ؟ ليس هذا تناقض كامل اذ أن الفلسطينيين يكررون عبارتهم : « ليس لدينا سوى حرية التعبير عن رغباتنا . إذ أن الكتابة والتحدث والقراءة والانصات والتنقل ليست ضربات بمعنى الكلمة اذا كانت السلطة العسكرية تسيطر عليها ، تراقبها وتحدها ويمكن أن تمحوها عند شعورها بأدنى شك تجاهها . وربما استطاعت العائلات التى تفرقت بعد الحرب أن تلتقى مثلا فى فترة الزيارة ولكنها لا تستطيع أن تجتمع الى الأبد . وقد اضطرت اسرائيل الى أن تحدد عدد العائدين « ٤۰ر۰۰۰ » طبقا للخطة التى اطلق عليها « اجتماع العائلات » ولم تعبأ بزيادة أعداد السكان العرب داخل الاراضى المحتلة . وفى نفس الوقت كانت القدس تشجع رحيل الفلسطينيين وهجرتهم ليس فقط الى الدول العربية ولكن أيضا الى كندا والولايات المتحدة أو أوربا الغربية وقد ذكرت الصحف الاسرائيلية أن عدد المهاجرين قد بلغ ۳۰ر۰۰۰ عشية حرب أكتوبر بسبب ارتفاع مستوى المعيشة هناك واتاحة الفرصة أمام أبنائهم لاستكمال دراستهم فى الخارج ومن جراء قيام اسرائيل بضم مزيد من الأراضى مما جعل المستقبل مغلقا أمام الأراضى المحتلة . بيد أن الهجرة لا تكفى لكى نجعل من فلسطين « أرضا بلا رجال » كما كانت تحكم الصهيونية . وبعد أن تخلصت اسرائيل من ۱ر۲٥۰ر۰۰۰ عربى ـ حتى فى حالة ضم الأراضى المحتلة ــ الذين لم تستطع أن تجعل منهم مواطنين حقيقيين « والا قضوا على الصفة اليهودية الدولة » سعت الحكومة الاسرائيلية جاهدة لأن تجعل من هؤلاء العرب السكان « الأحرار » والذين لا يتمتعون بالجنسية الأردنية المطلقة لما يشبه المراكز الاستراتيجية الاستعمارية .

الا أن الحرية السياسية كانت دائما غير متوافرة داخل الأراضى المحتلة ، وذلك لتحريم أى اجتماع يتم بين الاعيان والمثقفين الفلسطينيين والآن انهما منعت بذلك ظهور الزعامة الفلسطينية التى انتقد بها مائدة المفاوضات التي أجريت بين الملك حسين وياسر عرفات ..

وتقول المؤسسة الاسرائيلية ان الفلسطينيين اثروا اكثر مما كانوا عليه قبل الاحتلال « وهذا امر اكيد » اذ ان الناتج القومى الاجمالى قد تضاعف اربع مرات فى غرب الأردن وزاد عدد السيارات بنسبة ٥٠٪ ودخل التليفزيون كثيرا من منازل القدس العربية . الا يكفى كل هذا لأن يسعد السكان الذين كانوا يعيشون فى هذه المناطق قبل عام ١٩٦٧ فى صورة من التخلف والبطالة وفى بعض الأحيان فى فقر محكم ؟ انه جدل ضعيف اذ ان الاعتقاد الساذج هو أن ارتفاع مستوى المعيشة يمكن ان يكفى للتخفيف من مشاعر الكراهية العربية ، اعتقاد قديم مثل قدم الصهيونية ..

وكان تيودور هيرتزل يعتقد ان العرب سيبيعون حقهم فى تقرير المصير الوطنى وسيسمحون بدخول اليهود مقابل الارتفاع بمستوى معيشتهم وقد كتب رسالة فى ١١ مارس ١٨٩٩ يوسف القاضى عمدة القدس السابق وعضو البرلمان التركى يتحدث فيها عن العرب الذين سيقيمون فى دولة اسرائيل المقبلة فقال : « أن مستوى معيشتهم وثرواتهم الخاصة ستتضاعف بوصول اليهود » وهل تعتقد ان العربى الذى يملك أرضا أو منزلا فى فلسطين يساوى ما يقرب من ثلاث او أربعة آلاف فرنك سيتضايق عندما يرى قيمتها تتضاعف خمس مرات أو عشر ؟ وسيحدث ذلك عند دخول اليهود » .

وبعد انقضاء اثنين وسبعين عاما على تلك الرسالة هل حاييم بارليف يفكر فى الاخطاء المؤلمة التى وقع فيها مؤسسوا الصهيونية عندما ردد بدوره قائلا قبل اندلاع حرب يوم عيد الغفران بشهر « علينا أن نتذكر أن مستوى معيشة الفرد فى غرب الأردن قد ارتفع من ٦٩٧ الى ١٢١٨ جنيها اسرائيليا ما بين عام١٩٦٨ وعام ١٩٧١ وذلك بفضل المرتبات التى يتقاضاها آلاف العمال العرب فى اسرائيل ؟؟. وقد رد بنحاس سابير وزير العدل باسم « الحمائم » على هذه السذاجات فصرخ قائلا : « ان الذين يعتقدون أن تحسن مستوى المعيشة يمكن ان يعوضه الفرد أو يعوده الاستغناء عن آماله الوطنية لم يفهموا بعد الدروس المستمدة من التاريخ » .

بيد ان ثراء سكان الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ لا يعتبر فقط وهما خطيرا لاسرائيل . بل انه يتدرج فى اطار اقتصادى مجز ومن ثم فهو يقوم على أساس مدروس . ففى عام ١٩٧٣ كان ٦٥ر٠٠٠ عربى يعملون داخل اسرائيل كعمال بناء فى مراكز العمل وعاملين داخل المطاعم وكناسين للشوارع ويعملون داخل الكيبوتزات وبهذا حلوا مشكلة افتقار اسرائيل الى الأيدى العاملة التى كان يعانى منها الاقتصاد الاسرائيلى النامى . وقد كونوا فى بلدهم السابق روادا لطبقة كادحة مستسلمة ولكنها كانت بمثابة خطر على

المبادىء الصهيونية اذ ان العمال اليهود تركوا بعض الأعمال القذرة أو المؤلمة للعمال العرب ، وكان هؤلاء اليهود برفضون بالتالى العودة لمثل هذه الأعمال التى اتسمت بانها « أعمال عربية » وبذلك أمكن التحدث عن « تقريب الاعمال الثقيلة !؟ »

وكان لعملية الاندماج الاقتصادى للأراضى المحتلة ــ التى يشجعها ديان ــ مزايا أخرى . فعندما خلق قوة شراء جديدة ، سهل بذلك سيولة المنتجات اليهودية وزاد من نشاط أصحاب الصناعات الاسرائيلية وفى عام ١٩٧١ تم ترويج مصانع اسرائيل بمبلغ قيمته ٣٦٠ مليون فرنك داخل الأراضى المحتلة التى أصبحت العميل الثانى بعد الولايات المتحدة . وفى نفس الوقت كان فتح الجسور يسهل بدوره سيولة تصدير البضائع الاسرائيلية الى الخارج وبخاصة المنتجات الزراعية لغرب الأردن التى كان فى استطاعتها منافسة زراعة المستعمرات الاسرائيلية بالاضافة الى الأيدى العاملة التى كانت تقدمها الأراضى المحتلة ، وكذلك قوة الشراء وأداء الضرائب فقد قدمت تلك مع الأيدى العاملة وحقول بترول سيناء وبفضل كل ذلك أمكن القضاء على العجز الذى كانت تعانى منه « ميزانية الاحتلال » .

وقد كتب جون كيمش وهو أحد المتخصصين فى شئون الشرق الاوسط عشية حرب عيد الغفران يقول : « لم يقرر ديان أو آلون أو سابير مسلك اسرائيل تجاه الأراضى المحتلة أو التسوية السلمية ، بل قررته متطلبات اسرائيل الاقتصادية التى قام عليها الازدهار الاقتصادى لما بعد الحرب . ونتيجة لذلك حمس مثقفو غرب الأردن الشباب امام متحدثيهم اليهود بقدر مماثل من السخرية والأسى بقولهم : « انكم تستغلون الأيدى العاملة العربية الزهيدة الثمن وتغدقون علينا بمنتجاتكم ، فكيف يمكننا أن نصف ذلك من الناحية العلمية ؟ استعمارا أليس كذلك ؟ »

ولقد أصبحت اسرائيل تقوم بدور الشرطى ازاء فدائيى غزة ، كما أصبحت تستغل أبناء الضفة الغربية لنهر الأردن متبعة فى ذلك مسلكا لا يمكن أن نصفه الا بأنه مسلك اضطرارى ، أن الانحراف الراسمالى فى المثالية الصهيونية والذى زاد من خطورته امتلاك اسرائيل عام ١٩٦٧ للأراضى المحتلة اثار فى البلاد جدلاً وقلقا معنويا مثلما اثار من قبل القمع الذى استخدمه اليهود فى عملياتهم التخريبية والانتقامية وعندما قاموا بدور السجانين فى اطلال غزة .

وقد سأل الكاتب أموزارز (١) الكاتب الشاب رئيسة وزراء اسرائيل فى

---

(١) ٢٢ مارس ١٩٧٣ أثناء مناقشة اجرتها مع سكان المستعمرات اليساريين ..

أحد ايام ١٩٧٢ : « ما هى احلامك يا جولدا حين تقارنين جو المثالية الذى ساد ابان شبابك بالواقع الحالى » .

قالت له وهى تتنهد « ليس لدى الوقت لكى أحكى اذ ان رنين التليفون يمنعنى من ذلك لا زال الطريق امامنا طويلا لكى نحقق مثلنا العليا » .

ومن جانب آخر . فقد زادت الأراضى المحتلة من هذا البعد . وعندما اتخذ امتلاك اسرائيل المؤقت صورة « الوضع القائم » الذى لم توافق على انهائه الآن فى مقابل سلام بعيد « وفى ظل ظروف تختلف تبعا لمواقف كل من « الحمائم » المتطرفين (و « الصقور » المتطرفين . قامت اسرائيل بتصرفات غامضة الى جانب بعض الخلافات المشبوهة . وهكذا اتخذ الضم التدريجى حتما صورا ملتوية وقد رأى الشباب من المناصرين لحزب « الماباى » أو حزب « السماه » : عن سذاجة وأن هذا الالتواء لا يتمشى مع اسرائيل) . .

والمثال الواضح على ذلك هو شراء الأراضى . فالديبلوماسية العالمية والقوانين السكانية تحرم ضم الأراضى بالقوة لاقامة اسرائيل الكبرى على النحو الذى كان ينشده اليمين . . ترى هل كان محرما شراء هذه الأراضى ؟ وقد صرح أحد الخبراء الاسرائيليين فى يونيو ١٩٧٣ بقوله : « انه بقدر من المال يمكننا اليوم شراء ثلثى الضفة الغربية « لنهر الأردن » وماذا بعد ذلك ؟ »

والواقع ان شراء الأراضى المحتلة كان محرما من حيث المبدأ منذ ١٨ من يونيو ١٩٦٧ بمقتضى قرار من الجنرال أوزيناركيس الحاكم العسكرى للضفة الغربية فى ذلك الحين . ولم يصرح بشراء الأراضى الا لجهاز عام انشأته حركة « كيرين كابميت ليزرائيل الصهيونية » . وقد قام هذا الجهاز بشراء نحو ١٥٠٠٠ر هكتار من الأراضى للاسراع بعملية « تهويد » بعض المناطق . وفى يوليو ١٩٧٣ دفع هذا الجهاز ١٠٠٠ر٠٠٠ر جنيه لقبائل البدو مقابل أشجار النخيل التى كانت تستغلها فى منطقة « ذهب الكوبيا « بين ايلات وشرم الشيخ والتى قامت بتحويلها الى مؤسسات زراعية وسياحية .

والى جانب هذا زادت عمليات الشراء فى الخفاء بواسطة الاسماء المستعارة والموثقين المتواطئين . وبهذه الطريقة استطاع اليهود فى الضفة الغربية أن يستحوذوا على ٥٠٠ هكتار « فقد أغرى الربح الفلاحين العرب المعتبرين من الناحية القانونية مواطنين أردنيين وذلك بالرغم من القوانين الأردنية الجديدة التى تقضى بعقوبة الاعدام لمثل هذه الصفقات (١) وكان من بين هؤلاء المشترين

---

(١) صدرت هذه الفتوى يوم ٥ ابريل عام ١٩٧٣ فى عمان بتوقيع الشيخ محمد عبد الشرتى . مفتى المملكة : ان كل فرد يبيع للاسرائيليين أى جزء من أرض فلسطين المحتلة سوف يعتبر خائنا لدينه وبلده وامته .

الاسرائيليين وراء الأسماء المستعارة ، والذى أباح قرار ١٩٦٧ معاقبتهم بالسجن لمدة خمس سنوات ، أشخاص أصبحوا اليوم من كبار الضباط وبعض نواب الكنيست الاسرائيلى بل وبعض الوزراء .. « فما هى احلامك يا جولدا » .

وفى ٨ من ابريل سنة ١٩٧٣ طالب موشى ديان بمنتهى الصراحة الغاء هذا القانون وتشريع هذه الصفقات الأمر الذى كان بمثابة مرحلة أخرى نحو الضم . غير أن الحكومة الاسرائيلية رفضت فى بادىء الأمر تحت ضغط الرأى العام الأمريكى ثم ادعت فى النهاية بصفة جزئية فى شهر أغسطس مستقلة بذلك غموض مشروع جاليلى ..

ولقد اتسمت اقامة المستعمرات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة التى احتلت أخيرا والتى تعد صورة رسمية « للظلم التدريجى » اتسمت هى الأخرى بالغموض . وقد تمت أول عملية استيطان فوق هضبة الجولان على غير علم السلطات التى لم تصدق عليها الا بعد فترة وبنفس الطريقة أقامت مجموعة من الشباب المتدين اليهودى فى منطقة «كفار أتزيون بالقرب من بيت لحم مستعمرة أقامتها بصورة غير شرعية فى بادىء الأمر . كما احتل بعض اليهود المغتصبين فى « كيباض ابا » بالقرب من الجليل أرضا عربية أقامت عليها الحكومة الاسرائيلية فيما بعد مدينة تضم ٢٥٠ منزلا ووافقت على اقامة معبد فى مسجد الحرام الابراهيمى » كما تم بصفة شرعية فى بداية الأمر اقامة مستعمرة فى منطقة ذهب على خليج العقبة ..

وقد أقيمت الى جانب هذه المستعمرات «التلقائية» مستعمرات مدنية تتسم بالصفة الرسمية ومستعمرات عسكرية . وهكذا كان هناك فى الأراضى المحتلة فى عشية يوم الغفران ٤٢ مؤسسة اسرائيلية تضم ٤٢٠٠ نسمة منها ١٥ فوق هضبة الجولان و٣ فى جنوب سيناء و٧ فى منطقة غزة و١٧ فى الضفة الغربية — وفى اغسطس ١٩٧٣ قضى مشروع جاليلى باقامة ٣٤ مستعمرة اسرائيلية جديدة وتشييد مدينة ياميت جنوب غزة واقامة منطقة صناعية فى مدينة القدس . وكانت عملية الضم الغامضة للأراضى المحتلة فى نظر الفلسطينيين عملية مخططة تخطيطا جيدا . ومنذ ٢٧ مارس عام ١٩٧٢ صرح اسرائيل جاليلى الوزير الذى له نفوذ وان كان بلا وزارة « ان غزة تعد جزءا لا يتجزأ من مدينة القدس » . وقد قال هذا بهدوء مفاجىء جلب على الحكومة الاسرائيلية نقدا من جانب صحيفة هاآرتس .. الاسرائيلية حيث قالت « أن عدم خوف الحكومة من اثارة الدهشة فى الكنيست باعلان ضم غزة يدل على انه الى اى مدى استغلت الحكومة السلطة التنفيذية لحالة الحرب مما يضر بالبرلمان » ..

وهكذا مضى وقت طويل على التصريحات الرسمية التى أدلى بها ليفى أشكول وموشى ديان يوم ٥ من يونيو ١٩٦٧ حيث أكدا أن اسرائيل لا تتطلع الى غزو الأراضى ، وانها لا تريد الا أبعاد الخطر .

ان الأسلوب الملتوى الذى انتهجته حكومة القدس سواء بالتصريح أو .. بالاشارة فى تطبيق سياسة « الأمر الواقع » فى الاراضى لم تؤثر فحسب على فرص الدبلوماسية فى الشرق الأوسط بل انها اثرت على الاخلاقيات على جزء من الشباب الاسرائيلى . اذ ان السياسة التى انتهجت فى الأراضى المحتلة لها صلاتها بالأزمة الأخلاقية التى سادت البلاد عام ١٩٧٠ وفى نهاية عام ١٩٧٢ فان ٧٢٪ من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عاما وتسعة وعشرين عاما كانوا يعتقدون أنه لن يكون هناك سلام الا بحل المشكلة الفلسطينية وقد اكتشف الشباب الاسرائيلى الذين تحولوا الى سجانين ثم استغلاليين فى الأراضى المحتلة اكتشفوا فى النهاية انهم غزاة الأمر الذى يعد خروجا على مبادىء احدى النظريات الصهيونية . ولقد اشارت الصحف الاسرائيلية الى الهدوء الغريب الذى ساد طول مدة الحرب فى هذه الأراضى . ولكن ما هو الوضع ؟ وقد أوضح هذه الحقيقة شعور نابلس بالفرحة فى اليوم السادس من الحرب وابتهاج الفلسطينيين فى هذا اليوم من « اسبوع السكوت » : ان الشك هو أول ثمار تجنيه اسرائيل فى الأراضى التى ضمتها . اذ انها لا يمكن أن تستمر فى الشك وهى تسيطر على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ من الرهائن « داخل بلادها » .

فحتى يوم ٦ من اكتوبر عام ١٩٧٣ كان سكان الضفة الغربية لنهر الأردن والقطاع الشرقى لمدينة القدس أو غزة يتصرفون بصورة تلقائية كالمنومين يعيشون اليوم بيومه دون التفكير فى الزمن . وما الذى كان يمكن أن يأتى به الزمن غير تزايد المهام الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة على نحو لا يمكن مقاومته واقامة المستعمرات اليهودية على مرتفعات القدس القديمة .. وبعد فقدان الفلسطينيين المحتلين الأمل ويأسهم من وضع قائم لا ينتهى ، بدوا وكأنهم تخلوا عن انتهاج سياسة فى حياتهم اليومية وعلى الرغم من الكراهية التى يشعر بها الفلسطينيون تجاه الملك حسين والتى انتشرت فى نابلس واليهودية منذ شهر سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠ ، فان الأعيان الموالين للاردن وأعضاء المجلس الاسلامى بالقدس — مثل أنور نصيبة والخطيب — قد أوضحوا موقفهم بصفة رسمية أما عن الصحف العربية والمنشورات « السرية » المعادية لاسرائيل فلم تكن تعبر الآن عن أمانيها وأحلامها . ولم تكن الاحتجاجات الدورية على القمع أو القبض على الشباب العربى لتداوى المهانة الشديدة . وكانت هناك فى القدس التى هدمها اليهود لاعادة بنائها

وتنسيقها منذ عام ١٩٦٧ بالأسمنت المسلح ، دلالات تزيد من تفاؤل المتفائلين اذ كانت المدينة اليهودية فى أيام السبت تبدو وكأنها تنصب فى المدينة العربية التى لا تغلق أبواب متاجرها وكانت المطاعم العربية ملتقى البورجوازيين اليهود وبدت المدينتان اللتان لم يكن يفصل بينهما سوى حدود غير مرئية وكأنهما تلتقيان وان لم تندمجان كلية . وهكذا تكونت حركات من الشباب واجهزة ثقافية يهودية وعربية مشتركة . فقد ارتدت بعض الفلسطينيات الشابات اللائى اكتشفن حرية العادات الاسرائيلية واللاتى اثرن على نهج ابائهن المينى جيب وقد اكدت بعض عشرات الزيجات المشتركة « التى لم تعترف بها الديانة الاسرائيلية » هذه اللقاءات . فأين هو السلام ؟ وكان هناك نضال واحد مستمر فى وضح النهار وهو الخاص بغريزة اللقاء والمتعلق بقوانين التاريخ الآلية . زيادة النسل .. وفى الوقت الذى أعلنت فيه السلطات الاسرائيلية بزهو التزايد المتوالى فى عدد السكان اليهود بالقدس « ١٣٥٫٠٠٠ عام ١٩٦٧ و ٢٢٢٫٠٠٠ عام ١٩٧٣ » اكد الشباب الفلسطينيون للزوار اليهود أن سلاحنا الوحيد ضدكم هو الأطفال ولدينا عدد كبير منهم اذ اننا نكافح سرعة تزايدكم .. هناك ما يشبه نوعا من الغضب المؤسف فى هذه المزايدة . ومنذ ٦ أيام غير الهجوم العربى على الحدود الاسرائيلية الموقف فقد كان هناك وضعان متناقضان داخل حدود اسرائيل بين عام ١٩٦٧ .. يسيران جنبا الى جنب فقد التقى الشعور بالفرحة واليأس مثلما يلتقى سائلان . وبدأ الفلسطينيون الذين لم يكونوا يتصورون بعد الموقف يحتفلون فى الخفاء ب ١١ من أكتوبر عام ١٩٧٣ وهو اليوم يوم نكاية اليهود . وهل هناك صور اوضح لمشكلة الأراضى المحتلة ؟

وعندما عبرت القوات الاسرائيلية فى نابلس للمركز فى الجبهة الثالثة التى هدد حسين بفتحها على نهر الأردن ، التقيت بالاطفال العرب الذين رفعوا ايديهم مهددين بجرأة لم تكن لترى من قبل . أن الموقف الذى سبق ان تعرضت له اسرائيل يتكرر ، والوقت أصبح ملائما لكى نتبين ذلك ان .. اسرائيل قد تغيرت منذ عام ١٩٦٧ و ...

الفصل الســابع

الارث

« لن يحكم العالم على دولة اسرائيل استنادا الى ثروتها او جيشها او تكنولوجيتها ولكن على أســاس صورتها الأدبية وقيمتها الانسانية » .

دافيد بن جوريون ـ ١٩٦٤

١٢ من اكتوبر .. لقد مر اكثر من ستة أيام ! ان الحرب لا تتقدم وقد تمت تعبئة المؤخرة التى تشيد الصحف « بروحها المعنوية فى كافة المحن » .. وقد طرح قرض قومى فى التاسع من أكتوبر من أجل تغطية النفقات العسكرية التى تقدر قيمتها بمليار ليرة اسرائيلية يوميا (١) .. وبدات اسرائيل تتقوقع أمام المخاطر وتسكت عن خلافاتها وتضرب صفحا عن مطالبها .. وقال أحد قادة الهستدروت ـ اتحاد نقابات العمال فى اسرائيل ـ التى لاتتساهل فى العادة مع بنحاس سابير « ان الاسرائيليين سيقبلون اليوم اية ضرائب يقترح وزير المالية فرضها » .

والتف أفراد العائلات الاسرائيلية حول أجهزة الراديو التى تزايدالاقبال عليها واخذوا يترقبون كل يوم « اشارة » تجىء من الجبهة ووزعت ثلاثة ملايين كارت بوستال على الجنود .. وأنشات خطوط تليفونية خاصة فى وحدات القتال .. كما كان يقدم الاوركسترا الوطنى لمحبى الموسيقى حفلات موسيقية مجانية فى المدن الكبرى .. وفى تل أبيب خلت الشواطىء من روادها وبدا حى ديز نجوف مهجورا تماما .. وفى بيت سوكولوث امتزجت الحرب بروتين البيانات الغامضة والانباء الموجزة جدا .. ان « حركة الدان » تتطلب التفكير .

---

(١) تبلغ نفقات الحرب الاجمالية اربعة مليارات من الدولارات أى ٨٠ ٪ من ميزانيــة اسرائيل السنوية و ٥٠ ٪ من صافى انتاجها القومى .

اذن لا بد من الانتظار ..

وتصبح الشكوك أمرا حتميا .. فهل يعود الوضع كما كان من قبل ؟ وهل تشبه مؤخرة الجيش التى حاربت « فى المرة الأخيرة » .. ان التعبئة الوطنية لاسرائيل لا تبدو كامله كما كانت فى تمام ١٩٦٧ ولا متماسكة بالقدر نفسـه .

وكان الوحدة المقدسة قد بدات فى التراخى بصورة غريبة .. ووسط انقاض « حقائق امس الاول وركام الأمور التى كانت يقينا وانهارت بفعل » العرب الجدد لم تعد اسرائيل ترى الموقف بوضوح .. وقد بدات بوادر الغضب تمتزج بجميع الالتزامات الوطنية التى تتطلبها حالة الحرب .. كما بدات تشوب التطوع الوطنى عبارات اللوم والمؤاخذة التى يعيد اصحابها إجترارها فى شىء من نفاذ الصبر وقد بدأ نوع من الشعور بالاثم ينتشر ويسود الشوارع وكان ينتظر نهاية المعارك لكى ينفجر بالنحيب .. ويقول الاسرائيليون .. كلنا مذنبون .

لقد تغيرت اسرائيل .. بعد مرور ستة أعوام ..

فقد ظهرت بين حرب واخرى فى هذا المجتمع تناقضات عديدة لن تكفى المباغتات الحربية « للهجوم المضاد » ولا المخاطر العسكرية فى تبديدها .. لا ان الوضع له يعد كما كان من قبل .. فى عام ١٩٦٧ حيث أدت الحرب الى راب الصدع فى دولة كانت تعانى من أزمة اقتصادية .. لقد تجردت اسرائيل منذ ثلاثة أيام من « انتصاراتها » كافة وبدت عارية تماما وأصبحت معرضة للخطر .. لقد كانت هذه أسوأ ساعات الحرب . فقد اضيف الى القلق عزلة كبيرة : ان قطع العلاقات الدبلوماسية يتوالى على مر الأيام وكانت تل ابيب ترى العالم كله يغتبط أمام الانتصارات العربية .. وفى الصحف كان القراء الذين يشعرون بالمرارة يأخذون على أجهزة الدعاية الاسرائيلية عدم فعاليتها .. وقال أحد القراء « اذا كنا لا نتمتع بحب العالم فان ذلك يرجع الى اننا لم نكن نعنى بدعايتنا » .

ولكن هل يعتقد الاسرائيليون ذلك بالفعل ؟ ان اسرائيل التى كانت معلقة فى هذ اليوم بين المفاجأة المريرة التى واجهتها بالأمس « والانتقام الرائع » الذى تم فى الغد وقد أخذت تعيد حساباتها .. ان هذا التقدير المتشائم ليس « تسلية » بفكر أو حساب انتخابى لقد أصبح شكا هائلا يجثم على اسرائيل لينفجر بعد الحرب .

هل كنا أثرياء أكثر مما يلزم ؟

كان هذا هو الشك الأول الذى راود الاسرائيليين .. ففيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ أدى الاقتصاد الذى تم تنشيطه « على الطريقة اليلبانية » الى القاء اسرائيل فى عالم اخر .. عالم الرفاهية والمعرفة والملاهى الليلية فى القدس والمطاعم الفاخرة فى حيفا . عالم الفعالية والتسويق وقد عكست الاحصائيات هذا التحول بلغتها الخاصة فبلغ صافى الانتاج القومى للفرد الواحد ١٨٧٠ دولارا وهو رقم مقارب لصافى الانتاج القومى للفرد فى بريطانيا واكبر من الرقم نفسه فى ايطاليا . وتضاعفت ملكية الثروات العينية خلال السنوات الثلاث الأخيرة .. ومن بين كل عشر عائلات اسرائيلية أصبحت سبع منها تملك الثلاجة الكهربائية وثمان يمتلكون جهاز البوتاجاز وخمسة يملكون الغسالة الكهربائية . وقد تطورت الصناعات وتنوعت مع نمو قطاع خاص يتسم بالجراة ، وفى عام ١٩٧٣ حققت اسرائيل التى يبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين نسمة نفس صافى الأنتاج القومى الذى حققته مصر بسكانها البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين مليونا كما بلغت قيمة تجارتها الخارجية رقما مقاربا لقيمة التجارة الخارجية للهند التى يبلغ عدد سكانها خمسمائة مليون نسمة .

وثمة ظاهرة أخرى ساعدت على هذا الانفجار الاقتصادى الا وهى تدفق رؤوس الأموال الخاصة التى جاءت أساسا من يهود الشتات أثر حرب الأيام الستة فقد حصلت الدولة اليهودية خلال خمسة وعشرين عاما على ١١ مليارا من الدولارات من الخارج ويعنى ذلك المبلغ ان كل مواطن يهودى قد حصل على « هدية » قيمتها ١٤٠٠ دولار سنويا وهو المبلغ الذى يملكه الفرد المصرى أو السورى يعيش عليه طوال العام بيد أن المساعدات الخارجية التى زادت قد تغيرت طبيعتها فى الوقت نفسه فمن عام ١٩٦٧ لم يعد يهود الشتات يكتفون بتقديم الأموال الكثيرة من اجل اسرائيل ولكنهم بداوا فى استثمار رؤوس أموالهم فى اسرائيل على أمل أن يحققوا ربحا .. لقد أثمرت الصهيونية .

وقد ترتب على انطلاق القطاع « الرأسمالى » الذى كان قد لقى تشجيعا من الاشتراكيين الديمقراطيين منذ عام ١٩٤٨ وان نشأت طبقة من رجال الأعمال وأصحاب الصناعات والأثرياء الجدد وشكلت هذه الطبقة مؤسسة اقتصادية جابهت المؤسسة القديمة وكانت تملى عليها سياستها فى بعض الأحيان وقد أحدثت هذه المؤسسة الجديدة تغييرا كبيرا فى العالم العبرى فقد أشاعت مدينة متوحشة بما تحدثه من تلوث وقد تشوهت صورة اسرائيل حينما أقيمت فيها مبان بالأسمنت المسلح ومصانع ومنشآت سكنية والأهم

من ذلك ان الراسمالية ادخلت قيمـا جديدة وكسرت الاطار الصهيوني التقليدى فقد جلبت هذه الرأسمالية الميل الجامح الى الاستهلاك العادى والتنافس الاجتماعي واغراءات « دلائل الشراء » .. هكذا نشأت حياة على الطريقة الأمريكية تغتفر الى الرقة وتسودها الخشونة لتحل محل اشتراكية الأمس التى كانت تحقق المساواة .

وكان بنحاس سابير يتحدث عن « الشراهة المسعورة » للاسرائيليين فى عام ١٩٧٣ .

وكان البروفسير الجليل افرايين كاشالسكى رئيس الدولة يقـول فى كثير من الأحيان وهو يتنفس الصعداء ان الذى يستثمر أمواله عندنا يصبح شخصية هامة ان الجهود التى تبذل من أجل اقامة دولة اسرائيل ستظل عديمة القيمة اذا ما اكتفينا بجيش قوى وصـناعة متقدمة دون أن تحقق العودة الى القيم الثقافية والروحية والمعنوية » .

فهل كان تيودور هرتزل ليسعد ويتسم اذا ما شاهد الشوارع الجديدة فى تل ابيب هذه الشوارع تظهر قسوة الحياة اليومية وخشية الظهور بمظهر الضعيف أو عدم القيام بالواجب الكامل ثم التدافع من أجل الوصول الى مكان خال فى سيارة ركاب أو فى الوزارة . هل هذه هى اسرائيل ؟ أن هذا الوضع يجعلنا نتفهم خيبة أمل المهاجرين الذين يصطدمون منذ ساعة وصولهم الى المطار بظاهرة « كل لنفسـه » الظاهرة الكئيبة التى سادت اسرائيل أثر حرب سنة ١٩٦٧ .. ويبدو أن الاسرائيلى يزداد تشددا كلما ازداد ثراء . ان الشك الأول لعام ١٩٧٣ لا يمكن تفسيره : انه يخيم على ديزنجوت .

ان هذه المستوطنة نفسها كانت الرمز الدولى للدولة الأولى لم تفلت من ظاهرة الانكماش . ان المائتين والأربعين مستوطنة لا تمثل الآن سوى ٢ر٨ ٪ من السكان وهى تتجه الى الصناعة على حساب الزراعة كما تطور نمط الحياة بصورة كبيرة فى هذه المستوطنات .. أن المجموعات الأساسية القديمة التى كانت متلاحمة فى ظل مشاعر الأخوة البسيطة تشكل فى الوقت الراهن ما يشبه الطبقة المتوسطة الهامشية التى تتطور بعيدا عن العالم وبالتنافس مع سائر أجزاء اسرائيل (حينما يتعلق الأمر على سبيل المثال بزيادة أسعار المنتجات الزراعية .. ان المستوطنة فى عام ١٩٧٣ تبدو فى أغلب الأحوال بمثابة شركة حديثة تصدر عربات البلدوزر أو العلب المحفوظة وتحقق أرباحا وتستخدم الايدى العاملة العربية فى الأعمال الكبيرة .

أن هذا الانحدار للهدف الاسمى للمستوطنات و « الفضيحة الايديولوجية للعاملين العرب ، الذين ثارت حولهما مجادلات متعددة منذ عام ١٩٦٧ قـد

شملها اطار القلق المعنوى للصهاينة القدامى الذين عاصروا فترة ما قبل الاستقلال والكتاب الشباب وأدباء اليسار الجديد وقد كتب يهو شوايار يوسف يقول : « أن الشعب الذى يتالف من أرباب العمال يعد شعبا مستأصلا اما الأرض فهى ملك من يعمل فيها » واكتشف ناحوم بارنيا المحرر الشاب فى الهستدروت « صهيونية طفيلية » جديدة وصاح قائلا ان اكثر ما اخشاه هو انه بعد أن نصبح فى نهاية الأمر اغنياء واقوياء وقد طورنا العلم وشكلنا نكتشف اننا قد ضللنا الطريق » وكتب أموس أوز رواية رائعة بعنوان ربما فى مكان آخر صور فيها ازمة المستوطنات حيث جاء عصر الورثة ليحل محل عصر المتطوعين » .

انه الشك وايضا الظلم الذى عاد من جديد ..

ذلك انه اذا كان المجتمع الاسرائيلى قد اثرى فقد انقسم ايضا على نفسه ان الوفرة الجديدة لم تجلب الفائدة للجميع وقد تفاقمت مظاهر عدم المساواة الاجتماعية اثر حرب الأيام الستة وبينما بلغ عدد المليونيريين الاسرائيليين الفى شخص فى عام ١٩٧٣ وبدات اقلية بورجوازية تستقر وسط الرخاء السائد فى منطقة جبل الكارمل أوريخافيا كان قطاع كامل من الشعب مازال يقاوم بشدة ارتفاع الأسعار ويعانى من الضرائب التى تدفع من اجل الحرب وكان شعور القطاعات المعوزة بالظلم يواكبه الألم لأن هذه الثروات التى تتجمع بسرعة والتى تكونت ارتكازا الى النصر العسكرى تصاحبها فى اغلب الاحوال الفضائح ومناورات التدريب ففى نوفمبر ١٩٧١ كان مردخاى أدموند مدير شركة بترول سيناء قد اتهم بأنه حصل على أرباح غير مشروعة واختلس أموال الشركة وقد أحدثت هذه القضية ضجة كبيرة وتعد تلك القضية مجرد مثال.

وقد ذابت الاخوة التى سادت المجتمع اليهودى قبل انشاء دولة اسرائيل « بيشوف » فى مجتمع أكثر طبقية وانانية ظهر به صراع الطبقات والتوتر العنصرى ذلك لأن عدم المساواة الاجتماعية فى اسرائيل تختلط فى معظم الاحيان مع الفارق « العرقى » ويرى بعضهم انها تعد دليلا على فشل بوتقة الانصهار الصهيونية .. ان اسرائيل الثانية « ليست فقيرة فحسب ولكنها سوداء أيضـــا » .

ان الاوربيين الاشكينازيين يطلقون على اليهود الشرقيين أو السيفاراديم اسم « شاور » أى الزنوج .. ويمثل اليهود الشرقيون ٦٠٪ من الشعب الاسرائيليين وسواء أكانوا قد جاءوا من العراق أو من اليمن أو من شمال افريقيا أو من سوريا فقد جلبوا معهم العبء الأصلى للتخلف ، والثقافة تعد أقرب للعالم العربى منها الى التكنولوجيا الغربيـــة .. وفى دولة اسرائيل

المتطوره حيث التكنولوجيا والصناعة التى تسيطر عليها اساسا نخبة من اليهود الاشكينازى يشكل اليهود الشرقيين « مع العرب الاسرائيليين » طبقة بروليتارية ضخمة . ويبلغ عدد اليهود الشرقيين من بين طلبة الجامعة ٨٪ بالكاد وتبلغ نسبة الرسوب فى شهادة البكالوريا ٤٨٪ بين الشرقيين مقابل ٦٥٪ بين الاشكيناز وتتزاحم العائلات الشرقية — التى غالبا ما يكون عدد افرادها كبيرا — فى الأحياء الفقيرة فى القدس أو تل أبيب أو تقطن فى أحسن الأحوال فى المبانى التى اقيمت على الطراز الاوروبى وتعيش ٣٥٪ من العائلات الشرقيه فى شقة سكنية بها غرفة لكل ثلاثة من أفراد العائلة (١) .

ويضاف الى ذلك الاحتقار العنصرى وهو يبدو واضحا فى اسرائيل اكثر من اى مكان آخر . البعض لا يخفون أبدا شعورا بالتفوق حيال الشرقيين سواء كانوا من الزنوج أو المغاربة « بالسكين » (وذلك اشارة الى أوائل من ساندوا اسرائيل فى عام ١٩٤٩ وكان من أصل مغربى) وقد أبدت جولدا مائير نفسها نوعا من التأثر حينما أدلت ذات يوم بحديث قالت فيه : ان اليهود الشرقيين « كانوا يعيشون فى أكواخ فى بلادهم الأصلية وانهم كانوا يجهلون استخدام ملاءات الأسرة والحمامات » وقد جاءها رد حانق من أحد اليهود الشرقيين وهو صامويل زربيب الذى قال لها « اذا كانت ميزانية التعليم قد زادت بالمعدل الذى به ميزانية الدفاع لزاد عدد الطلبة من اليهود الشرقيين فى الجامعة عن نسبة ٨٪ ولقل عدد الفهود السود فى شوارع القدس » (لوموند فى ١٩ يناير ١٩٧١)

وتعد مشكلة اليهود الشرقيين قديمة قدم اسرائيل وقد اكتسبت بعدا جديدا حينما شنت مجموعة من الشبان اليهود المغاربة حركة معارضة عنيفة فى عام ١٩٧١ ، اطلقوا عليها اسم « الفهود السود » وتفتقر هذه الحركة الى برنامج سياسى أو ايديولوجية محددة ويرأسها شاب من اوجدا يدعى سعديا مارشيانو .. وكان جميع أعضاء هذه الحركة يحتجون أساسا على ظروف معيشتهم وسيطرة الاشكينازى فى اسرائيل وبعد مرور بضعة أيام على المظاهرة الأولى التى قام بها الفهود السود افاق الكنيست فجأة واصدرت قرارا اقر فيه بخطورة الموقف وطالب الحكومة بوضع حد « فى خلال عشر سنوات » لمظاهر التفرقة العرقية فى اسرائيل عشر سنوات .

---

(١) لقد اوضحت الاحصائيات السنوية فى اسرائيل هذا التباين فى الدخول بين الشرقيين والأوربيين ، اذ يكسب العامل الاشكينازى ١٧٨٥٠ فرنكا شهريا ، بينما يحصل زميله الشرقى على ١٢٢٧٠ فرنكا شهريا .

وتفاقمت الأمور حينما القى البوليس القبض فى الثانى من مارس ١٩٧١ على ثلاثة عشر من اعضاء حركة الفهود السود ، وقد اثار هذا العمل مظاهرات جديدة اسفرت فى الثامن عشر من مايو سنة ١٩٧١ عن اضطراب ضيق النطاق وقعت خلاله مواجهة بين مئات من السفارديم والشباب الأعضاء فى ماتزين وسياه (١) ـ اليسار الاسرائيلى الجديد ـ وبين قوات البوليس فى وسط القدس واستغرقت هذه المواجهة خمس ساعات .. واعتبارا من هذا اليوم لم تكف الاضطرابات بين الشبان الشرقيين الذين رفضوا أن « تستردهم » الأحزاب السياسية وقاموا بالعديد من المسيرات ، والاجتماعات بل وذهبوا الى حد احتلال مساكن جديدة مخصصة للمهاجرين السوفييت .

وقد بدات حركة الفهود السود كجماعة مثيرة للاضطرابات وما لبثت فى عام ١٩٧٣ أن اصبحت قوة لا يستهان بها .. وفى الثانى عشر من سبتمبر حصلت هذه الحركة على ٢٪ من مجموع الأصوات فى الهستدروت وبدات الصحف الاسرائيلية تتحدث عن « ثغرة » على المسرح السياسى .

وبفضل هذه الحركة اصبحت مسألة اندماج « اسرائيل الثانية » المشكلة الداخلية رقم واحد .. وهى لا تعد مشكلة اقتصادية واجتماعية فحسب .. ومن خلال مطالب اليهود الشرقيين تظهر شيئا فشيئا الرغبة فى الحفاظ على نوع من الشخصية الثقافية .

أن « الفهود » لا يتكيفون من الأساليب الغربية والفنون الصناعية لليهود الأوربيين ، وكان احد اليهود الشرقيين يقول فى هذا الشأن : « أن الاشكينازى يريدون أن يجعلوا منا أوربيين مثلهم .. بيد أن هذا الأمر يعد مستحيلا .. أن لنا عاداتنا وتقاليدنا التى تعد أنقى من تقاليدهم .. فلماذا يريدون ان يفرضوا علينا تقاليدهم ؟ .. والواقع أن « اسرائيل الثانية » تجسد بصورة مثيرة للغـاية احـد المخاطر التى تهـدد الدولة اليهـودية وهـو دوام الخصائص القومية والثقافات المتخلفة داخل دولة مركبة لا تربط بينهـا الصهيونية ذات الصبغة البرجوازية التى كانت تميز عام ١٩٧٣ ولا اليهودية التى أصبحت مهددة بالعلمانية » .

---

(١) سياه هى « سمول يسرائيلى يداداش » اى اليسار الاسرائيلى الجديد الذى يتالف اساسا من طلبة شبان وطلبة المدارس الثانوية واهالى المستوطنات . وقد انشىء فى عام ١٩٦٨ اثر انشقاقين .. أولهما داخل حزب المابام « الاشتراكيين اليساريين وثانيهما داخل الحـزب الشيوعى اليهودى ماكى » وهو حركة يسارية معادية لميل معظم الأحزاب الاسرائيلية الى اليمين بعد عام ١٩٦٧ ومع ذلك فان حزب سياه ليس مناهضـا للصهيونية على عكس حزب ماتزين ويعطى هذا الحزب الأولوية لتسوية المشكلة الفلسطينية وفى الوقت نفسه يطالب بانشـاء دولة اسرائيلية منفصلة .

وتوجد بين الاشكينازى المميزين انفسهم ، فروق متاصلة تختلط بصفة عامة مع التدرج الاجتماعى .. « فالبولندى لا يحظى بالتقدير الذى يحظى به الروسى أو الالمانى ويعتبر المهاجر الذى وصل الى اسرائيل قبل عام ١٩٤٨ أو الصابرا الاصيل نفسهما أفضل بكثير من الذين وصلوا فى الخمسينات » ، ولا تزال العائلات البورجوازية فى القدس تهتم بالمركز الاجتماعى وتتمسك بضرورة ان يتوفر لها الاحترام وذلك بدرجة تصل الى حد غير معقول ، ولذلك فانها حريصة كل الحرص على أن تتلافى الزيجات غير المتكافئة .. ولم يتمكن الجيش ولا اللغة ولا حتى حالة الحرب من ازالة هذا التشابك من «الاختلافات» و « الأولويات » الذى لا يتفق أبدا مع الصورة التى تريد اسرائيل أن تعكسها لنفسها ولم تنته عمليات انبثاق الشخصية أو الثقافة الخاصة التى تتفق مع المجتمع الحديث فى عام ١٩٧٣ .. وكان الوضع بعيدا تماما عن هذه الغاية .

وتعد موجة المعارضة الكبيرة التى انتشرت بين الشباب اعتبارا من عام ١٩٦٨ ، وفى الجامعة فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ تجسيدا اضافيا لتزايد هذه الشكوك .

ومن المؤكد أن المعارضة ليست أمرا جديدا فى اسرائيل ، ففى حوالى عام ١٩٦٣ كان الشبان المثاليون من « الجماعة الكنعانية » يعربون عن قلقهم حيال المخاطر القاتلة التى قد تنتشر من جراء استمرار السلام فى مجتمع غير متجانس به الكثير من المشكلات التى تحل كما قد لا ينقذه سوى « عامل التماسك القدرى » الذى يتمثل فى العدوان العربى .. بيد انه فى أوائل السبعينات وفى أوج حرب الاستنزاف تغيرت لهجة المعارضة .. فقد اصطبغت بالسمة السياسية .. والآن يثور المعارضون الشبان دفعة واحدة ضد الميول التوسعية للدولة اليهودية والجمود السياسى الذى يميز فريقا ثانيا ، ولكنهم يتخوفون أيضا من السمات المادية فى ذوق العصر .

وكانت قضية « جولدمان » فى ابريل ١٩٧٠ ، واحدة من الدلائل الأولى. فبعد أن منعت جولدا مائير ناحوم جولد مان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى من التوجه الى القاهرة حيث كان جمال عبد الناصر قد اقترح عليه الاجتماع به . بعث حوالى ستين من طلبة المدارس الثانوية برسالة جماعية الى رئيسة الوزراء قالوا فيها : « لم نعد نعرف ما لو كنا سنتمكن من القيام بمهامنا فى الجيش تحت شعار « ليس ثمة اختيار آخر » وكانت فضيحة « فقد كتب ابن تيرهال ساديه القائد الشهير للبالماش « الكتيبة المختارة »كتب مقالا متفجرا فى صحيفة معاريف الاسرائيلية قال فيه : « يمكننا ان نستخلص تلك النتيجة التى يصعب ابتلاعها ويتعذر هضمها والتى تتمثل فى أن الحكومة لا تريد السلام ، ولتعذرونى سيداتى سادتى ، ولكننى لم أعد أثق فيكم » .

وقد بلغت الأزمة ذروتها فى عامى ١٩٧٢ و ١٩٧٣ حينما تم الكشف عن الشبكة اليهودية العربية التى اتهمت بالتجسس لصالح العدو .. واتهم ستة شبان منهم صابرا واحد شبان المستوطنات وجندى مظلات ، بأنهم خانوا بلادهم .. وقد أحدثت هذه القضية اضطرابا لدى الرجل الاسرائيلى العادى واثارت مجادلات لا يمكن تصورها . فقد طالب النواب باجراء مناقشات عامة بشأن : « المصادر الروحية للخيانة » . واتهموا الدوائر اليسارية بالتواطؤ .. وجرى الحديث فى ذلك الحين عن : « العصبية الثورية » و « الدوار الانتحارى » و « كراهية النفس » .. ولا شك فى ان المعارضين كانوا أقلية ضئيلة بيد أن ذلك لا يمنع من انه لم يسبق للدولة اليهودية أن شهدت على مر تاريخها مثل هذه الهزة المعنوية .

و كما لو كانت الخلافات الاجتماعية و « العرقية » والايديولوجية لا تكفى، فقد ظهرت فى الفترة نفسها مشكلة المهاجرين الجدد .. وقد احدثت هذه المشكلة أيضا اضطرابات عميقة فى اسرائيل .. وبصفة عامة كان النصر الذى تحقق فى عام ١٩٦٧ قد أدى الى تحسين العلاقات بين اسرائيل ويهود الشتات بدرجة كبيرة . فقد زادت المساعدات المالية بنسبة مرتفعة .. كما نشطت الهجرة وحدث ازدهار فى « السياحة اليهودية » فقد أصبحت اسرائيل جذابة بعد أن ازدانت بأكاليل الغار عقب الحرب .. وكتب مارك هيليل يقول « لقد أصبحت اليهودية مطابقة لذوق العصر » .

ومع ذلك ، وبرغم الوعود الجديدة التى قدمتها الوكالة اليهودية التى كانت تعلن دائما عن قرب الازدهار فان الحماس قد هبط تماما .. ولا يرجع ذلك الى مجرد أن الهجرة الحقيقية لم تعد تتمشى مع الآمال ولكن الى تزايد رحيل اليهود الذين خابت آمالهم .. وقد أجرى البروفيسور شلومو سيتون دراسة دقيقة عن اقتصاد اسرائيل فى عام ١٩٧١ تساءل فيها عما اذا كان هذا الارتداد فى الهجرة (١٢ الف رحلوا فى عامى ١٩٦٨ و ١٩٦٩ فقط) يمكن أن يفسر كفشل جزئى على الأقل للدولة اليهودية فى القيام بمهامها .. واشار كتاب صهاينة آخرون بأسى الى أن « الصعود » الى القدس نفسه يزداد تغييرا من حيث المضمون .. فالهجرة لا تستهدف تحقيق المثل الأعلى الصهيونى بقدر ما ترمى الى حياة افضل واسهل واكثر راحة .. وكانت خيبة الأمل فى حجم الآمال السابقة .. أن الخياط الذى يعيش فى بوسطن أو المدرس الذى يقطن ما رسيليا ، حيث يعيش حياة طيبة وسط يهود الشتات ، كان يوافق طواعية على أن يساعد اسرائيل من حيث يعيش أو يقوم برحلة سياحية الى اسرائيل لكى ينبهر أمام منجزات الأمة اليهودية .. ولكنه لم يكن يبدى حماسا واضحا للاقامة فى اسرائيل حتى بعد عام ١٩٦٧ .

ونظرا لأن الهجرة الايديولوجية « لا تتحقق فان الهجرة التى تحققها الكوارث أصبحت الأمل الوحيد لدولة تهدد ديموغرافيتها الطبيعية دائما » باكتساب الصبغة الشرقية(١) .

ان اضطهاد الساميين فى الاتحاد السوفيتي اعتبارا من عام ١٩٧٠ وما ترتب على ذلك من هروب اليهود السوفييت .. قد غمر اسرائيل التى قامت بحملات دولية من اجل تحقيق هدف مشروع يتمثل فى تسهيل هجرة هؤلاء اليهود .. ولكن اتضح بسرعة أن هذا التدفق المفاجىء للمهاجرين يطرح بدوره مشكلات كبيرة .

ويرجع ذلك فى المقام الاول الى أن هؤلاء « اليهود السوفييت » الذين انتظرتهم اسرائيل بفارغ الصبر والذين احتفلت بهم الصحف يوميا ليسوا من العاملين فى الفنون الصناعية فى موسكو أو من المهندسين العاملين فى لينينجراد، لقد قدم ٨٥٪ منهم من بيسارابيا أو الدول البلطيقية أو جيورجيا كانوا من المثقفين أو الفلاحين ذوى اللحى الكثيفة أو من أهالى أوزيكستان الذين جاءوا الى أرض الميعاد حيث وجدوا مجتمعا صناعيا قاسيا .. ومقابل هؤلاء اليهود الذين ليسوا مؤهلين تكنولوجيا أو تخصصيا والذين لا يستطيعون تقديم « فائدة فورية » اخذت اسرائيل تعانى من مشكلات الاستيعاب التى لم تكن تحسب لها حسابا .

ويزعم الدبلوماسيون السوفييت (وهم يقولون : ان ذلك من اجل البلاد العربية) .

أن هذه الهجرة تتم وفقا لحسابات معينة وأن الاتحاد السوفيتى يغمر اسرائيل عن عمد وسط تدفق من « الأوزان عديمة الفائدة » .. بدلا من أن يرسل اليها نخبة من العاملين الفنيين .. اما المهاجرون السوفييت وبخاصة الذين قدموا من جيورجيا .. فانهم يعربون عن خيبة أملهم بأسلوب عنيف أحيانا اذ قال أحدهم : ان الناس هنا يتسمون بالفتور والقسوة وقد كنت تعسا للغاية فى بداية الأمر اذ كنت أعيش وحدى مع زوجتى وأطفالى الخمسة وشقيقتى وزوج شقيقتى . ولم يكن ثمة مهاجرون من جيورجيا فى المكان الذى كنا نسكن فيه ثم ان الناس هنا ليسوا متمسكين بدينهم ! لقد كنت أعرف ذلك فقد بلغنى ولكننى كنت — أعتقد بالرغم من ذلك ان ٩٧٪ أو ٩٨٪ من الناس يتبعون شريعة الله .. ولكننى لم اجد شيئا من ذلك :

---

(١) تعد نسبة المواليد بين العرب والاسرائيليين (٤٥٠ الف نسمة) اكثر ارتفاعا من نسبة المواليد من اليهود . وتفوق نسبة المواليد الشرقيين من اليهود نسبة المواليد الاوربيين بكثير .

فنحن نرى نساء عاريات فى الاعلانات ولا يوجد أى احتشام فكيف أتمكن من تربية أطفالى وسط هذا الجو الفاسد (١) .

وقد نظم القادمون من جيورجيا بسرعة احتجاجهم على الاستقبال الذى قوبلوا به وظروف المعيشة التى توفرت لهم وفى نيتانيا فى تل ابيب خرجت المظاهرات ووضعت المتاريس بالاضافة الى المصاعب الناجمة عن تغيير الدولة كان هؤلاء المهاجرون يعانون من تغيير النظام ان اليهود السوفيت لا يعتادون بسهولة الكفاح المتواصل فى مجتمع تسوده المنافسة الاجتماعية والمنافسة الحرة ولكنهم يخشون الانحرافات البيروقراطية للدولة اليهودية ان اسرائيل يتعذر عليها استيعاب هذه المصاعب « الحمراء » التى لن تتوقف حتى فى زمن الحرب (٢) .

ومن الظلم أن نبالغ فى تقدير اهمية هذه الاضطرابات ان استعاب المهاجرين لم يتم ابدا بلا مصاعب على مر تاريخ اسرائيل كما هى الحال بالنسبة لجميع الدول أن التعطش الى النجاح الفردى وتراكم الازدراء الذى يظهر بالاقدمية و « اختيار » القادم الجديد كلها من الأمور التى واجهت التجربة الأمريكية أو الاشتراكية أما الأمر الجديد هنا فانه يتمثل فى للافول التدريجى « للروحانية الصهيونية » وبروز سمة طبيعية فى المجتمع اليهودى من شأنها اثارة المنازعات عن طريق تجريدها من « الصبغة اليهودية » .. أن المهاجرين لم يأتوا لبناء الأحلام فى ظل التفانى والتضحية وانكار الذات .

انهم يبحثون من مكانهم فى مجتمع معقد تماما لا تسوده المساواه وهم ينتظرون منه أمرا آخر زيادة على مجرد « الأمن » الذى يمكن أن يوفره الوطن القومى وكان الصهاينة الأوائل يقولون ــ حينما يصبح لاسرائيل غانياتها وسارقوها ورجال شرطتها ومنازعاتها تكون قد نجحت وينطبق ذلك على الوضع القائم حاليا ومع ذلك فان التناقض مازال قائما .. هل يكون مجتمع كسائر المجتمعات أم دولة يهودية نموذجية ؟ أى هل تنشأ دولة صناعية وعلمانية أو تقوم ــ تيوطراطية مختلفة عن ذلك تماما ؟ أنها مناقشة تجرى منذ زمن طويل .

أن تطور اسرائيل فى الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٣ قد انهكها .. لقد تحقق النجاح الاقتصادى وقد عانت الدولة من عقدة المنتصر وحدثت الاضطرابات

---

(١) لونوليل أوبزرفاتور عدد ٣٠ من ديسمبر ١٩٧٢ .

(٢) فى ٣١ من يوليو وأول اغسطس ١٩٧٣ اضطر مؤتمر استيعاب اليهود الجدد القادمين من الاتحاد السوفيتى أن يوقف اعماله بسبب عنف مشاجرات ومطالب « الجدد » حيال القدامى وقد اضطر ناتان بيلد وزير الهجرة الى مغادرة القاعة بعد أن شمله هذا الهجوم .

بين الشباب ثم جاءت مطالب القادمين الجدد .. وتحت القشرة البراقة للامن والقوة كانت ازمة شخصية حقيقية تتفاقم فى العمق .. غير أن هذه الازمة لم تحدد أية تسوية لمشكلة الشرق الأوسط كما تزيد من هوة الخلافات السياسية الحقيقية .

ان الاضطرابات التى اثارتها سيطرة الديانة اليهودية على حياة البلاد قد ازدادت عمقا فى فترة ما بين الحربين .

ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة أن اضفاء الصبغة الحديثة على المجتمع شهرا بعد شهر كان من شأنه أن يجعل القانون الدينى مزمنا وأكثر ثقلا .

وتبدو اسرائيل حتى الآن فى أعين الدول الأجنبية بمثابة دولة دينية . ويتضح ذلك من عمليات استطلاع الرأى أو التحقيقات الصحفية التى تجرى سواء فى اوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية . بيد أن الحقيقة تعد مختلفة الى حد ما .. أن مؤسسى الصهيونية ، ومعظمهم ليسوا من رجال الدين ، قد أعلنوا دائما معارضتهم لمفهوم الدولة التيوقراطية ، وقال وايزمان « لابد من أن يترك الدين الى المعبد والعائلة » .

وقال روبين ماس فى « كتاب الدولة اليهودية » سنعرف كيف نجعل رجال الدين لا يبارحون معابدهم كما لن نبارح بدورنا ثكناتنا كجنود عاملين » .

ومن الناحية النظرية تعد اسرائيل دولة ديمقراطية برلمانية علمانية بها نواب وبرلمان ويدعى ٧٠٪ من سكانها أنهم « غير متدينين » رغم انه يوجد فى اسرائيل حوالى خمسة آلاف معبد وستمائة حاخام تدفع لهم الدولة مرتباتهم — والواقع أن عدم وجود دستور مكتوب أو ميثاق لحقوق الانسان لأمر من شأنه ترك مجال الأحوال المدنية الى السلطات الدينية وحدها ويستنكر الشبان من الصابرا اليوم كلمة « يهودى أو مسيحى » التى تذكر بالضرورة فى بطاقتهم الشخصية أو جواز سفرهم بدلا من كلمة « اسرائيلى » وتوجد اثنتا عشرة طائفة دينية فى اسرائيل ولا بد من أن يسجل الطفل منذ ولادته وفقا لديانته .. انه أمر يشبه الأمور التاريخية » .

والأخطر من ذلك أن مسالة الزواج المدنى قد عادت لتطرح من جديد فى الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٣ الى الحد الذى اثارت معه أزمات حقيقية فى الحكومة فقد صدر قانون فى عام ١٩٥٣ يحرم الزواج المدنى فى اسرائيل أن السلطة الحاخامية المعتمدة وحدها هى التى يمكن أن تعقد زواجا يهوديا لا يعد ممكنا الا اذا كان الزوجان ينتميان الى الديانة اليهودية الصحيحة وتمثل المشكلة الأولى بالنسبة للراغبين فى الزواج فى أن يقدموا ما يثبت ذلك ونظرا لعدم وجود وثيقة مكتوبة سيتعين عليهم اللجوء الى الشهادة وهو الأمر الذى

يشجع على أن ينشأ فى الاماكن المحيطة بالمحاكم الرسمية نوع من الشهود المحترفين الذين يحصلون على مبالغ كبيرة مقابل الادلاء بشهادتهم فى مثل هذه الأحوال ومن أجل التغلب على هذه المصاعب يذهب الاسرائيليون الى قبرص ليتزوجوا هناك وهو الأمر الذى يؤثر على الميزانية الصغيرة للازواج الجدد نظرا لرسوم السفر .

ونظرا لأن الزيجات التى لا يعقدها الحاخامات تعد ملغاه فان الاطفال الذين ينجبهم هؤلاء الازواج يعتبرون أطفالا غير شرعيين ان هذا الظلم الذى يتعلق بأربعين ألف شخص على اقل تقدير قد أثار فى عام ١٩٧١ — وفى اطار الاحتجاج ضد الضغوط الدينية اقامة يوم للاطفال غير الشرعيين نظمه الدكتور جورج تامارين .

أما فيما يتعلق « بتحديد اليهودى » وهو الموضوع الذى يثير اضطرابات شديدة ، فقد أفسح المجال « لفضائح » عدة آخرها قضية شاليت (١) أن الطفل لا يعتبر يهوديا الا اذا ولد من أم يهودية أو اعتنقت اليهودية وكثيرا ما تحدث مفاجأة فى اصدار الحاخامية لهذه الشهادة الشرعية التى تثير بحثا دقيقا وتراجعا انتهى عهده من القرون الوسطى .. فكثيرا ما يحدث أن مهاجرا يهوديا يكتشف بعد وصوله الى القدس أنه ليس يهوديا رسميا .. أو أن يواجه رب أسرة برفض منح صفة اليهودية لأطفاله بحجة أن اعتناق والدتهم لليهودية لم يكن سليما الخ .. (ويرفض الحاخامات الأرثوذكس فى اسرائيل دائما الاعتراف باعتناق اليهودية الذى يتم على أيدى الحاخامات « المصلحين الأمريكيين » .. وهو الأمر الذى يؤدى الى تعقيد الامور) .

ومن بين التقاليد الدينية التى مازالت معمولا بها فى اسرائيل نجد تقاليد لا تخلو من الغرابة .

وتنص الشريعة اليهودية (الفصل ٢٥ السورة ٥١٠) على أن الأرملة التى لم تنجب لا يمكنها أن تتزوج من جديد قبل أن تذعن لتقليد طقسى مهين لكى يوافق شقيق زوجها على التنازل عن « حقه فى الوفاء »

ويقول الطلبة فى تل أبيب « وهم يسخرون : أن هذا التقليد لا يتمشى مع التقدم الملحوظ الذى أحرزته الصناعة فى صحراء النقب ..

---

(١) كان بنيامين شاليب قبطان السفينة قد تزوج من امراة اسكتلندية مسيحية تواجه فى بداية الامر رفض اعتبار اولاده « يهود » طبقا لديانة موسى . ثم حصل على موافقة المحكمة العليا على أن يكتب أولاده فى بطاقاتهم الشخصية انهم يهود وجاء القرار « الاصلاحى » الذى اصدرته المحكمة العليا ليلغى الاجراءات المتبعة منذ عام ١٩٤٨ والتى تثير اضطرابات عنيفة فى اسرائيل ويجبى الاعراض على القانون المدنى .

ولا تزال الضغوط الدينية تمارس فى مجالين آخرين على أقل تقدير فى الحياة اليومية أن « الكاشروت » وهو مجموعة الوصفات الغذائية التى ترجع الى شرائع موسى ، يحرم بعض الواجبات (لحم الخنزير والسمك الذى لا قشر له والأرانب والقشريات) ويفرض اعدادا خاصا للطعام (الذبح الشرعى وضرورة غسل اللحوم) ويحرم الخلط بين أصناف معينة من الطعام (اللبن واللحم) ويراقب مفتشو الحاخامية الارثوذكسية الذى يتسمون بالدقة — والذين يقدمون التصاريح الى الفنادق والمطاعم — تطبيق الكاشروت فى المدينة كما ان تطبيقه مازال اجباريا فى الجيش والحكومة « بيد أن الحياة اليومية مليئة الآن بالسخرية على الألف وسيلة ووسلية التى تساعد على التحايل على هذه الممنوعات التى تثير ضيق غالبية الاسرائيليين » .

كما أن احترام السبوت (البقاء لمدة ٣٦ ساعة دون تدخين أو ركوب سيارات أو التردد على محال الخيالة أو حتى قراءة الصحف) يعد ضرورة لا تتفق مع متطلبات المجتمع الحديث فهذه العطلة تفسح المجال من حين لآخر امام الشبان الاسرائيليين غير المتدينين الى القيام بأعمال لأهداف لها تثير حنق المتدينين .. كما انه يعد مصدر ظلم فى مجتمع لا يتسنى فيه لغير الأغنياء — أصحاب السيارات — ان يتنقلوا فى أيام السبوت .

ان هذه التقلبات ليست مجرد مميزات للاطار اليهودى العام الذى يسخر منه الصابرا .. اذ انها تتسم بمعنى سياسى .

أن السيطرة التى مازالت تمارسها فى اسرائيل أقلية دينية ٣٠٪ يعد فى المقام الأول نتيجة لعلاقات قوى قائمة فى الكنيست .. وبصفة عامة غير أن اعضاء حزب العمل الذين يتولون السلطة منذ خمسة وعشرين عاما لم يتمكنوا ابدا من ان يحكموا دون مساندة الاحزاب الدينية (١) وتعرف هذه الأحزاب مقابل ذلك .. كيف تستفيد بمهارة من كل ائتلاف حكومى وذلك بأن تعلق مساندتها على امتيازات جديدة تقدم للدين .. وتعد هذه الأحزاب جماعات ضغط أكثر من كونها أحزابا سياسية بالمعنى المفهوم وهى تستغل هذا الموقف المزدوج لكى تجمد أى تطور « علمانى » فى المجتمع .. وقد واجه دائما المحركون النشطون فى اللجنة المضادة للالزام الدينى ونواب الحزب الليبرالى المستقل والمحامية المندفعة شولاميت آلونى هذا العائق الحسابى وفى يونيه ١٩٧٢ على « سبيل المثال » أمكن تلافى حدوث ازمة حكومية بعد أن قدم الليبراليون المستقلون مشروع قانون يسمح بالزواج المدنى فى بعض الأحوال .. وكانت

(١) يوجد فى اسرائيل ثلاثة احزاب دينيـــة هامة الحزب القومى الدينى (التحالف مع ائتلاف حزب العمل وأجودات اسرائيل (اكثر تعصبا) وعمال اجودات اسرائيل .

جولدا مائير نفسها قد عارضت هذا المشروع وايدت الأحزاب الدينية علانية وأعلنت أن هذا التعديل فى قانون الحاخامات قد يحدث « انشقاقا خطيرا بين الشعب اليهودى فى اسرائيل » ..

وقال الحاخامات الارثوذكس نفس الشيء حينما اعلنوا فى حديث أدلوا به الى التليفزيون « نحن نعتبر الوطن والدين شيئا واحدا » .. ان اليهودية ديانة تعد فى الوقت نفسه قانونا ودستورا وهما اللذان حافظا على وحدتنا الوطنية ولا يمكننا أن نفصل بين الوطن والديانة » ..

بيد أن يهود الشتات يمارسون ضغوطا لا تقل فعالية فى هذا الاتجاه نفسه ان اليهود الاجانب ـ وبخاصة الأمريكيين ـ يعتبرون اسرائيل من الناحية العاطفية بمثابة معهد مقدس للديانة اليهودية ، ولذلك فانهم يكونون أول من يحتج حينما يكتشفون مظاهر « علمانية » جديدة أن مسارعة (السياح) الامريكيين أو حتى الفرنسيين ، الطريقة الى تطبيق قواعد السبوت أو كاشروت بين زيارتين لاسرائيل قد تكون أمرا يبعث على الضحك .. غير أن أولئك السياح الذين يرفضون أن يذهبوا الى ابعد حد فى صهيونيتهم بالصعود الى القدس « يطالبون اسرائيل بالاخلاص الكامل لليهودية .. وذلك نوع من المراء الكفيل باثارة الحنق بيد أن اسرائيل تعتمد على يهود الشتات على الصعيد المالى .. وذلك حتى اشعار آخر وبناء على ذلك فان التنازلات التى تقدم لموقف دينى ـ غالبا ما تكون مسالة ظاهرية بحتة ـ لاتعد غريبة على الضروريات القاسية اللازمة لميزان المدفوعات (١) وبما أن يهود الشتات يعتبرون هزائم اسرائيل فشلا لهم فانهم « سيعاقبونها » اذا ما افرطت فى اللا ادارية .

ولكن التساؤلات الحديثة عن اليهودية والشكوك التى تدور حول تحديد اليهودي فى عام ١٩٧٣ تتسم بمغزى آخر اكثر جوهرية .

ان الديانة ـ أو على الأقل ـ التقاليد الدينية ما تزال العامل الوحيد والحقيقى الذى يوحد دولة تعانى من التمزقات والخلافات التى يتميز بها العصر الحديث .. أن التناقض بين اليهودية والصهيونية واليهودية والاسرائيلى والاحلال الغامض لمفهوم الدولة محل مفهوم الديانة تعد منذ فترة طويلة موضوعا لمناقشات اكاديمية للغاية والآلاف من الصفحات المطبوعة (٢) ولكن التحول الاقتصادى والاجتماعى الذى طرأ على اسرائيل

---

(١) تضاعف العجز فى ميزان المدفوعات منذ عام ١٩٦٧ ليبلغ مليار دولار كما تضاعفت الديون الخارجية وبلغت أكثر من ٣ مليارات دولار فى عام ١٩٧٣ .

(٢) انظر اهى نهاية الشعب اليهودى ؟ تأليف جورج فريدمان . نشر جاليمار ١٩٦٥ .

اليوم وظهور اجيال جديدة لم تعرف مناهضة السامية واضطهاد النازيين تعد أمورا من شأنها ان تعقد المشكلة وتضعها فى مصاف المشكلات الراهنة

ثم الم تبرر اسس الصهيونية ذاتها والحقوق المشروعة لاسرائيل على أرض فلسطين استنادا الى الكتاب المقدس فى المقام الأول ؟ ويكفى لأى سائح أن يمضى بضعة إيام فى القدس لكى يسمع فى شتى الأحاديث الاعراب عن الخوف القديم نفسه : « ان خسارة ديننا معناه خسارة حقوقنا فى احتلال أرض الميعاد » .

هكذا يفتح كل نقاش سياسى اكثر من هوة .. وحينما تصطبغ اسرائيل بالصبغة الدنيوية وتصبح « دولة صناعية شأنها فى ذلك شأن سائر الدول فانها ستزيد من طابعها الاستعمارى البحت .. ولكن حينما تحافظ على يهوديتها وتتمسك بالكتاب المقدس ستغلق نفسها فى اطار التقليد القديم لتيوقراطية غير متسامحة ورجعية »

فما العمل ؟

ان الشكوك ، كل الشكوك التى تحتويها دولة اسرائيل الجديدة ، قد انبعثت مع الانهيار الذى أحدثه يوم عيد كيبور .. وفى وسط أسبوع السكوت ٣٧٣٤ القاسى ها هى تلك الشكوك تطفو من جديد فى الضمائر وقد تشابكت وامتزجت بعضها ببعض ان اسرائيل تنجرف وسط الحطام ولم تعد الدولة اليهودية فى تلك اللحظة سوى سلم خشبى هش غير مترابط كما ينبغى له ان يكون ، وهناك على جبهتى سيناء والجولان تدور حاليا جولة ليست عسكرية أو استراتيجية فحسب .

وحينما يتسنى استرداد النصر ستستعيد اسرائيل شيئا من الطمأنينة .. وسيعود التماسك بطريقة غير محدودة وسينقذ الأمل .. ولكن هل ثمة امكانية للانتصار فى الحرب ؟ وهل يمكن أن يكون هذا الانتصار لامعا ؟ أن هذا الأمر يشكل حتمية نفسية ومعنوية .

وفى وحدات الجيش الاسرائيلى التى كانت تستعد لقلب الوقت السىء فى ميدان المعركة كان آلاف من الجنود يحملون على أكتافهم المخاوف المعنوية الهائلة للماضى .. ولم يسبق أن كانت تل أبيب فى حاجة الى ابطال كحاجتها اليهم فى تلك اللحظة ..

واصبح شارون « فليبش اسرائيل » وهو لقب مستعار أو مغتصب ويعنى بالعبرية ملك اسرائيل .

الفصل الثامن
استعادة الزمام
« ١٤ ـ ٢٣ اكتوبر »

« كان يتعين علينا ان نقدم على المزيد من المخاطر »

اريل شارون فى حديث لنيويورك تايمز
٨ نوفمبر ١٩٧٣

١٤ اكتوبر « هل يمكن الانتصار فى الحرب وبسرعة ؟ وهل ثمة امكانية لتحقيق ذلك ؟ فى ختام الأسبوع الأول من القتال كان كوفا تمبل ، ... الشيطان الخبيث الذى يرمز الى اسرائيل فى جميع الرسوم الكاريكاتورية للصحف اليهودية ، قد استعاد نصف الحلبة .. ان هذا المراهق المشاغب الذى يرتدى شورتا كاكى اللون « وصندلا خفيفا » فى قدميه قد اطلق عليه هذا الاسم استنادا الى قبعة البحارة التى يرتديها على العكس كوفا تمبل .. ويعد هذا الرسم الصورة العكسية لليهودى العجوز المنحنى والباكى الذى كان يرمز الى يهود الشتات .. ان كوفا تمبل يرمز الى اسرائيل فى عام ١٩٧٣ يراها الصابرا .. ومنذ بدات حرب كيبور و «روش» الرسام الكاريكاتورى فى صحيفة معاريف يروى أحداث الحرب من خلال مآسى «تان تان» اليهودى هذا .. فقد هوجم على حين غرة من عدوين فى وقت واحد ثم وبخته « الشخصيات الكبيرة » فى العالم دون وجه حق ثم بدأ يوجه لخصميه اللطمات الأولى « وزالت السمة الماساوية عن الحرب » وفى فجر يوم الأحد الرابع عشر من اكتوبر بدأ ظل ابتسامة يظهر على وجه كوفا تمبل « لقد تغلب على أحد خصميه » الخصم السورى .

فبعد ان حشد الجيش الاسرائيلى كل قواته المدرعة والجوية على الجبهة السورية استعاد الجولان ورد خصومه الى أبعد من خطوط وقف اطلاق النار فى عام ١٩٦٧ . وكانت المعارك ضارية بيد أن الجنرالين رافائيل ايتان ودان لانر المقاتلين القديمين قد قاما بعملهما خير قيام .. فقد عمل الجيش الاسرائيلى منذ الحادى عشر من أكتوبر على توسيع الثغرة الأولى التى أحدثها

واصبح يسيطر الآن على خط جبهة يرسم داخل الاراضى السورية نوعا من النتوء المستدير الذى يبلغ عمقه ٢٥ كيلو مترا .

وفى الوادى على طريق دمشق وصل الاسرائيليون الى أبواب قرية سعسع الكبيرة واصبحت مدافعهم الذاتية الحركة من عيار ١٧٥ ملليمترا تهدد ضواحى العاصمة السورية بطريقة مباشرة . وفى الشمال يسيطر الاسرائيليون على بيت الجن وفى الجنوب يعسكرون أمام كفر شمس .. وكان « المرصد الاستراتيجى » المتمثل فى جبل الشيخ هو الموقع الوحيد الذى ظل فى ايدى قوات مغربية وسورية وبدا مثل الشوكة فى مؤخرة الجيش الاسرائيلى .. وقد اهتم الجيش الاسرائيلى بهذا الموقع بعد ذلك واستعاد « عين تل ابيب » بعد معارك شرسة بالسلاح الأبيض .

وعلى امتداد الهكتارات كانت الطرق الحجرية السوداء فى الجولان قد تفتت وتشققت واخترقت من جراء الحرب وأصبحت تحتوى على اكبر مقبرة دبابات تشهدها منطقة الشرق الأوسط وكانت عشرات ومئات من حطام المدرعات تبرز وسط الأحجار ومعظمها أصيبت فى مقدمتها بصواريخ اطلقتها المقاتلات الاسرائيلية وما تزال مدافعها الخرساء مصوبة نحو الطبرية .. وداخل الهياكل المدمرة توجد جثث الجنود وقد التوت على نفسها ..

لقد تسنى للطيران الاسرائيلى ورغم الخسائر الكبيرة (٨٠ طائرة) ان يعمل بسهولة أكبر مما كان الأمر عليه فى جبهة سيناء حيث أجهزة الصواريخ أكثر كثافة وفى سائر المجالات خاصة جنود الدبابات الاسرائيلية الحرب المتحركة التى يبرعون فيها أكثر من أى جنود آخرين مما جعلهم يحققون نصرا ساحقا على خصومهم .

وكانت جولدا مائير قد أوفدت الجنرال بارليف مساء الأحد ، غداة يوم كيبور ، الى جبهة الجولان « لتعديل الموقف » وتنسيق الهجوم المضاد .. وقدر بارليف منذ ذلك اليوم أن الأمور ستجرى بسرعة اذ قال « لقد توجهت الى الجبهة الشمالية وبقيت هناك أربعا وعشرين ساعة حتى تشن قواتنا الهجوم المضاد ولا بد أن يكون واضحا انه تم احتواء الهجوم السورى وأن الأمور تسير على ما يرام واعتبارا من يوم الأربعاء كانت الخطوط السورية قد تراجعت وأصبحت قوات الأسد غير مترابطة .. وحاولت الفرق العراقية والاردنية التى وصلت لتعزيز القوات السورية أن تهاجم القوات الاسرائيلية من الجنوب منذ يوم الجمعة ولكنها لم تفلح فى ذلك .

وبعد معارك ضارية استقرت الأمور على الجبهة السورية تماما فى يوم الأحد الرابع عشر من اكتوبر .

وأخذت الصحف العالمية تتساءل منذ الثاني عشر من اكتوبر : هل يواصل الاسرائيليون امتيازاتهم بالاتجاه نحو دمشق لأن السيارات التى تنقل قوات الاحتياطى وعربات النقل العسكرية والتى تتدفق الى « الجيب» السورى مغطاة باللافتات التى قد توحى بذلك مثل « اكسبريس تل أبيب دمشق » أو « لا يتوقف فى دمشق » الخ .. والواقع أن هدف تل ابيب كان اكثر حكمة ويتمثل فى تثبيت الجبهة الشمالية عند عمق كاف بحيث تصبح العاصمة السورية على مرمى نيران المدفعية الاسرائيلية ثم نقل المدرعات والطائرات على الفور الى سيناء ..

والواقع ان جميع العمليات التى تمت نهاية هذا الأسبوع « كانت تجرى وفقا لقانون ميكانيكى الى حد ما .. ان الجيش الاسرائيلى الذى لا يستطيع التحرك على الجبهتين فى آن واحد يبدو فى موقف لاعب الملاكمة المترنح الذى يتعين عليه لكى ينتصر أن يهزم خصمه الواحد تلو الآخر ويراعى الاحتفاظ بقواه أما المصريون فانهم يعرفون أن كل جهد يقومون به على الجبهة الجنوبية من شأنه أن يريح السوريين بالقدر نفسه على الجبهة الشمالية (اذ يترتب عليه تعبئة الطيران الاسرائيلى بصفة خاصة) . ولذلك ارسل احمد اسماعيل وزير الحربية المصرية الى الضفة الشرقية لقناة السويس ومنذ الحادى عشر من اكتوبر حوالى خمسمائة دبابة كان يحتفظ بها كاحتياطى فى الغرب .. وكان ذلك خطأ ..

وبعد العبور المصرى السريع وسقوط خط بارليف وجد الجيشان نفسيهما وجها لوجه على جبهة تمتد على مائة وثمانين كيلو مترا .. وبعد أن مرت مفاجآت الأيام الأولى تمكن الجيش الاسرائيلى من ايقاف المصريين قبل أن يتمكنوا من تحقيق أهدافهم .. وبدلا من أن تستولى القوات المصرية على ٣٠ كيلو مترا فى صحراء سيناء وتظل فى مواقعها على الضفة الشرقية كما جاء فى خطة بدر .. وجدت قوات احمد اسماعيل نفسها وقد وقفت بسبعين ألف جندى وألف دبابة فى شريط يتراوح عرضه بين ثمانية وعشر كيلو مترا على طول القناة .. وكانت القوات المصرية تشعر بالأمان وهى فى حمى صواريخها غير أن هذا المحيط لم يكن بالاتساع الكافى لاقامة خطوط آمنة دائمة .. وكان احمد اسماعيل ينتظر الفرصة لتوسيع هذا المحيط .

ومنذ أسبوع كان الخصمان مجمدين بسبب متطلبات تكتيكهما فالمصريون يطبقون حرفيا المذهب السوفيتى الحذر ولذلك لم يندفعوا بكل قوتهم نحو الممرات الاستراتيجية الثلاثة ــ الجدى ومتلا والخاتمية ــ التى تفتح المجال أمام دخول سيناء .. فذلك الأمر يتطلب خروجهم من حماية

مظلة الصواريخ سام مما يعرض فرقهم المدرعة لضربات الطيران اليهودى . اما هيئة اركان الحرب الاسرائيلية بالرغم من نوبات الجنون الحربى الذى كانت تنتاب شارون ـ فانها لم تقم حتى تلك اللحظة بهجمات مضادة واسعة النطاق . واذا كانت القوات الاسرائيلية قد قامت بأى هجوم من هذا النوع لتحطمت على العائق الذى يتمثل فى خط الشاذلى المزود « بجنود المشاة الحاملين للصواريخ » .

وقد حاول الجيشان ان يرهق بعضهما بعضا بواسطة العمليات المحدودة والاشتباكات المتفرقة والتراشق بالمدفعية دون أن يتسنى لأحدهما الحصول على امتياز حاسم . ولم يكف شارون وهو فى موقع تازا فى مواجهة الاسماعيلية عن الثورة على هذا الانتظار ويقول « أن ايقاف المصريين فى الوقت الذى نهاجم فيه السوريين ربما كان أمرا حكيما ولكننى قلت فى أكثر من مناسبة انه ليس امامنا غير وقت محدود قبل أن تفرض علينا الدول الكبرى وقف اطلاق النار وخلال هذه الفترة سيتدعم المصريون » . واذا كان شارون يتعجل عملية الهجوم المضادة فان لديه من الأسباب ما يحمله على اتخاذ هذا الموقف .

لقد قاد شارون هذه الجبهة الجنوبية التى تضم منطقة القناة كلها لمدة أربع سنوات وتعد هذه مدة كافية لجعله يتقن تنفيذ خطة هجوم مضادتقضى بعبور القناة بصورة خاطفة والقيام بعمل مفاجىء ازاء مؤخرة الجيش المصرى . وفى ظل هذا الاحتمال تصور شارون نقطة المرور شمالى البحيرات المرة على بعد حوالى عشرين كيلو مترا جنوبى الاسماعيلية بالقرب من الدفرسوار الذى اقامه بطليموس . . وفى هذا المكان وعند نقطة محددة عينها شارون بواسطة الطوب الأحمر « قلل سمك ركام الرمال الذى كان يمحى الشواطىء وهيأ فى الجنوب « موقف عربات » تحيط به تلال من الرمال . . ووضعت خطة دقيقة تشمل الطوافات التى تحمل الدبابات والسفن ذات المحركات وعناصر الجسور وقدمت منذ فترة طويلة الى هيئة أركان الحرب . .

وهمهم « أريك « امام المجموعة الصغيرة من الصحفيين الذين لا يبارحون موقفه فى تازا « فالذى ينتظره الجنرالات ؟ » .

وفى الثانى عشر من أكتوبر وبينما كانت القوات الاسرائيلية تنطلق فى الجبهة الشمالية فيما وراء الجولان لاحت فرصة استراتيجية على الجبهة الجنوبية . . لقد أكدت دوريات الاستطلاع والصور التى التقطت من الجو ومشاهدات الأقمار الصناعية الأمريكية أن أحمد اسماعيل قد جرد الضفة الغربية لكى يدعم خط الشاذلى فى سيناء وفى هيئة أركان الحرب فى تل أبيب وفى موقع جونين طرح تساؤل مؤداه . ألم يحن الوقت لانتهاز الفرصة والقيام بتحرك مفاجىء يكون من شأنه تعديل الموقف على الجبهة ؟

وعاود شارون الكرة لكى يطالب بالاسراع فى تنفيذ مشروعه الخاص بالثغرة وقال شارون أن نقل الحرب الى الضفة الغربية لقناة السويس يعنى أن الجيش الاسرائيلى سيجد نفسه يقوم بالعمل الذى يجيده . الهجوم المفاجىء والمرونة الاستراتيجية والاقدام . وقد جرت بين الجنرالات الاسرائيليين الذين تقرب وتفرق بينهم ثلاثين سنة من الحملات ، مناقشات عاصفة وعدوانية . وكانت هذه المناقشات عنيفة لدرجة أن تعبئة حفنة من كبار ضباط الاحتياطى قد خلق فى القيادة العليا موقفا مثيرا للدهشة يتمثل فى اختلاط الامور واتسم الموقف بالصبغة السياسية فقد وجد القادة السابقون أنفسهم تحت قيادة مساعديهم القدامى : وينسحب هذا الأمر على موتى هود الذى رقى مستشارا جويا لقيادةالقطاع الشمالى وأرييل شارون القائد السابق للجبهة الجنوبية الذى أصبح اليوم يخضع لأوامر جونين . كما أن الضباط الذين كانوا قد انسحبوا من الجيش واصبحوا فى سبتمبر ١٩٧٣ خصوما سياسيين متنافسين وقبل الانتخابات وجدوا أنفسهم جنبا الى جنب فى المعركة نفسها وقد بدوا حذرين وأخذوا يحسبون حساباتهم فقد ارتدى حاييم بارليف الوزير والعضو فى حزب العمل الزى العسكرى مرة أخرى واصبح ممثل رئيس أركان الحرب . أما شارون زعيم الاتجاه اليمينى فقد اصبح يخضع لأوامر رجل من المؤسسة .. وهكذا كان الجيش الاسرائيلى حلبة سياسية أثناء الحرب .

وكان هذا التشابك العجيب يحمل فى طياته بذور كافة المشاحنات التى ظهرت بعد الحرب كما أنه كاد أن يؤدى بالجيش الاسرائيلى الى كارثة حقيقية وأخذ الجنود اليهود يقولون « لقد وقعنا بين مقاعد جنرالاتنا » .. وقال الجنرال ماتا يتاهو بيلد المعلق العسكرى المتزمت فى صحيفة « معاريف » أن هذا الموقف يعد النتيجة المؤسفة لسياسة تجديد شباب الكوادر بأى ثمن والتى تطبق منذ عام ١٩٦٧ واضاف أن تجديد شباب القيادة كان ايجابيا طالما انه لم يكن يتم بسرعة .. ومع ذلك فان هذا المبدأ كان محل اجلال فعلى وكان تبديل القيادات العليا يتم بمعدل مثير للدهشة .. وكان كبار الضباط يتلقون أمرا بمغادرة الخدمة العسكرية دون أن تجرى هذه التنقلات وفقا لتنظيم محدد واجراءات معروفة .. لقد أصبح التعديل قمة فى حد ذاته .. وقد وصل الأمر الى حد قياس امتياز رئيس الأركان بعدد الجنرالات الذين كان يتمكن من استبعادهم من الخدمة العسكرية ولا شك أن هذه الظاهرة كانت مرتبطة بالواقع المذهل الذى شهدناه منذ بدء المعارك فقد عاد عدد من كبار الضباط الذين كانوا قد أحيلوا الى الاستيداع دون أن تسند اليهم مهام عاجلة ، لكى يخدموا فى كافة انواع المهمات غير الواضحة التى كان اسمها المشترك « مساعد رئيس أركان الحرب » .

بيد أن الموقف يمكن ان يتلخص بطريقة اخرى فمنذ عام ١٩٦٧ أصبح لقب « الجنرال » يتمتع بقيمة ذهبية فى السياسة الداخلية الاسرائيلية . وكانت اعادة الضباط الى الحياة المدنية وتعيين ضباط كبار غير متماسكين لا تسفر عن تعبئة خبراء فى الشئون العسكرية لا يتصفون بالكفاءة فحسب بل أنها كانت تخلق أعداء سياسيين فالقطاع الشمالى من الجبهة الجنوبية يتألف من أعضاء حزب العمل بينما القطاع الوسط يضم أعضاء كتلة ليكود ولم يسبق للجيش الاسرائيلى على مر التاريخ كله ان وجد نفسه فى مثل هذا الموقف .. فأين الوحدة المقدسة أمام الحرب ؟

وفى الثانى عشر من أكتوبر وبينما تعلق الأمر يبحث مدى ملاءمة القيام بهجوم مضاد جرت المناقشات وسط هذا الجو المليء بالسموم .. فقد عارض دافيد اليعازر وحاييم بارليف وموشى ديان فكرة عملية الهجوم المضادة وقالوا « ان كل يوم يمر يساعد على تدعيم قواتنا فى سيناء بفضل الوحدات التى تصل من الجولان . وفى الوقت نفسه تأخذ القوات المصرية على الضفة الغربية فى التناقض ولذلك لا بد أن ننتظر » وهاجم أريل شارون هذا الحذر بعبارات عنيفة وايده فى ذلك خبير فى سلاح المدرعات ليس مشهورا بدرجة كبيرة ، ولكنه يحظى باحترام بالغ وهو افراهام تامير . غير أن ذلك لا يكفى لقد رفض المشروع الخاص بالهجوم المضاد الفورى رغم الضوضاء التى تجيء من الخلف وتطالب فى سذاجة القيام بعمل سريع فى الجنوب .

وكان رجل الشارع فى اسرائيل يرى أن تسوية مسألة الجولان تعد بلا شك ضرورة استراتيجية .. (وكان الجنرال موشى ديان قد قال « لو فقدنا الجولان سنفقد اسرائيل » ولكن الجبهة الجنوبية تعد محملة بالرموز .. فعلى هذه الجبهة أهينت اسرائيل وهزمت فى السادس من اكتوبر وعلى هذه الجبهة نجحت الخطة « الميكيافيلية » للعرب بصورة مثيرة اذ يتعين أن يسترد الجيش الاسرائيلى بسرعة على هذه الجبهة شهرته كجيش « لا يقهر » اذن فانه على هذه الجبهة — وليس فى الجولان — يحتاج الاسرائيليون الى بطل جديد يحقق النصر لكى يحل فى الضمائر — دون أن يكون هذا الأمر مثيرا للأسف — محل أسطورة ديان التى انهارت .

ان آرييل شارون يدرك هذا الأمر تماما ..

ولم تبدأ عملية الهجوم المضادة الحقيقية الا فى فجر يوم الأحد الرابع عشر من اكتوبر وبناء على مبادرة المصريين انفسهم .. ففى السادسة صباحا وبعد اعداد للمدفعية استغرق تسعين دقيقة بدأ الجيشان الثانى والثالث هجومها الثانى الكبير فى الحرب . فقد أصبح لديهما خمسمائة دبابة اضافية أى أن مجموع قطع مدرعاتها قد بلغ الألف .. كما يملك الاسرائيليون — الذين تلقوا

دبابات عديدة من الجولان ـ عددا مقاربا .. واصبح ميدان المعركة على جبهة قناة السويس يضم فى ذلك الصباح عددا من المدرعات يفوق تلك التى اشتركت فى حرب العلمين .. واندفعت قوات المشاة المصرية نحو الممرات الثلاثة فى سيناء تسبقها المدفعية طويلة المدى من عيار ١٣٠ و ١٦٠ وتساندها تكتيكيا الطائرات الميج وسوخوى ٢٠٠ وتركز الجهد الاكبر على ممر الجدى . وكان هجوما ينطوى على خطورة ضد المواقع الاسرائيلية التى دعمت بقوة من السادس من أكتوبر . غير أن أحمد اسماعيل والشاذلى قد استجابا لمتطلبات عديدة حينما تخليا عن صدرهما الأول .

لقد كان الهدف يتمثل فى بداية الأمر فى توسيع « رأس الجسر » المصرية فى سيناء والوصول الى الأهداف التى كانت مقررة أساسا اذا ما امكن ذلك ان احمد اسماعيل يحتاج الى مساحة أكبر لكى يثبت موقفه نهائيا على الأرض .. التى استردها وينظم عمليات امداد قوية قبل وقف اطلاق النار ويفسح المجال أمام مدرعاته . بينما فى الجانب الآخر لاسرائيل كانت الجيوش العربية على الجبهة الشمالية (القوات السورية والعراقية والاردنية والمغربية) فى موقف سىء وكانت فى حاجة الى من يخفف العبء عنها . واخيرا وبصفة خاصة فان الجسر الجوى الأمريكى الذى بدأ يمد اسرائيل باحتياجاتها منذ الأمس قد يغير التوازن التكنولوجى الذى كان فى صالح العرب حتى الآن . وبعد ان تخلص الجيش الاسرائيلى من السوريين سيحصل ايضا على امدادات أفضل .

وقد تأخرت واشنطن فى الرد على مطالب القدس (١) التى كانت فى حاجة الى معدات غير انها بدأت فى الثالث عشر من أكتوبر تنفذ عملية كبيرة للامداد بالأسلحة والذخيرة لتعويض الخسائر الفادحة التى تكبدها الجيش الاسرائيلى فى أسبوع واحد .. وأخذت طائرات الشحن « سى ٥ ايه جالاكس » التى تبلغ حمولتها مائة طن والطائرات من طراز « لوكهيد سى ١٤١ » التى جاءت من بنسيلفانيا أو اركانساس أو من قاعدة رامستاين الجوية فى المانيا الاتحادية تفرغ يوميا معدات حديثة فى مطار اللد وفى مطارين حربيين يقعان بالقرب من تل ابيب ..

وذلك بالاضافة الى الدبابات من طراز « ام ٦٠ » والطائرات الستة والثلاثين من طراز ايه ٤ سكاى هوك ٣٢ طائرة اتساع فانتوم حصلت اسرائيل على أسلحة حديثة ومتطورة تساعدها على شق جدار الصواريخ الروسية الصنع .. وكان جهاز « تيسيو » الذى يركب فى طائرات الفانتوم

(١) كانت القدس قدطلبت من واشنطن منذ السابع من أكتوبر امدادات من الأسلحة والذخيرة وبالرغم من الضغوط الهائلة التى مارستها جماعات الضغط اليهودى الأمريكية برئاسة جاكون جافيتس ، نائب نيويورك . استطاع كيسنجر اقناع نيكسون بعدم تلبية هذه الرغبة مباشرة اذ أن كيسنجر كان يريد أن تظل هزيمة اسرائيل محدودة .

يجعلها تكتسب فعالية متزايدة .. أما الصواريخ جو أرض من طراز مافيريك التي توجهها كاميرا تليفزيونية ذات فعالية أكيدة ولا يمكن لأي سلاح أن يجابهها والمائتا صاروخ من طراز « تاو » المضادة للدبابات والقنابل التليفزيونية فقد كانت قادرة على مجابهة كل الأسلحة السوفيتية والتغلب عليها ..

كما حصلت اسرائيل على صواريخ جو جو من طراز سبارو وهوك وشرايك وسيدوندر وكذلك على اجهزة حديثة للتشويش على الالكترونيات (اى ـ س ـ ام) وهى اجهزة قادرة على تضليل أجهزة الرادار المصرية . وكان هذا التدفق الهائل من الأسلحة الامريكية يرد على الجسر الجوى السوفيتي الذى يزود الجيوش العربية بالسلاح منذ التاسع من أكتوبر ابتــداء من قاعدتي أوكرانيا والقوقاز وقد أرسلت الدولتان العظيمان خلال الخمسة عشر يوما الأولى من الحرب اكثر من ١٦٥٠٠ طن من الأسلحة الى الاطراف المتحاربة .. واصبحت منطقة الشرق الاوسط حقلا هائلا للتجارب بالنسبة للتكنولوجية الحديثة تجرى فوقه عمليات الرصد الدقيقة للأقمار الصناعية ومراقبــة طائرات التجسس الأمريكية من طراز لوكهيد اس آر ٧١ ايه . ولكن اذا كانت الأسلحة التى تمد بها الولايات المتحدة الامريكية اسرائيل أقل من الاسلحــة السوفيتية التى ترد الى العرب من حيث الكيف فانها كانت أكثر تطورا لدرجة تكفل لها ان تقلب الأوضاع فى سيناء .. هكذا كان الهجوم المصرى الذى بدأ فى الرابع عشر من اكتوبر سباقا ضد الزمن ... فقد اندفع الآلاف من جنــود المشاة الذين يساندون مدرعاتهم عبر الثلاثين كيلو مترا من الرمال التى تفصل بين الممرات الثلاثة .. وكان اندفاعهم فى موجات متتابعة معرضــة للخطـر وانقضوا على المواقع الاسرائيلية الكامنة فى ثنايا ميدان القتال .. وقد وقــع أعنف هجوم على هضبة جبل شيقا التى بين ممر الجدى وبحيرة التمساح .. وفى الشمال كانت طائرات الهليكوبتر تهبط الكوماندوز عند الخطوط الخلفيــة الاسرائيلية وقد تحملتها الوحدات الاسرائيلية وفى مساء اليوم نفسه كان الجهد المصرى قد فشل على نحو واضح واعلنت تل ابيب يوم الأحد ان القــوات الاسرائيلية دمرت مائتى مدرعة .. أما القاهرة فقد اكدت أن القوات المصرية دمرت مائة وخمسين دبابة واسقطت اربعا واربعين طائرة اسرائيلية واستردت أراضى واسعة بعد هجوم استمر اثنتى عشرة ساعة (١) .. وتحتوى هــذه الجملة على جزء من الهزيمة المصرية المقبلة . وكان بارليف واليعازر وجونين لا ينتظرون سوى هذا الهجوم المضاد فقد أسفر عن جعل الوحدات .. المدرعة المصرية واضحة .. وبعد أن أضعفت الخطوط المصرية وتجردت مؤخرتها من القوات واصبحت هذه الخطوط معرضة الآن لعملية هجوم مفاجىء ..

---

(١) صحيفة الأهرام المصرية ـ عدد ١٩٧٣/١٠/١٥ .

لقد أصبح فى الامكان البدء فى تنفيذ « عملية الدفرسوار » ..

وفى فجر يوم الاثنين الخامس عشر من أكتوبر كان اليعازر وبارليف وجونين مجتمعين فى غرفة محصنة تحت الأرض فى سيناء حيث عرضوا على حوالى ثلاثين من كبار الضباط فى الجبهة الجنوبية تفصيلات المناورة .. وهى تتطلب تعبئة فرقتين متداخلتين : فرقة شارون وفرقة برين فالثانية تكمل الأولى من الناحية العملية .. وكان على شارون أن يخترق الخطوط المصرية ويعبر المر المائى ثم يقيم على الجبهة الغربية لقناة السويس راس جسر تمر منها بعد ذلك مدرعات فرقة برين وقد تم حساب الوقت اللازم داخل نطاق ضيق اذ لابد من أن تنفذ العملية بسرعة لكى تكون هناك فائدة من المفاجأة وتدمير المعدات المصرية قبل تطبيق وقف اطلاق النار ومع ذلك ينبغى أن تكون عملية بالغة الحذر بحيث تتلافى المخاطر غير المجدية وتحد من الخسائر .. ان كل شخص يقتل يؤثر فى اسرائيل . ولن يسعد أحد بانتصار باهظ الثمن ، وعلى الصعيد العسكرى البحت كان الأمر أشبه بالسباق . فهل تنفذ العملية بسرعة أو بحرص ؟ وهل تقبل كافة المخاطر ويراعى تحديدها ؟ وهل تفضل جرأة شارون أو حذر ... رؤسائه ، فقد أثارت عملية الدفرسوار مشاحنات عديدة قبل أن تبدأ ..

وكانت المرحلة الأولى من العملية من اختصاص شارون ولا بد من أن تجرى داخل محيط من الرمال والطرق التى تتسم طوبوغرافيتها بأهمية .. ويقع موقع ــ اوجدا ــ فى القطاع الاوسط ــ وتازا ــ على مستوى خط الممرات .. واعتبارا من هذا النتوء تهبط صحراء سيناء حتى القناة بتدرجات متتابعة تجعلها شبيهة والسلم الكبير الذى تنخفض كل من درجاته لمهمة خاصة .. فالدرجة الأولى تتزاحم فيها الأعمال العديدة التى تقوم بها مؤخرة الجيش : قوافل من عربات النقل وعربات الجيب على الطريق الموازى لقناة السويس وسباق سيارات الاسعاف وجنود الاتصال تلك النقاط السوداء التى تتلاقى وتختفى أحيانا وسط الدخان الذى يتصاعد من طلقات ستار المدفعية المصرية. وفيما وراء هذا الخط توجد خطوط المدفعية الاسرائيلية التى تبدو مجللة بالسواد وتصطف على الرمال مثل البيادق ثم المدافع الذاتية الحركة من عيار ١٥٥ و ١٧٥ ملليمتر والتى تشبه السلحفاة السوداء يلى ذلك خط آخر نحو القناة ثم نجد الأمور يختلط بعضها ببعض وسط السحب الدائمة التى يكونها الدخان المتصاعد من الانجارات .. ثم تجىء بعد ذلك دبابات الخطوط المتقدمة التى تصطف بعضها بجوار البعض كخط مستقيم مرسوم بالنقاط .. وبعد ذلك تبدأ خطوط الجيش المصرى المضغوط بالقرب من شاطىء القناة .. ويتفرع من تازا طريقان يتجهان الى قناة السويس أحدهما يوصل الى

الاسماعيلية والثانى يقع فى الجنوب وينتهى عند الشاطىء الشرقى للبحيرات المرة الكبرى حيث يلتقى بالطريق الشمالى الجنوبى الموازى للشواطىء وقد اطلق الاسرائيليون على هذه النقطة التى يلتقى عندها الطريقان اسم « واى » فمن هذه النقطة يصعد الطريق ثانية نحو الشمال وفى نهاية البحيرات المرة الكبيرة تقع أراضى زراعية مهجورة هى « المزرعة الصينية » (كان خبراء صينيون قد قاموا ببعض تجارب الرى فى هذه الأراضى قبل حرب ١٩٦٧) وإنطلاقا من المزرعة الصينية يخرج طريق يبلغ طوله بضعة مئات من الأمتار وينضم الى شواطىء القناة عند النقطة المحددة نظريا للعبور فى هذا المكان سيتم كل شىء .

وفى مساء الاثنين الخامس عشر من أكتوبر كان المصريون ما زالوا يسيطرون على معظم القطاع .. بيد أن « الدفرسوار » كان نقطة الضعف فى خط الشاذلى . فهذه المنطقة تمثل المفصل الهش بين الجيش الثانى المصرى برئاسة الفريق سعد مأمون والذى ينتشر فى القطاع الشمالى من الجبهة المصرية الذى يمتد من الاسماعيلية الى بور سعيد ، والجيش الثالث المصرى برئاسة الفريق عبد المنعم واصل والذى ينتشر حتى خليج السويس .. ففى هذا المكان وعلى طول البحيرات المرة الكبيرة يوجد نقص ما فى الخطوط المصرية .. لقد كان الفريق الشاذلى يعتقد أن البحيرات المرة التى يبلغ عرضها سبعة عشر كيلو مترا وحقول الألغام المحيطة بها تشكل عائقا كافيا . وحينما تعين على الفريق الشاذلى ان يواجه تلك المشكلة العسيرة التى تتمثل فى تغطية جبهة يبلغ طولها مائة وثمانين كيلو مترا بقوات جيشين فقط اعتقد رئيس أركان حرب الجيش المصرى انه لا ينبغى عليه أن « يبذر » فى نشر قواته أمام البحيرات المرة الكبيرة .. فقد تحركت الفرقة الحادية والعشرون التى تعد امتدادا للجيش الثانى ، الى الجنوب لتقطع الطريق بين تازا والبحيرات المرة ..

وقد استغل شارون هذا النقص خير استغلال يضاف الى ذلك أن النقص كان أكثر خطورة بسبب الافتقار الى التنسيق بين الجيشين المصريين .. والواقع أن سعد مأمون وعبد المنعم واصل كانا يميلان الى أن يسند بعضهما الى البعض مسئولية هذا القطاع « الفارغ » الذى لا يتولى قيادته أحد ..

وكانت الفرقة ١٠١ التى يرأسها اريل شارون تضم — من أجل ربط عمليات هجومها — ثلاثة ألوية مدرعة — لدى كل منها مائة دبابة — ولواء مشاة يدعمه رجال المظلات ووحدة من سلاح المهندسين مزودة بالبلدوزرات والحفارات وقوارب الانزال ذات المحركات والعناصر اللازمة لاقامة الجسور ..

وكانت الخطة تتمثل فيما يلى :

فى بداية الأمر يتعين تحويل أنظار العدو فسيقوم أحد الألوية بمهاجمة الجيش الثانى المصرى عند الشمال الشرقى لكى يجتذب جزءا من قواته . وبرغم « الامتداد » الذى يسد الطريق الموصل الى القناة على أن ينسحب من مكانه ثم يتقدم لواء ثانى فى الوقت نفسه الى الجنوب وسط التلال الرملية ويمر عبر الجيشين المصريين ليصل الى الطريق الموازى للبحيرات المرة الكبيرة ثم يفاجىء « الامتداد » من الخلف اعتبارا من « المزرعة الصينية » ويدفع الفرقة الحادية والعشرين من الطريق ويضمن السيطرة على الطريق بأن يعود نحو تازا لكى يرتبط ببقية الفرقة ١٠١ .. وسيتعين على جزء من هذه المدرعات أن يمتد الى الشمال بأقصى درجة بحيث يخلى محور تازا ـ الدفرسوار ، ويسيطر على هذا الممر الذى يبلغ عرضه عدة كيلو مترات .. وفى ذلك الوقت يصبح فى وسع وحدات سلاح المهندسين ورجال المظلات والدبابات التابعة للواء الثالث أن تتجه الى قناة السويس فى أمن كامل .. ثم يعبر رجال المظلات قناة السويس على زوارق الانقاذ التى يستخدمها الطيارون ثم تمر بعدهم بضع دبابات على الزوارق ذات المحركات بينما يبدأ الخبراء فى سلاح المهندسين على الفور فى بناء جسر . وكان تحديد هذه المناورة كلها التى يتعين أن تبدأ فى المساء ، بالغ الدقة : اذ يتعين على شارون أن ينتهز فرصة الظلام لكى يقيم راس جسر قوى قبل شروق الشمس ولكى تحترم الآجال المحددة ينبغى أن يندفع رجال المظلات عبر قناة السويس فى الحادية عشرة مساء على أكثر تقدير . ويعنى ذلك انه فى أقل من ثلاثمائة دقيقة يجب على اللواء المدرع الثانى أن يعبر ٣٥ كيلو مترا من الكثبان الرملية ويشن الهجوم على طريق تازا وينضم الى وحدات سلاح المهندسين ورجال المظلات ويصل بهم جميعا الى القناة . انه لرهان ..

أما البلدوزرات التابعة لسلاح المهندسين وجنود اقامة الجسور فانه يتعين عليهم فى فترة قياسية أن يفتحوا ثغرة كافية فى الرمال المتراكمة وينتهوا من اقامة الجسر العائم قبل أن تبدأ عمليات الهجوم المصرية المضادة .. وقد طمأن شارون الجميع وقال لهم « ستجدون الطوب الأحمر فى المكان المناسب .. وستجرى الأمور على ما يرام » وكان الأمر كذلك .

ففى الساعة الخامسة بعد الظهر كانت الشمس قد بدأت تغرب فى سيناء حينما بدأت القوات الاسرائيلية فى تنفيذ خطتها ..

وتقدم اللواء الأول المكلف بعملية تحويل أنظار العدو لكى يقابل المصريين فى الشمال الشرقى ثم بدأ الاشتباك على الفور .. وكان الظلام يضايق جنود المشاة المصريين مما جعلهم لا يتمكنون من ضبط تصويب صواريخهم .. وكانت

آثار الرصاصات المزودة بمادة مضيئة تتلاقى بينما معارك الدبابات وعمليات القصف تضيء الكثبان الرملية .. وكان مصهرا قد انفتح غربى تازا .. ووقع سعد مامون فى الفخ ونقل بعض قواته الى الشمال .. وكما كان مقررا انطلق اللواء الثانى فى الوقت نفسه صوب الجنوب . وتقدمت الدبابات والعربات المصفحة نصف جنزير التى ترافق القوات وقد أطفأت نيرانها واستغلت بمهارة اى تلة طبيعية وسارت فى ثنايا الكثبان الرملية بجوار الأماكن المنخفضة .. وخلال بضع ساعات كانت هذه القوات قد وصلت الى الطريق الممتد على طول البحيرات المرة دون ان تواجه اية مقاومة .. ثم تمكن هذا اللواء ، الذى كانت مسافة سبعة عشر كيلو مترات من المياه تحمى جانبه الأيسر ، من الصعود نحو الشمال والوصول دون صعوبة الى النقطة « واى » اى الى نهاية طريق تازا .. وها هى قد وصلت خلف الفرقة الواحدة والعشرين المصرية ..

وانقسمت المدرعات بعد ذلك الى ثلاث قوى غير متساوية .. واتجهت الأولى نحو تازا ومؤخرة القوات المصرية .. وتحولت الثانية نحو القناة لكى تضمن الوصول الى الشواطىء .. اما القوة الثالثة التى تضم معظم القوات فقد قصدت الى الشمال نحو « المزرعة الصينية » بحيث يتم توسيع « الممر » .

وكانت مفاجاة اولى تنتظر الاسرائيليين ..

لقد بدت مقاومة المصريين عند هذا الطرف الجنوبى من الجيش الثانى أكثر عنفا بكثير مما كان متوقعا .. فقد احتمى جنود المشاة فى « المزرعة الصينية» فى المواقع الاسرائيلية القديمة واخذوا يطلقون وابلا من الصواريخ .. وقد انتشرت مدرعات الجيش الاسرائيلى بسرعة خارج الطريق واشتركت فى اشتباك صعب استمر ثمانية واربعين ساعة دون توقف تقريبا .. وقد ادى ذلك الى حدوث تأخير بالغ الضرر فى سير خطة « شارون » والواقع أن المرور من الممر الاستراتيجى الى قناة السويس لم يتمتع بالأمن فى اية لحظة .. وكادت عملية الدفرسوار تتحول الى مأساة ..

وفى منتصف الليل نجحت القوة التى كانت متجهة الى تازا فى القضاء على بقايا الفرقة الواحدة والعشرين ثم الى اقامة نقطة الاتصال بينها وبين اللواء الاحتياطى الذى يضم المشاة وسلاح المهندسين .. وقامت هذه القوة بنصف دورة ثم اصطحبت جميع وحداتها فى اتجاه قناة السويس عبر طريق ضيق ملىء بمدافع الهاون والمدفعية والصواريخ العربية وهو طريق كان يتعين اخلاؤه ..

والواقع أن شهادة المراسلين العسكريين الاسرائيليين الذين رافقوا فى تلك اللحظة الوحدات الرئيسية تعكس فكرة عن حالة عدم الاحساس بالأمن التى سادت فى تلك اللحظة وظلت لمدة يومين تخيم على هذا « الممر الاستراتيجى » الذى لم تخله المدرعات كما ينبغى ..

ويروى ميشيل بارزوهار ماحدث فيقـــول : « وانطفأت جميع النيران واستمرت قافلتنا تسير فى الممر فى اتجاه الأضواء الحمراء والدخان المتصاعد من خلف آخر خط للتلال . وقد أخـــذنا بسرعة بضع عشرات من الزوارق المطاطة التى كانت منفوخة بالفعل وسارت فى مقدمة القافلة كتيبة من الدبابات ووحدة استطلاعية تنقلها عربات مصفحة ومجنزرة لكى تشق لنا طريقا حتى الممر المائى .. وفجأة تلقينا الضربة الأولى لقد وقع المشاة الذين كانوا يرافقوننا فى كمين من الدبابات المصرية . وأصيبت معظم دباباتنا فى هذا الاشتباك القصير .. وقد لقى بعض رجال سريتنا مصرعهم كما أصيب الآخرون ومع ذلك كان الوقت لا يسمح بتوقفنا ودارت عرباتنـــا المجنزرة حول الدبابات المحترقة وواصلت طريقها الى الأمام .. وكان من قبيل المعجزة أن المصريين لم يتنبهوا الى روادنا الذين وصلوا دون ازعاج الى ضفة القناة . ولكن حينما تقدمت معظم قواتنا بعربة القيادة المصفحة والمجنزرة انهالت علينا نيران جهنمية .. لقد كان الوادى الرملى الذى يفصل بيننا وبين قناة السويس مليئا بالجنود المصريين الذين أخذوا يطلقون النيران علينا من كل جانب ومن كل سلاح : من قاذفات القنابل والصواريخ والمدافع الرشاشة والأسلحة الخفيفة الخ ...

وكنت أطل من فتحة كبيرة فى مؤخرة عربتنا المصفحة المجنزرة فأرى طلقات الرصاص المزودة بمادة مضيئة حمراء واسمع أصوات البنـادق ذات المدى القصير والمح ظلالا متحركة تروح وتغدو وسط الكثبان الرمليـــة .. وكانت الصواريخ المضيئة المعلقة على مظلاتهم الصغيرة تلقى على قافلتنا ضوءا قويا وكأنها الشمس .. وبعد بضعة تعرجات كانت الطلقات تأخذ فى التناقص .. وقد توقفنا فى مكان يشبه الساحة الكبيرة التى تحمى جوانبها المنحـدرات العالية .. وكنا قد وصلنا أسفل أحد حصوننا التى غزاها المصريون منذ بدء هجومهم .. وقفزنا الى الأرض .. ووجدنا على يسـارنا منحدراً عاليا أخذنا نتسلقه وتسلقت حتى القمة وكانت قدماى تغوصان فى الرمال المتحركة التى كانت تنحدر الى أسفل وحينما وصلت فوجئت بالرائحة النفاذة والمالحة الى حد ما المتصاعدة من الماء .. ووجدت تحت قدمى الشريط الفضى للقناة الذى لا يتحرك وهو يبدو هادئا على نحو غريب . وقمنا بعدة قفزات وصلنا بعدها الى شاطىء الماء ..

وفى الواحدة صباحا عبر مائتان من رجال المظلات قناة السويس ووطأوا الشاطىء الافريقى لمصر . وكان شارون نفسه على رأس هذه القوات . وقد عبرت القوات الاسرائيلية متأخرة ساعتين عن الخطة الأساسية . وفى الثالثة صباحا سمع جنود هذه الطليعة من صرير أجهزة اللاسلكى صوت دافيد اليعازر رئيس أركان الحرب الذى كان يهنىء شارون بنجاح عملية الثغرة ..

بيد أن هذا النجاح وهذه « التهانى » لن تلبث أن أصبحت محل شك ..

لقد اكتشف رجال قوة العمل الذين تقدموا فى الأراضى المصرية مشهدا مفاجئا ومؤثرا يتناقض مع الأماكن الصحراوية المحيطة بسيناء « ان الضفة الغربية تشكل فى هذا المكان واحة حقيقية فاخرة مليئة بالنخيل وشجر الأرز والاوكاليبتوس وتقطعها الينابيع والجنادل .. ان مصادفات الحرب حملت مائتى اسرائيلى الى ركن من الأرض كفيل بتحريك أقل الضمائر اليهودية تدينا .. أن « الجوشين » مذكور فى التوراة : ففى هذا المكان استقر منذ أربعة آلاف عام شارون ويعقوب وأفراد عائلة السبعون .. وجاء فى سفر التكوين « ان اسرائيل كانت تقطن فى مصر فى بلد (الجوشين) حيث كان لابنائها ممتلكات وحيث تكاثر هؤلاء الأبناء الاسرائيليون » ..

وقد اكتشف رجال المظلات فى مساء اليوم نفسه مجمعا من المسطحات والغرف المحصنة تحت الأرض والعوائق التى بنيت بالخرسانة والتحصينات المهجورة ... ولكن لم تعترض قوة عربية واحدة سبيل عمليات الانزال الأولى فقد نقلت معظم القوات التى كانت موجودة فى هذا القطاع الى الضفة الشرقية قبل ذلك بأربعة أيام اما الباقى فقد تراجع من جراء عنف استعدادات المدفعية الاسرائيلية .. واختفى الكوماندوز الذين يرأسهم شارون وسط النباتات الافريقية وكان هؤلاء الكوماندوز بمثابة رأس الدبوس الذى ألقى خلف الخطوط المصرية وبالتالى فقد كانوا تحت رحمة أقل هجوم مضاد . ان الجنود الذين فوجئوا لانهم لم يقابلوا أية مقاومة(١) يمكن مع ذلك أن يلحظوا لو انهم اداروا رؤوسهم أن الأمور لا تسير على ما يرام على الضفة الشرقية التى غادروها لتوهم ... وقال أحدهم « على مسافة قريبة كنا نسمع أصوات القتال : طلقات المدافع ووابل من نيران المدافع الرشاشة والأسلحة الاتوماتيكية كل ذلك مصحوب بأضواء باهرة وأصوات .... متفجرات مدوية . ولم تتوقف المعارك حول « المزرعة الصينية » . فقد توغلت وحدات جديدة من جنود المشاة المصريين حتى نقطة التقاء الطرق الثلاثة وكانت هذه الوحدات مسلحة بالصواريخ وقاذفات الصواريخ . وفى الشمال وفى الشرق ، وفى اتجاه تازا

(١) فلم يقابلوا سوى أربع دبابات مصرية « تقوم بدورية » فى المساء وقد دمرت بفضل مدافع البازوكا ..

كانت الدبابات ما تزال مشتبكة فى الظلام .. وقطع « الممر » المؤدى الى القناة فى بعض أماكنه وحوصرت وحدات سلاح المهندسين ، ومعها قوارب الانزال والبلدوزرات على امتداد عدة كيلو مترات وأوشـك الفجر على الطلوع على الدفرسوار والمزرعة الصينية دون أن تعبر القناة دبابة أو قارب انزال .. كما لم يركب أى جزء من الجسر .. وبالنسبة لما جاء فى الخطة كان هذا الموقف يعد فشلا ..

وكان شارون معزولا على نحو خطير مع قوات المشاة البالغ عددهم مائتى شخص ومع ذلك فقد أخذ يطمئن رجاله ويتمتم قائلا : « لا تقلقوا ان سكرتير ليكود معكم » .. وقال ميشيل بارزوهار « لا يمكن لأحد ان يتخيل كيف كانت هذه الكتيبة الأولى من رجال المظلات ضعيفة ومفتقرة الى الدفاع » ...

وأشرقت الشمس صباح الثلاثاء السادس عشر من أكتوبر حينما كانت الطلائع الأولى من البلدوزرات وقوارب الانزال وبعض أجزاء الجسر تصـل الى القناة فى نهاية الأمر .. وبينما هاجمت البلدوزرات سفوح الركام لكى تفتح الطريق أمام جنود اقامة الجسور وبدأ حوالى اثنى عشر قارب انزال وصلت الى الشاطىء فى الانتقال من ضفة لأخرى لنقل الدبابات .. وانهـالت القذائف المصرية فى أكثر من مرة على الدفرسوار وأغرقت قـوارب وقتلت جنودا .. وكانت العمليات الخاصة بهذا العبور المضاد أكثر خطورة وضررا مما كان متوقعا .. ومع ذلك ففى التاسعة صباحا كان حوالى ثلاثين مدرعـة انتقلت الى الضفة الأخرى ..

ولم يكن الموقف لامعا على الاطلاق . ان « القوة » الاسرائيلية فى الضـفة الغربية تكاد تشكل كتيبة واحدة فحسب . كما ان عنف المعارك التى دارت حول « المزرعة الصينية » توضح أنه لم يعد ثمة أمل فى تحقيق أثر المفاجأة وان المصريين سيحاولون جاهدين أن يسحقوا بأسرع ما يمكن هذه القـوات الاسرائيلية الصغيرة والمحصورة والمقطوعة عن مؤخرتها ...

وعلى القناة لم تتم اقامة الجسر بعد .. ولن تتسنى اقامته قبل حوالى اثنتى عشرة ساعة ذلك ان الكثير من العناصر العائمة التى تستخدم فى اقامة الجسور قد دمرت أو أصيبت على طريق تازا .. وفى هـذه الظروف كانت مواصلة التقدم فى الأراضى « الافريقية » تعد محض جنون ..

وكان ذلك على أقل تقـدير هو رأى جونين الذى أصـدر أمرا لشـارون باللاسلكى يقضى بأن يظل بالقرب من القناة وان يسيطر على هذا القطـاع الصغير حتى تتم محاولة جديدة من أجل جلب عناصر الجسر .. وعلى أية حال فقد رفض جونين أن يرسل فرقة « برين » كتعزيز فى مثل هذه الظروف

السيئة .. وثار شارون وسط قواته المدرعة واعرب عن سخطه .. ولم يكتف برفض اطاعة أوامر جونين الذى « يتخلى عنه » ولكنه رد باللاسلكى على الأوامر التى تلقاها وصاحبت رده ... تعليقات عنيفة ما لبثت أن انتشرت فى اسرائيل كلها ..

أن رأى شارون الذى سيدوى بعد قليل « كومضة عبقرية » لم يكن فى هذا الوقت سوى رهان يتضمن مخاطرة رهيبة . وكان شارون يعتقد أن الأمر الأساسى يتمثل فى المضى بسرعة وبسرعة جدا .. وكانت خطط هيئة أركان الحرب تقضى بأنه بعد أن تنفذ الثغرة يجب أن تمر منها فرقة « برين » وتعبر القناة ثم تسير بخطى حثيثة نحو الجنوب حتى السويس لكى تعزل الجيش الثالث المصرى . وكان من المفروض أن يتوجه شارون وفرقته شمالا لتدمير منصات الصواريخ سام وعزل الجيش الثانى المصرى بالطريقة نفسها .. وهكذا يصبح جيشا أحمد اسماعيل قبل وقف اطلاق النار مجرد « جيوب » محاصرة اسيرة نوع من المرساة ذات الفرعين وقد أدت المعارك التى دارت عند « المزرعة الصينية » وعلى طريق تازا الى اصابة هذه المناورة — الى حد ما — بالفشل . وليكن .. بيد أن شارون فكر صباح الثلاثاء فى ضرورة استغلال الامتياز المتاح والتوغل نحو الاسماعيلية مع الاقدام على كافة المخاطر وارسال فرقة « برين » مرة أخرى كتعزيز وقال « نحن قادرون مع ذلك على أن نقضى عليهم بدون مصاعب » ؟ .

ولكن هل يتسنى ذلك دون جسر ..

وقال شارون « لقد فكرت دائما فى أن هذه الجسور تعد خطأ ... ان قذيفتين تلقيان على جسر واحد تعد كفيلتين لجعله غير صالح للاستخدام لمدة خمس أو ست ساعات (١) .. ويرى شارون أن نظام الزوارق يعد كافيا .. أما فيما يتعلق بطريق تازا الذى يمطره المصريون دائما بالقذائف فقد قال عنه شارون « انه قد لا يخلو من الخطورة ولكنه آمن تماما من الناحية العسكرية » .. وحينما بدأ شارون التوغل فى الأراضى المصرية كان يعرف انه لا يستطيع الحصول الا على القليل من الامدادات المؤخرة ولكنه فى بداية الأمر كان يأمل أن يدمر عددا كبيرا من منصات الصواريخ سام لكى يفتح ثغرة فى سماء المعركة وفى ذلك الحين يمكن لطائرات الفانتوم والسكاى هوك أن تدخل المعركة وتقلب الوضع لصالح الجيش الاسرائيلى .. وخالف شارون الأوامر وترك الأماكن المتاخمة للدفرسوار وتقدم مع الكوماندوز المرافقين له تحت غطاء الجوشين وقد تطلب الأمر اللجوء الى كافة الحيل والاقدام على جميع المخاطر .. وأوفد

---

(١) نيويورك تايمز ١٩٧٣/١١/٨ .

شارون رجال كتيبته فى مجموعات صغيرة لتدمير منصات الصواريخ سسام والمعسكرات المصرية وخزانات الوقود .. وكانت المعارك ضارية وقد جرت فى اغلب الأحوال بالسلاح الأبيض ... واستولى رجال المظلات على مدفعين رشاشين مصريين ذاتيين واطلقوا النيران فجاة على قافلة امدادات .. واطلقت الدبابات القذائف على مؤخرة الجيش الثانى مما بث نوعا من البلبلة . وسرعان ما امتلأ طريق الاسماعيلية ، الذى كان عند ملتقى نيران المدافع المصرية على الضفتين بالجثث الاسرائيلية . ولكن من الغريب ومما يتعذر تفسيره أن هذه « العملية الانتحارية » على الضفة الغربية قد نجحت ففى الظهر تم تدمير أربعة مواقع للصواريخ مما أسفر عن تحرير جزء من السماء فوق القناة ولم يقم الجيشان المصريان بأى هجوم مضاد منسق للقضاء على كتيبة شارون التى كانت فى موقف هش للغاية والتى دخلت بذلك التاريخ العسكرى لاسرائيل

فكيف ولماذا كسب شارون رهانه ؟

ودون ان ننكر على شارون جرأته فلا بد لنا من الاعتراف بأن اخفاق القيادة المصرية فى أيام ١٦ و ١٧ و ١٨ أكتوبر قد ساعده بشكل واضح .. فقد قللت القاهرة لمدة ثلاثة أيام متتالية وعلى نحو لا يغتفر ، من شأن الحقيقة القاسية المتمثلة فى ثغرة الدفرسوار .. ولم يكن لدى سعد مأمون رئيس الجيش الثانى ولا الشاذلى رئيس الأركان ولا أحمد اسماعيل وزير الحربية أية فكرة محددة عن الموقف حتى مساء الثلاثاء السادس عشر من اكتوبر .. والقى الرئيس أنور السادات فى ذلك اليوم خطابا هاما أمام مجلس الشعب ولم يشر بأى حال الى الهجوم الاسرائيلى ولم يذكر البيان العسكرى رقم ٤٣ الذى أذاعته القيادة العليا بعد ذلك ببضع ساعات سوى ان « سبع دبابات برمائية اسرائيلية حاولت عبور قناة السويس » ولم يعلق البيان اية اهمية على ذلك .. وفى مساء اليوم نفسه أذيع بيان عسكرى جديد جاء فيه أنه « .. وقد استمر عدم وضوح الرؤية لعدة أيام .. وفى العشرين من اكتوبر على سبيل المثال وبينما تحول الموقف تماما على قناة السويس كتب معلق صحيفة الاهرام » برباطة جاش يقول « ان هذه العملية الصغيرة تستهدف تحويل الانتباه عن المعركة الحقيقية التى تجرى فى سيناء .. ولا تستحق هذه العملية الدعاية التى اثارتها » .

وفى الحادى والعشرين من اكتوبر فقط ــ عشية وقف اطلاق النار ــ ادرك الصحفيون الأجانب العاملون فى القاهرة مدى أهمية الثغرة الاسرائيلية حينما سمعوا من اللواء عز الدين مختار المتحدث الرسمى باسم الجيش المصرى أن « ثمانين دبابة اسرائيلية قد دمرت على الضفة الغربية » .. ثمانون دبابة ؟ وكم كان عدد الدبابات الاسرائيلية فى مجموعها ؟ .

وخلال هذه الأيام الثلاثة أو الاربعة الحرجة بدا المصريون عاجزين عن تنظيم هجوم مضاد منسق من أجل القضاء على « رأس الدبوس » التى فى مؤخرة قوات الشاذلى على طريقة المثقب المنشارى وربط هذا النزيف الداخلى الذى يدمى الجيش المصرى شيئا فشيئا . .وحينما بدأ احمد اسماعيل يتصرف كان الوقت الملائم قد مضى .

ويرجع القصور فى القيادة أولا الى عدم كفاية المعلومات الواردة من الجبهة والبطء البيروقراطى لأجهزة النقل . وفى مساء السادس عشر من أكتوبر حين خرج أحمد اسماعيل من مركز القيادة الذى يقع تحت سطح الأرض فى القاهرة لكى يتوجه مع الرئيس أنور السادات الى مجلس الشعب لم يكن يعرف شيئا عن الثغرة الاسرائيلية (وقد أعلن ذلك بعد الحرب) . . وحينما عاد الى مركزه فى ساعة متأخرة من المساء أبلغ « بتسلل عدد صغير من الدبابات البرمائية » . . والواقع أنه فى الجيش المصرى ، الذى يشل حركته التدرج المتشدد ، لم يكن من المستطاع القيام بأية مبادرة خارج القيادة العليا التى « تتابع » سير الحرب من مركز قيادة تحت سطح الأرض يقع على بعد حوالى مائة كيلو متر عن خطوط القتال . ولا توجد أية قيادة عملية على الجبهة كما أن أية « مخالفة » ــ حتى لو كانت مجزية كمخالفة شارون تعد أمرا لا يمكن أن يخطر على البال . . ولكى يتسنى شن هجوم مضاد ضد « الجيب » يشترك فيه الجيشان الثانى والثالث كان الأمر يتطلب مجموعة من الأوامر المكتوبة والاختام التى تنقل بصعوبة من أقصى الهيراركية حتى اقصاها . وقال احمد اسماعيل بعد ذلك « اعترف بانه لكى تكون البيانات مطابقة للقاعدة التى التزمت بها منذ بدء الحرب وهى انه يتعين اعلان الحقيقة وحدها او ــ لكى نكون صرحاء ما يقرب من الحقيقة . . وفيما يتعلق بالثغرة فقد أعلنا ما كنا نعتقد انه حقيقى والواقع انه كانت لدينا فكرة خاطئة عن الموقف لقد ترتب على تبديل مسئولية بعض القيادات ــ وهو الاجراء الذى اضطررنا الى اتخاذه ان قطعت الاتصالات (١) .

والأمر الغريب يتمثل فى أن التشكك نفسه قد ساد الجانب الاسرائيلى لمدة عدة أيام . . وكان هذا التشكك انعكاسا للاضطراب الذى ثار فى ميدان المعركة من جراء الفشل الجزئى للمرحلة الأولى من عملية الدفرسوار والخلاف بين شارون وجونين .

وفى مساء السادس عشر من أكتوبر كانت جولدا مائير ترد بطريقة غير مباشرة على خطاب السادات بخطاب القته أمام الكنيست وفاجأت النواب

---

(١) فى حديث أدلى به لمحمد حسنين هيكل ــ الأهرام ديسمبر ١٩٧٣ . .

الذين استولى عليهم الذهول بقولها « إن الجيش الاسرائيلى يعمل حاليا على الضفة الغربية لقناة السويس » .. ولكن لا أحد فى اسرائيل كان يدرك حقيقة ما يجرى . وكتبت صحيفة « هاآرتس » فى اليوم التالى تتساءل ما هو حجم هذه القوات ؟ وما هو الهدف المطلوب التوصل اليه ؟ ان كل ذلك يختفى وراء حرب تختلط فيها الأمور وظلت تل أبيب لا تعرف المزيد لمدة ثلاثة أيام .. وخيم الصمت على الدفرسوار ومنع المراسلون مرة أخرى من التوجه الى طرق سيناء .. ولكى يصف بيت سكولوف هذه العملية الغريبة التى لم تصبح راس جسر بعد والتى تقتصر على كونها مجرد عملية كوماندوز اخترع عبارة غامضة هى « قوة العمل » الاسرائيلية .. ومن يوم الثلاثاء وحتى الخميس كان مصير قوة العمل الاسرائيلية الوهمية ما يزال سرا لم توضحه التصريحات الغامضة التى أدلى بها الجنرالات الاسرائيليين . وقد أجاب موشى ديان بامتعاضة على الصحفيين الأمريكيين الذين سألوه فى هذا الشأن بقوله « أنه السؤال ذو الثمانية والستين دولارا » .

ومع ذلك فان السحب الكثيفة التى كانت تحيط « بالهجوم المضاد » الذى قام به الجيش الاسرائيلى فى الضفة الجنوبية كان لها ما يبررها .. وطوال هذه الأيام كانت عملية شارون تبعد بمقدار خيط رفيع عن النجاح . كما ان الانتصار يمكن أن يتحول من لحظة الى أخرى الى كارثة . واذا كان الجنرالات الاسرائيليون يدلون باجابات غير محددة فان مرجع هذا انهم ليسوا على ثقة من شيء .

وفى مساء الثلاثاء قام الجيش المصرى بهجوم مضاد ليس ضد «الجيب» الاسرائيلى ولكن خلفه على الضفة الشرقية للقناة .. فقد اقترب الجيشان الثانى والثالث وضيقا الخناق على « الممر » الذى يصل بين الدفرسوار وتازا وتم ايفاد قوات مشاه جديدة الى « المزرعة الصينية » لكى تحاول سد الثغرة خلف شارون واحتدمت المعارك وازدادت عنفا وعلى القناة اضطر جنود سلاح المهندسين الذى يعملون فى تركيب الجسور العائمة ، الى ايقاف تنقلاتهم بعد أن انطلق عليهم طوفان من القذائف وابتداء من ذلك الحين لم تحصل قوة العمل على أية امدادات وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة المتوفرة لشارون هى جهاز اللاسلكى .

وحتى صباح الأربعاء لم تكن « معركة المزرعة الصينية » قد انتهت بعد وتمكن الجنود الاسرائيليون بهدوء ومشقة من ان يقللوا شيئا فشيئا من مقاومة الخصم .. وعلى بعد بضعة مئات الامتار وعلى القناة حيث تطفو آلاف من الأسماك التى قتلتها الانفجارات استأنف الجنود اقامة الجسور

رغم الطلقات المستمرة للمدفعية المصرية والغارات العنيفة التى كانت تشنها طائرات الميج المصرية ولم يتم شىء حتى الآن .

وكانت الجراة الفظيعة التى ابداها شارون عملا مثمرا فقد استغلت طائرات الفانتوم الاسرائيلية « الفتحة » التى احدثها رجال المظلال فى ستار الصواريخ المصرية واطلت طائرات الفانتوم فى الأفق واسقطت طائرات الميج المصرية الواحدة تلو الأخرى .. لقد كان ذلك هو الانتقام الكبير الذى قام به الطيارون اليهود الشبان . وفى الوقت نفسه تدخلت الطائرات القاذفة من طراز سكاى هوك فى مساندة تكتيكية لكى تسحق الوحدات المصرية التى اصبحت تفتقر الى غطاء . وعادت السماء الى اسرائيل وعلى ضفتى قناة السويس هب الجنود الاسرائيليون ، ونظراتهم غير موجهة الى شىء بالتحديد ليصفقوا تصفيقا مدويا لهذا التحول الحاسم فى المعركة . وقال احدهم « انه لموقف يشبه ما يحدث فى مباريات كرة القدم » فقد ادخل شارون قاعدة جديدة فى الفن العسكرى اذهلت جميع واضعى الاستراتيجية المتخصصين فى جميع أنحاء العالم وهذه القاعدة مؤداها أنه فى حرب تسيطر عليها الصواريخ فان قوات المشاة وحدها هى القادرة على تحرير السماء وفى عصر الصواريخ سام واجهزة التوجيه الالكترونية عاد المشاة ليصبحوا أسياد المعركة » .

وفى ظهر الأربعاء السابع عشر من اكتوبر وبعد تأخير يقدر بثلاثين ساعة أقيم الجسر العائم الأول ليصل بين ضفتى قناة السويس ثم اقيم جسران آخران بجواره .. وهكذا تحولت قوة العمل الى راس جسر ..

وما لبث اللواء الأول من الوية الجنرال ابراهام آدام الثلاثة والمسمى « برين » أن انطلق فى أراضى الضفة الغربية . وهكذا اتسع الجيب الاسرائيلى بسرعة مذهلة . وشن المصريون عمليات هجوم مضادة عنيفة على جانبى القناة بيد أنها ردت على أعقابها .. ان النظام الذى بداه شارون أصبح غير قابل للتغيير فى الوقت الراهن .. وبفضل التعزيزات التى وصلت الى الضفة الغربية اصبحت عملية تقويض مؤخرة القوات المصرية امرا ذا فعالية متزايدة واحتلت القوات الاسرائيلية ميناءى فايد وأبو صوير وبفضل هذين الميناءين تسنى اقامة جسر جوى حقيقى استخدمت فيه الطائرات ذات المحركين من طراز اس ١٢٣ وطائرات الهليكوبتر الثقيلة التى تساعد على زيادة سرعة عملية نقل المعدات الاسرائيلية الى الضفة الغربية وفى الحادى والعشرين من اكتوبر كان على الضفة الغربية ١٢٠٠٠ جندى و ٣٠٠ دبابة ــ وبعد يومين أصبحوا ٢٠٠٠٠ جندى و ٥٠٠ دبابة .

وفى تل أبيب بدأت شائعات النصر تنتشر منذ الثامن عشر من أكتوبر .. فقد استقبل الجنرال ساسون اتسشاكى بعد ظهر يوم الخميس مجموعة أولى من المراسلين فى معسكر بالوظة فى القطاع الشمالى من القناة وتحدث اليهم ملمحا الى « ان الهجوم المضاد العام أصبح وشيكا » . وفى اليوم نفسه وفى مكان يقع فى جنوبى الجبهة كان الجنرال ديان يقف مغتبطا مع بعض المراسلين الامريكيين وقال « لقد قلل المصريون من شأن قدرتنا على الانتقال بسرعة الى الهجوم المضاد . وفى يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر شاهد الاسرائيليون فى الصحف المسائية وفى التليفزيون الصور والمشاهد الأولى التى التقطت على « الضفة الغربية » .. وقد ظهر شارون فى احدى الصور وهو يبتسم وقد عصب رأسه (اذ أصيب بشظية) وبرفقته موشى ديان الذى جاء لكى يتفقد رأس الجسر . وها هما منتصر الأمس ومنتصر اليوم وقد « صالحهما » العصر .

أهو نصر حقيقى ؟ أم هى مصالحة حقيقية ؟ ..

ان الجهود التى بذلتها الأجهزة التابعة للمتحدث العسكرى منذ التاسع عشر من اكتوبر بهدف الحيلولة دون أن تأخذ « أسطورة شارون » ابعادا مثيرة للقلق (فقد رفع اسم شارون بطريقة تعسفية من البرقيات المقرر اذاعتها فى الخارج) كانت تدل على أن هذه الضربة المفاجئة كانت مشبعة بالسياسة .. ألم ينتصر اليمين على جبهة القناة فى حرب لم يتمكن اليسار من أن يتوقعها؟ الا تعنى الشعبية المفاجئة التى اكتسبها شارون زوال حظوة بطل الأمس موشى ديان الذى هزئت منه الجماهير علانية فى شوارع القدس ؟ هل كانت كافة المشاجرات التى ثارت حول سير العمليات خالية من المضمون ؟ بالطبع لا ..

وجرت مناقشات قاسية حول التأخير فى عملية الدفرسوار وهجوم شارون على جونين خاصة وان الدول الكبرى تستعد منذ السابع عشر من اكتوبر لكى تسرق من اسرائيل ثمار نصر أصبح على مرمى المدفع .. وبينما اندفعت مدرعات الجيش الاسرائيلى باقصى سرعتها على الضفة الغربية لكى تحاصر الجيشين المصريين المهددين بالابادة بدأ الدبلوماسيون يعملون ..

ولا يمكن لموسكو أن تقبل أن تتحول خطة بدر التى أيدتها طوعا أو كرها الى كارثة بالنسبة لمصر .. أما كيسنجر فانه يعرف أن تحقيق نصر اسرائيلى للنزاع واقرار « تعنت » القدس وتكبرها . وحينما وصل وزير الخارجية جديد له مثل هذا البريق سيكون من شأنه ابعاد فرص التسوية السياسية الأمريكية فى العشرين من اكتوبر الى موسكو حيث « استدعاه » بريجنيف

« كان الموقف بالغ الوضوح أن الرجلين متفقان على فرض وقف اطلاق النار في الشرق الأوسط باسرع ما يمكن » قبل أن يتسنى لأحد الخصمين (اسرائيل) أن يسحق خصمه .

وبدأ سباق غريب في السرعة بين مدرعات « برين » التى اتجهت نحو السويس والطائرة الخاصة التى يستقلها كيسنجر والتى أخذت تنتقل من عاصمة الى أخرى بهدف تجميد الموقف في جبهــة القتــال .. وفى الحادى والعشرين من اكتوبر وبينما بعث بريجنيف برقية الى السادات يلزمه فيها بقبول وقف اطلاق النار اجرى كيسنجر أتصالا تليفونيا مع جولدا مائير التى توقعت غضب الاسرائيليين الذين سيحرمون من نيل ثارهم فطالبت بمهلة قدرها ثلاثة أيام قبل تنفيذ وقف اطلاق النار ولكن بلا جدوى وحينما أبلغ نيكسون بريجنيف ـ عن طريق كيسنجر ـ بطلب رئيسة وزراء اسرائيل رفض رئيس الحزب الشيوعى السوفيتى وطالب بوقف اطلاق النار فورا والا تدخل الاتحاد السوفيتى عسكريا وعاود نيكسون الاتصال تليفونيا مع جولدا مائير بينما اتجه كيسنجر الى تل أبيب وقد قرر أن يحصل على موافقة الاسرائيليين المباشرة على الحجج الأمريكية . وفى اليوم التالى ، ٢٢ اكتوبر قدمت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى معا قرارا الى مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة وينص هذا القرار على ضرورة أن تتوقف المعارك خلال اثنتى عشرة ساعة . ولكن بالرغم من حنق الصينيين ، الذين أثارهم هذا « التواطؤ » اكتفوا بالامتناع عن التصويت ، فقد صدق مجلس الأمن على القرار ..

ووافقت القدس والقاهرة تحت ضغط حمايتهما ؛ على قبول وقف اطلاق النار في اليوم نفسه وكان من المقرر أن تتوقف المعارك على جبهة قناة السويس في السادسة والدقيقة الخمسين مساء الثانى والعشرين من اكتوبر (بالتوقيت المحلى) .

وبالنسبة للجيش الاسرائيلى كان ما حدث حرمانا فظيعا من حقه .. وعلى الضفة الغربية لم تكن المدرعات تجاوزت جنوبى البحيرات المرة الكبيرة ولم يحاصر الجيش الثالث المصرى على الاطلاق وجن جنـــون الجنرالات الاسرائيليين من شدة الغيظ وقالوا « اذا ما قلبنا السلام قبل القضاء على الجيوش العربيــة فان الحرب ستستأنف غدا » . وهكذا لابد أن تنتهك اسرائيل وقف اطلاق النار لكى تساعد ، الدبابات اليهودية على أقل تقدير على أن تحكم اغلاق الفخ بأن تصل الى هذا الركن من طريق السويس القاهرة الذى دخل التاريخ الكيلو متر ١٠١ . وقد تطلب الأمر فى هذه المرة قرارا

جديدا يصدر من مجلس الامن والتهديد باندلاع حرب عالمية لكى يفرض وقف جديد لاطلاق النار . ويحترم ..

وفى اسرائيل ثار غضب شديد مع السلام . وقال كاتب المقال الافتتاحى فى صحيفة « يديعوت احرونوت » فى تعليق له ها هى حرب جديدة غير كاملة لقد قبلنا وقف اطلاق النار دون تبصر للأمور . وقالت صحيفة « معاريف » فى تعليقها حول الموضوع نفسه « يتعين ان يعرف الاسرائيليون لماذا وافقت الحكومة على قبول وقف اطلاق النار » . وقالت صحيفة « دافار » فى مقال نشرته « كنا قد اقتربنا من النصر الكامل وها هى موسكو والرئيس نيكسون يحرموننا منه . وكتبت صحيفة « الهمشمار » تقول « لقد جاءت الهدنة فى الوقت الذى كانت القوات الاسرائيلية قادرة فيه على ابادة الجيوش المتحالفة » .

وثار اليمين ضد انهزامية الحكومة . واستنكر مناحم بيجين وشارون « ملك اسرائيل » هذا « الاستسلام » واتهموا هيئة اركان الحرب بأنها مسئولة عن هذه الحرب غير الكاملة .. أو النصر المزيف . وطالب يعقوب شابير وزير العدل باستقالة موشى ديان ..

الفصل التاسع

الذعـــر

« رفعنا اعلاما كثيرة ورفعوا اعـــلاما كثيرة لكى يجعلونا نعتقد انهم سعداء حتى نجعلهم يعتقدون اننـا ســـعداء » .

ياهودا اميهاى

لقد بدات « حرب اليهود » فى جو من المرارة والاضطراب والصخب ..

ولكنه انتصار على اية حال ـــ غير قابل للمناقشة . لقد كسبت اسرائيل حربها فى ثمانية عشر يوما ، على الرغم من عامل المفاجاة وانخفاض مستواهم عددا وعدة . اصبح الجولان مقبرة سورية . اما جنوب قنال السويس فقد صار مصيدة وقع فيها العشرون الف جنـــدى الذين يتكون منهم الجيش الثالث . ان العواصم العربية التى تلوم السادات على قبول وقف اطـلاق النار تعيش فى أوهام . فلولا هذه الهـــدنة التى فرضـتها الدول الكبرى ، ودون التدخل الدبلوماسى السريع لتحطمت الجيوش العربية وهذه شهادة عاذلة يجب ان تقدمها للجنود اليهود .

اما بالنسبة لرجال الاستراتيجية الموضـــوعيين ، الذين لن يتوقفـوا مستقبلا عن البحث عن الدروس العملية المستفادة من هذه المغامرة العسكرية ، فان الجيش الاسرائيلى قد قام بمهمته على اكمل وجه . وليس هناك مجـال للشك هنا حول هذه المنطقة ، لقد تألقت البحرية الاسرائيلية التى لم يكن لها ذكر تقريبا . كما اعاد ســلاح الطيران تأكيد تفوقه عندما بدأت الصـــواريخ تعطى له الفرصة . اما فى الجولان أخيرا ، فان المدرعات اليهودية استطاعت ان تتفوق على الدبابات السورية . وعلى الرغم من الظروف الاستثنائية لعيد الغفران ومن المعدات الكثيرة التى دفع بها العرب الى الحرب ، فان الانتصار الاسرائيلى كان اكثر وضوحا من انتصار ١٩٦٧ .

وبالرغم من ذلك كانت تبـــدو أقل شـــانا ، كما ان واضعى الخطط الاستراتيجية كانوا يبدون اقل قدرة :

من كان يفكر ولو لحظة واحدة تحت مطر شتاء ١٩٧٣ فى القــدس المنكمشة من البرد ان تحتفل بنصر عسكرى ؟ من كان يجرؤ أن يرقص رقصة النصر المرحة كما تم بعد ١٩٦٧ ؟

من كان يسمح بعرض البومات تذكارية بعد الحرب . لقد كتب أحــد الصحفيين الاسرائيليين حانقا ، يقول : « ان قوائم الذين سقطوا فى الحرب ، وكذلك صور الحصون الاسرائيلية يحيط بها آلاف من الجنــود المصريين المسلحين بالصواريخ وقاذفات اللهب لم تكن تجذب دون شك المترددين على المكتبات » . ان اسرائيل كانت أكثر من حزينة بعد انتصارها الجديد . لقد كان هناك يأس قاتل ورعب فى القلوب والعقول لم يسبق له مثيل يجتــاح هذا « الجيتو » الفلسطينى الكبير . كما لو كان هذا الوجود الاسرائيلى قد غرق فجأة فى غمار الدم والنار تاركا على السطح بعض الأشــلاء التى ستتسدد مستقبلا ، نعم انه « جيتو » بالفعل ، مثخن بالجراح مهمل لا أمل فيه ، مكدود . لقد أصبح الاسرائيليون مرة أخرى يهودا .

واصبحت تل أبيب تردد هامسة : « سوف يصبح هناك حقيقتــان فى تاريخ اسرائيل من الآن فصاعدا الفترة من ١٩٤٨ الى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ والفترة التى تبدأ بعد ذلك ... » .

وماذا بعد ذلك ؟ بينما بدات المباحثات تحت الخيــام الفيلكورية التى نصبت عند الكيلو ١٠١ بين المصريين والاسرائيليين وبينما « اهارون ياريف » و « عبد الغنى الجمسى » يتبادلان السلام التاريخى بالأيدى أمام المصورين الدوليين ، وكانت القدس هناك قد بدات تعــرف الرعب . فقد بدأ الكل يشعر بأن الأمور لن تعود كما كانت من قبل ، ولكن لم يشــعر أحد بأن فى مقدوره التكهن أو يصور المستقبل ، أو حتى يرسم ــ خطوطا ــ حتى غــير واضحة ــ لما ستكون عليه اسرائيل الجديدة .. وبدأ هتاف قديم يهودى يعود ثانيا ليتردد على شفاه المنتصرين المضطربين « ما هى النهاية ؟ » من يستطيع أن يتكهن بها ؟

اولا ــ هناك القتلى :

ان الاحصائيات التى تنقلها النشرات اليومية عن انتهاك قرار وقف اطلاق النار تؤكد أن اسرائيل قد فقدت أكثر من ٢٣٠٠ جندى (١) . كان كثير منهم شبابا لا يتجاوز العشرين ربيعا ، تلقوا الصدمة الأولى للهجوم العربى يوم

(١) الاحصائية الرسمية التى قدمهــا يوم ٨ ديسمبر المتحدث باسم الجيش الاسرائيلى كانت تشمل ٢١١٩ قتيلا و ٥٠٨ مفقودا من بينهم ٢٩٣ يمكن اعتبارهم قتلى .

٦ أكتوبر حتى أن مناحم بيجين قال عنها : «انها حرب الأبناء » . موت هؤلاء خاصة ، التى جنبهم التاريخ حتى الآن من المآسى ، والذين أبعدهم نمو اسرائيل « كدولة كبيرة » عن الذكريات المؤلمة للدراما اليهودية . ان صورتهم أمواتا وجرحى او حتى المعتقلين الذين نجوا من عمليات التعذيب التاريخية ، تبدو كعتاب عميق . ان كل يوم بعد الحرب وكل مجموعة تعود من الجبهة تثير تفاصيل جديدة حول وحشية المشكلة . ان اسرائيل تبكى أمام شاشة التليفزيون . ان استعادة المظليين ومشاة لواء الجولان لجبل هرمون (جبل الشيخ) وتسلقه مترا بعد متر كانت شيئا رهيبا . أما على طريق الاسماعيلية فقد قاسى جنود شارون الكثير حتى ان احد ضباط المظلات أخذ يجرى بين أروقة مبنى التليفزيون عند اعلان وقف اطلاق النار ويصيح فى وجوه كل من يقابلهم : « انه شىء لا يمكنكم أن تتصوروه . لقد كان الأمر رهيبا هذه المرة ... » رهيبا ..

ان اسرائيل صغيرة جدا . ولا يمكن أن يمر واحد من القتلى مجهولا . ان الوفود الرسمية من التساهال (الجيش الاسرائيلى) الذين كانوا يتنقلون من اسرة الى اخرى لابلاغ الأخبار المفجعة يبدون مثل الحربة التى تنغرس آلاف المرات فى نفس الجسم . وكذلك ألوف الناس الذين كانوا ينتظرون والعبرات تخنقهم فى شوارع القدس عودة الأسرى وهى تنهال باللعنات على « ديان » ليست سوى الأعراض الظاهرة لنفور وسأم رهيب سام اجتاح الدولة اليهودية كلها . نفور من الحرب . وانهيار أمام المأساة وعودة للتوتر رفض هستيرى للتهديد وعودة الى الخوف . لم يعد فى استطاعة اسرائيل أن تتحمل اكثر من ذلك . وبدلا من تلك الموسيقى المرحة مثل مقطوعة شرم الشيخ والقدس الذهبية التى كانت تذاع فى ١٩٦٧ تعبيرا عن النصر ، أصبحت هناك اغنية حزينة يرددها الراديو عشرات المرات طوال اليوم ، وقد تم تأليفها فى اثناء المعركة وتقول « باسم رجال المدرعات الذين احترقوا أحياء ، وباسم الطيارين الذين سقطوا محترقين . وباسم .. أعدك يا صغيرتى بأن هذه سوف تكون الحرب الأخيرة .. الأخيرة » .

تناقض . اذ يبدو أن الاسرائيليين الذين كانوا يلجأون الى السلاح كل سبع أو ثمانى سنوات منذ تأسيس الدولة اليهود الذين جعل منهم القدر محاربين بالرغم من أنوفهم يبدو وكأنهم اكتشفوا للمرة الأولى وجه الحرب الكريه .. والموت . نصر ، هزيمة نصر مرة أخرى .. كلمات جوفاء لا معنى لها فى هذا الشتاء اليائس الذى لا يتمنى كل شخص فيه الا شيئا واحدا : الخلاص ، العثور على السلام بكل ما فيه من مشكلات واضطرابات ، وكفاح

يومى . حلم . . وتميد الأرض تحت الأقدام . لقد ضاعت الثقة وغدا المستقبل مكتنفه الغموض .

لن تعود الثقة العمياء فى القادة السياسيين أبدا . هؤلاء القادة الذين قادوا البلاد الى هذه المأساة . كما لن يصدق أحد بعد اليوم العرب فهناك اعتقاد دائم بأنهم يرغبون فى تدمير اسرائيل ، حتى لو أقدموا على تطوير دعايتهم . ماذا يمكن التوقع من عالم كله عداء تعيش فيه اسرائيل وحدها فى عزلة ؟ ماذا ننتظره من « الضمانات الدولية » التى تعد بها دول يلقبونها زيفا بالدول الكبرى وخاصة بعدما أصبحت تحت رحمة البترول ؟ وقد حيت جريدة معاريف فى افتتاحية عددها الصادر فى ١٣ من نوفمبر وصول بشائر قوات الطوارىء الدولية الى ضفاف قناة السويس قائلة :

« لقد كنا حتى الآن بصدد تدخل من جانب الدول الكبرى فى مشكلة الشرق الأوسط . ولكن قوات الطوارىء اصبحت الآن جزءامن العملية . ونظرا لضعفهم فهم لا يستطيعون الكثير ضدنا ولكن فى مقدورهم أن يعرقلوا سيرنا . وبمناسبة استعداد وصول رئيسهم كورت فالدهايم الى الشرق فالواجب أن نقول له مقدما،ان دور مراقبيه لا يتعدى كتابة التقارير وليس وضع سياسة الشرق .

لقد وصلت الاضطرابات فى اسرائيل لقمتها . ولكنها تظهر مقنعة وراء الاضرابات والخلافات حول « حرب اليهود » ويظهر الغضب مثلا فى صورة الاضطرابات التى تنادى باستقالة « ديان » . ان الكشف عن مسئول واحد سوف يساعد فى النهاية دون شك على تهدئة النفوس الفزعة . ان العثور على المسئولين وعقابهم ما زال أقل الوسائل سوءا ،التى تلجأ اليها الشعوب عندما تحل بها الكوارث ، وقد قامت اسرائيل فى صوت واحد تطالب بكشف حساب . كيف وقع كل ذلك ؟ ان الغضب أفضل من الصمت .

وعندما ثار اليمين ، اخترع تعبير فيه بعض السخرية سوف يسيطر على كل خلافات الفترة التى تلت الحرب : وهى كلمة « ميدهاليم » التى تعنى اهمال ، أخطاء ، خطأ فى التقدير . يريد الناس ان يعرفوا لماذا لم تستطع الحكومة أن تتوقع الهجوم العربى ؟ ولماذا فهمت كل المعلومات التى قدمتها المخابرات فهما خاطئا ؟ لماذا لم تتقرر التعبئة ــ الجزئية للاحتياطى الا يوم ٦ من اكتوبر . لماذا لم تصل أوامر الطوارىء فى كل مكان فى الوقت المناسب فى القنال . لماذا تم التقهقر والانسحاب من خط بارليف فى فوضى كلفت الكثير ؟ لماذا رضخت « جولدا » لضغوط أمريكا بالا تقوم بأى هجوم وقائى ؟ ولماذا تقلص دور رئاسة الأركان فى قمة الحرب وانزوى بهذه الصورة تحت جناح

اللعبة السياسـية ؟ لماذا كذبت الاذاعة ؟ ولماذا فى النهـاية ، ولماذا توقفت ميكانيكية الجيش الاسرائيلى المثالية التى كانت فخر اسرائيل ويهود العالم جميعا فى أشد الأوقات حرجا .

لماذا ؟

وتحول مناحم بيجن زعيم حزب حيروت يوم ١٢ من أكتوبر على منصة الكنيست ، وسط الصخب واللكمات أحيانا الىمدع يلوح بطريقة مسرحية متهما الثمانية عشرة وزيرا فى الحكومة . « أين كانت دباباتنـا ؟ أين كانت طائراتنا ؟ أين كانت مدافعنا ؟ بعد هذه الهزيمـة لا مكان لكم فى الحكم » . وتخلى اريك شارون عن تقاليـد السرية العسكرية فعقـد عدة مؤتمرات صحفية ليثأر فيها لنفسه على صفحات جريدة الجارديان والنيويورك تايمز الأجنبية . قال فيها ان الأخطاء التى وقعت فيها رئاسة الأركان قد منعتنا من الحصـول على نصر حقيقى . ان الجنرال « صمويل جونين » و « حاييم بارليف » اللذين يدافعان عن المصالح العمالية ، منعانى من اختراق الصفوف المصرية قبل ١٥ من أكتوبر ثم تركانى بدون امدادات على الضفة الغربيـة ومنعانى من ضرب الاسماعيلية .

« ان هذه العصابة من الافاقين » مسئولة عن كل الكوارث .

ويستطيع هؤلاء الجنرالات المتهمون أن يردوا ، دون شك دفاعـا عن انفسهم ، ان اريك نفسه لا يعتبر هو أيضا واضع الخطط المعصوم من الخطأ . وان المراحل الأولى « لثغرته » فى ١٥ أكتوبر كانت فاشلة ودفع ثمنها مئات من الضحايا . وأنه خالف الأوامر التى صدرت اليه من رؤسائه عدة مرات . ومهما تكن كل هذه الردود صحيحة ، فانها لم تؤثر كثيرا على وضع « ملك اسرائيل » الذى لم يجد اليهود أفضل منه ليتوجوه بطلا لحرب كيبور . وغداة الحرب ، أصبح « اريك » ، الذى انتخب يوم ٣١ ديسمبر زعيما لحزب ليكود غير قابل للنقد ، على الرغم من ان هارتس انتقدت بقسوة تصريحاته الصاخبة لقد أذان الرأى العام « بن أهارون » زعيم « الهيستادروت » ، حينما تهور وحاول انتقاده بعنف . أما « ديان » ، الذى كان يبدو قلقا من الشعبية التى اكتسبها « اريك » وان كان يدين له بالعرفان لأنه جنبه النقـد ، فقد كان يعمل من ناحيته على « تغطية » زلات لسان اريك وتخطيه الرياسات والتسلل الوظيفى ، غير أن ذلك يدخل فى نطاق اللعبة الانتخابية .

وعندما ينجح شارون فى الانتخابات يتجاوز حدوده مرة اخرى فى خطاب وداع الى جنوده ، ان عليه أن يتلقى اللوم رسميا من رئاسة الأركان .

اما بالنسبة لما عدا ذلك : ألم يتم تعيين لجنة لتقصى الحقائق اختارها مجلس الوزراء بنفسه فى ١٨ نوفمبر ؟ الا يقع عليه عبء الكشف عن المسئولين وعن الاهمال الا يمكن ان تقوم لجنة أخرى بالتقصى بعناية عن المعلومات « المضللة » التى أذاعتها الاذاعة الاسرائيلية طوال الأيام الثلاثة الأولى من الاشتباكات ؟ يجب على اسرائيل أن تعالج كأى دول أخرى سبقتها التخبط الذي يحدث باحالة الموضوعات الى لجان لدراستها كما كان عليها أيضا أن تلوذ بالصبر وهى تتابع تصفية الحسابات المريرة بين الجنرالات الاسرائيليين .

وغداة الانتخابات حيث يعلو هدير العتاب من كل جانب ما زالت أصوات « الحمائم » هي الأقوى . لا يمكن أن ترجع الفاجأة التى وقعت يوم عيد الغفران الى بعض اخطاء وقعت فى اللحظة الأخيرة ، او الى بعض الاهمال فى النواحي العسكرية ان الأخطاء كلها والاهمال لم يكن ابدا أكثر من امتداد طبيعى لغلطة رئيسية وهى غلطة سياسية هذه المرة . وكان الكولونيل « مائير بائيل » وهو من المنادين بتجنب الحرب يقول ، « ان الأخطاء السياسية يمكن تشبيهها برأس المال المودع فى أحد البنوك أما الأخطاء العسكرية فليست سوى فوائد » .

وكان من الخطأ التصور أن القوة سوف تضعف من عزيمة العرب وتفرض السلام ومن الخطأ أيضا أننا لم نقدر حق التقدير القوة الجبارة التى تكمن وراء الاهانة التى لقيها المصريون . وكان من الخطأ الاحتفاظ بأراض ، ضماناً للأمن ، ثم ضمها سرا الى اسرائيل ، لقد كانت فكرة الجيش الذى لا يقهر أسطورة خاطئة وهذه العجرفة كانت خطأ أيضا . وكانت فكرة « الحدود الآمنة » ، التى ربما أبعدت الدبابات المعادية عن تل أبيب ، خطأ لأنها قربت الحرب من اسرائيل . وأخيرا كانت فكرة الركود الذى أردنا أن يعتقدوه تعقلا ، فكرة خاطئة .

ويرى مؤيدو الحل السلمى انه اذا كان جيش التحرير الاسرائيلى قد لقى بعض الفشل المرير يوم ٨ ، ٧ ، ٦ من أكتوبر فذلك لأن الشلل أصابه نتيجة لعدم وضوح الرؤية بالنسبة للحذر الاستراتيجى « هذا الحذر نفسه كان نتيجة لأوهام لها مبرراتها . اذ لا يمكن بناء مستقبل دولة على افتراض ضعف العدو على « فارق تكنولوجى » بين جيشين وعلى اليقين من أن « الكيفية » تنتصر دائما على « الكمية » لقد فوجيء جيش الدفاع الاسرائيلى بالحرب لأن المفترض دائما ان هيئة أركان أو غيرها يجب أن تكون دائما على اهبة الاستعداد دقيقة بعد دقيقة للقتال ولو بقيت طوال مائة عام مثلا . ان السلام لا يوجد فقط فى فوهة المدافع أو فى « الميراج » ولكنه يمكن أن يوجد أيضا فى حل عن طريق المفاوضات ، يقوم أساسا على استعادة الأراضى

المنزوعة السلاح . ويضيف الجنرال « ماتيتياهو بيليد » ان الثقــة كانت كبيرة فى الأراضى لدرجة أننا وصلنا لمرحلة نسينا فيهـا أن العمق المكتسب بالتعبير الاستراتيجى لم يغير شيئا فى مجال الحرص العسكرى وذلك بفضل الأسلحة الحديثة بصفة خاصة أن المشكلات الأساسـية للدولة الاسرائيلية التى تحيط بها تتلخص فى هذه القوى العددية الهائلة وهو ما لا يمكن أن تغيره بضم بعض الأراضى اليها » .

لم يكشف يوم عيـد الغفـران اذن عن الاهمال فقط ، بل عن قصر من الرمال انهار على مشـيديه الذين أفرطوا فى الثقة بأنفسهم . لقد أنهـارت التخيلات والأحـلام وفى هذه الظروف ، فان البحث عن كبش فداء ، وهو ما يتمناه اليمين ، لن يخلق الا مزيدا من الأوهام . ويضيف أحـد الحكماء المدافعين عن المؤسسة » قائلا : « أن الاله الذى خيب الآمال ليس مجموعة من الأشخاص ، ولكنه مفهوم معين للدفاع يتمثل فى التخلف العسكرى للعرب والتفوق الاسرائيلى الذى لاشك فيه . فهل هنـاك مسئول واحد عن هـذا المفهوم ؟ اشك فى ذلك تماما . ان كل النـاس فى اسرائيل قد بنوا مبادئهم السياسية على افتراض أن التفوق العسكرى الاسرائيلى لا يقبل الجدل . وفى النهـاية ، فقد أجمعت الجهـات التى أيدت الحل السـلمى وكذلك العسكريون ، أو السياسـيون والعسكريون على السواء ، على أن التفوق العسكرى فى جانب اسرائيل . وهى عقيدة أدت بهم الى الغرور والاحتقـار وربما اهمال بعض المشكلات الحيوية . ونستطيع ان تقول اننا كلنا مذنبون الى حد ما » .

واذا كان الاسرائيلى بعد مرحلة وقف اطلاق النار يتهم ويعبر عن غضبه واذا كان ينحو باللائمة على قادته بعنف ، بانه اصبح ايضا انسانا ممزقا . هل استطاعت الأراضى أن تحمى البلاد أو أنها أدت الى أندلاع الحرب ؟ هل كان يجب اللجوء الى تنازلات جديدة أو مضاعفة العمليات الحربية . لم يعد أحد يعلم بالضبط ماذا كان يجب عمله . واذا كان الذين يقومون بالدعايات المدوية لحزب « ليكود » أو المعركة « يتذكرون » الأبناء الذين قتلوا على الجبهـة ليؤكدوا صحة تخطيطهم ، فانهم يلعبون بذلك على أوتار متنافرة توجد مثلها فى داخل كل اسرائيلى . وقد اثبت ذلك الاستفتاء الذى قامت به صحيفة ها آرتس بعد أسابيع من وقف اطلاق النـار . « ان الشعب الاسرائيلى لم يعد يعرف ماذا يظن بقادته . ولكنه على العموم يرى أنه يجب القسوة عليهم أو على العسكريين الذين اخطأوا ولكن أحدا لا يعلم من هو الذى أخطأ . ان موشى ديان يفقد شعبيته تدريجيـا ولكن الأغلبية لا ترى من يمكن أن يحل مكانه وبالرغم من أن الجميع لا ينظرون الى ديان بوصفه قائدا سياسـيا

جديرا بهذا اللقب فان الجميع لا يلقون بالا للنقد الموجه من وزير العدل السابق تجاه موشى ديان » .

وسوف يظهر هذا الهلع واضحا فى الانتخابات نفسها ــ وهى أوضح وسيلة للاستفتاء ــ وعلى الرغم من ان اليمين قد طالب بتأجيله ــ حتى ينتفع الى اقصى حد بفرصة يراها مواتية ــ فقد جرت الانتخابات يوم ٣١ من ديسمبر فى جو من الحزن والشك والغموض . ولم يستطع الاسرائيليون أن يختاروا بصدق بين حزب ليكود المتطرف الذى يدين وقف اطلاق النار الذى فرض عليهم من الخارج . ويعدون اسرائيل بأن لا يستسلموا ابدا ، وبين حزب العمال الذى يرتكز الى أسس غير راسخة .

لقد خسر العمال خمسة مقاعد صغيرة اكتسبها اليمين واحد عشر مقعدا للحزب الدينى الذى أعاد تأكيد دوره كحكم ومحافظ على اليهودية : ان الزلزال الذى احدثته حرب عيد الغفران قد تولد عنه تغيير دقيق فى الكنيست . ولن يستطيع اى مراقب اجنبى ان يستشف بوضوح النتائج التى أسفرت عن الانتخابات . وبينما يبدو أن السياسيين قد دعموا مركزهم بفضل الأحداث ، نرى فى الحقيقة انهم فقدوا اصواتا بينما يفقد يورى افنيرى الذى ينادى بالسلام مقعده تماما . وفى حين تبدو تدابير جولدا مائير وفرقتها (موشى ديان واسرائيل جاليلى) عديمة التأثير نظرا لعدم تبصرها وفى الحقيقة لم يؤثر عليها اليمين بما اكتسبه من قوة .

ان الرغبة فى السلام لم تكن قوية مثلما هى عليه الآن فى اسرائيل وهذه حقيقة وكذلك الخوف من المستقبل فبعد أن انتصرت اسرائيل فى ميدان القتال ، فان اسرائيل تخاف من مواجهة جنيف وتعلم مقدما ان دبابات « اريك شارون » لن يكون لها أى وزن أمام تواطؤ العالم .

استفتاء كله شك . وعدم وضوح :

بالطبع ، يسب المتظاهرون ، تحت نوافذ الكنيست ، موشى ديان ، ولكن اسرائيل فى أعماقها تعيش فى دوامة الاحساس بالذنب الذى يصنع الرعب التى تشعر به بعد الحرب فى مستوى آخر غير المظاهرات السطحية : مستوى أخلاقى اكثر منه سياسى ، مستوى دينى أكثر منه انتخابى . ولم يعد الاسرائيليون يستطيعون أن يغفروا بعضهم لبعض عدم المبالاة واللهو فى غير راس السنة الذى أدى بهم الى الكارثة . ويكتب احد المؤرخين قائلا : « اننا طوال ستة أعوام ، عشنا فى جنة الأغنياء تشبعنا باطيب الأشياء وجرينا وراء الترف الذى كان ممنوعا عنا . وتمتعنا بالرخاء واغوتنا التفاهات . هل لنا الحق فى أن نبدأ من جديد ؟ » (معاريف ــ ١٤ نوفمبر ١٩٧٣ ــ ليفى ايراك) .

أن هذا الاتهام بالذات وهذا الاستخفاف المدمر سوف يساعد كل شخص على تحمل الحرمان في مرحلة ما بعد الحرب . وسوف يكون حرمانا شساقا . لقد قضى المجهود الحربى على اقتصاد البلاد وسوف يؤثر طوال سنوات على ثراء الدولة اليهودية . لقد قضى استدعاء الاحتياطى المستمر على الصناعة ، فقد ادى الى هبوط الانتاج فى المصانع بنسبة تتراوح بين ٣٠ و ٤٠ ٪ . والى جانب القروض الاجبارية التى فرضت أثناء وبعد الحرب (٢٠ ٪ من المرتبات) هناك أيضا التضخم الكبير الذى سيصيب اغلب المنتجات الاساسية . لقد عادت الحياة الى قسوتها فى اسرائيل .

وبينما ينتقد الاسرائيليون بعضهم بعضا على الترف والحياة الرغدة فى الماضى فقد بداوا يستعدون لواجهة سنوات طويلة من الحياة القاسية . ولكنهم فى نفس الوقت يكتشفون مرة أخرى شعورا غامضا بالخوف : فقد اكتشفوا أن اسرائيل لن تستطيع ان تكون أبدا دولة مثل « الدول الأخرى » . فلن يكون لليهود ابدا الحق فى السعادة البسيطة والحياة السهلة . الا تبدو آثار حرب عيد الغفران كلها علامات ثابتة على « اختلاف » اليهودية عن غيرها .

أن عودة الحياة الى « اليهود » فى داخل كل اسرائيل وتهويد اسرائيل المفاجىء ليست كلها ظواهر جديدة تماما . فخلال فترة ما بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة اجتاحت البلاد موجة من التدمير المفاجىء ، جاءت نتيجة الصدمة العنيفة الناتجة عن المعارك وغرور الانتصار . ولكنها لم تدم طويلا بل كانت خاطفة وسرعان ما محتها المعجزة الاقتصادية « والتقدم التكنوقراطى » . اما هذه المرة فتبدو الموجة اكثر عمقا . وربما دامت اطول مدة . فلم يعد لدى اسرائيل الثقة فى أنها ستستطيع ان تضع مخاوفها جانبا فى الداخل ولا فى الخـارج .

فعلى الصعيد الداخلى نجد انه فى الوقت الذى تبدأ فيه فى جنيف معركة رهيبة تواجهها اسرائيل وحدها بقليل من الشجاعة ، فليس هناك اسرائيلى واحد . تقريبا يثق فى أن العرب لديهم الرغبة الحقيقية فى السلام . أن الخوف من خطر الابادة لم يختف تماما من العقول وامام ابتسامة واحدة من السادات . فان السياسيين المتطرفين لليسار الجديد يؤكدون أنهم لا يثقون تماما فى اعتراف العرب باسرائيل . ويقول كاتب يافا الشاب « دان بن أموتز » هامسا أنا لم أعترف أبدا بمبدأ القوة ولكن بعد هذه الحرب اصبحت اشك فى أن العرب قد زايلتهم ألرغبة فى القضاء علينا حتى لو كنت متأكدا من انه فى وسعنا أن نتفادى الحرب اذا قبلنا رد الأرض المغتصبة فى مقابل الضمانات » .

ويضيف « البروفيسور تالمون » الذى لا يمكن اتهامه بالتطرف الصهيونى قوله : « لا يمكن ان امن للعرب . اذا تمكنوا فانهم لن يترددوا فى تحطيمنا . ولكن دورنا هو الا نعطيهم هذه الفرصة بأن نستمر أقوياء . ليس بالتفكير فى التوسع ولكن بالردع وسوف يجىء اليوم الذى ينظر فيه العرب الى الوجود الاسرائيلى على انه واقع ، ربما مؤلم ولكن لا شك فيه .

اذن فالعالم مخطىء اذا تصور أن التوسعيين فى حزب ليكود هم فقط مازالوا يشكلون خطر الحرب . فاذا نظرنا الى وجود الدولة اليهودية ، من وجهة نظر باريس على أنه يمتلك كل الضمانات حتى يمكن الرضوخ لكل التنازلات فى الأرض ، فان القدس تنظر للأمور بطريقة مختلفة .

أن صحيفة ها آرتس الصارمة ، التى تنتقد مع ذلك « ديان » والمؤسسة قد نشرت افتتاحية يوم ٢١ من نوفمبر كلها مرارة . وكان من الممكن ان يوافق عليها أغلب الاسرائيليين « ليس هناك نظام عربى يعرض علينا السلام حقا . أن هدفهم هو تحطيم هذه الدولة بسكانها . فهم يعرفون تماما أنه اذا تمكنت اسرائيل من استعادة قوتها ، فانها ستجذب مرة أخرى المهاجرين والصهاينة مثل المغناطيس . ان الخلاف القائم بين العرب لا يتعدى الخلاف على الوسيلة التى يمكن بها تدمير الدولة اليهودية . أن القذافى والعراق لا يدارون نيتهم . وقد نصح الكرملين السادات بأن يبدو أكثر اتزانا . وقد فعل هتلر أيضا نفس الشىء وتوصل الى نتائج أفضل .. »

اذن ، فان هذا التشدد مستمر من جانب الدولة اليهودية التى تذهب الى جنيف ولا يمنعها ذلك من اعلان انها سوف تقوم ببناء مدينة فى المستقبل فى الجولان . أن هذا التشدد من جانب القدس فيما يتعلق بموضوع الأسرى اليهود فى سوريا . وهذه المقاومة التى يواجهها هنرى كيسنجر ، كل هذه المواقف المحيرة لم تصدر من المؤسسة « المتمسكة بسياستها القديمة فقط » . ففى غداة حرب كيبور تعلمت اسرائيل الخوف من جديد ، يجب أن لا ننسى ذلك . ان ذكريات « الفيتو » وعقدة « الماسارا » تحوم من جديد من القدس الى تل أبيب .

ان تبجح العالم الذى يواجه ازمة الطاقة يبرز هذا الياس الى درجة خطيرة

فبنما تبدأ رحلة جديدة بالنسبة للعالم العربى ، الذى استعاد قوته وكبرياءه تستطيع اسرائيل أن تلاحظ أن الحدود التى كانت تفصل بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية بدأت تختفى : وذلك بعد أن عرف العالم أن هناك لافتات فى الشرق الأوسط الأمريكى تعلن انه يمكن أن نستغنى عن اليهود ولكننا لا يمكن أن نتخلى عن البترول ؟؟ وأيضا اذا سجلنا التنازلات السريعة

من جانب أوروبا او اليابان امام التهديد بالبترول . وكذلك يمكن اكتشاف اسلوب جديد هنا وهناك بين صفحات الصحف الغربية .. أن اسرائيل بدات تخاف لكل هذه الأسباب . فان اسرائيل يمكن أن تكون كبش الفداء فى وسط هذا العالم الذى اهتز من جذوره نتيجة لحرب البترول (أو عام البترول) انه عالم يخوض أزمة خطيرة مثل تلك التى مر بها عام ١٩٢٩ .

فاذا كانت حرب كيبور قد كلفت كبرياء اسرائيل الكثير فهل يمكن أن نسى أن هذا الكبرياء يدين بالكثير للاهانات التى لقيها اليهود وانها ليست سوى صورة مقلوبة لهذه الاهانات . هل يمكن أن ننسى غدا فى غمار الحديث الذى لا ينتهى عن الشرف العربى أن هناك شرفا يهوديا لم يمض عليه اكثر من ربع قرن ؟ أن الثقة الزائدة فى اسرائيل نفسها هى التى أدت بها الى أعماق الخوف ، أن اسرائيل التى كانت تهدد بالأمس قد أصبحت مهددة .

من هذه السلسلة الضخمة من المصادفات يمكن أن نستخرج صورة بعيدة . صورة باسمة . ربما اعتبرت الوحيدة . فعند الكيلو ١٠١ ، وقبل ان يرجع الجيشان عن مواقعهما ، تآخى الجنود اليهود والمصريون لعدة أسابيع مطالبين بالسلام . ان هذا الدليل الذى لا يمكن تصوره ــ هو وحده ــ يحتم أن نعيد كتابة السيناريو القديم للسلام ــ بصبر .

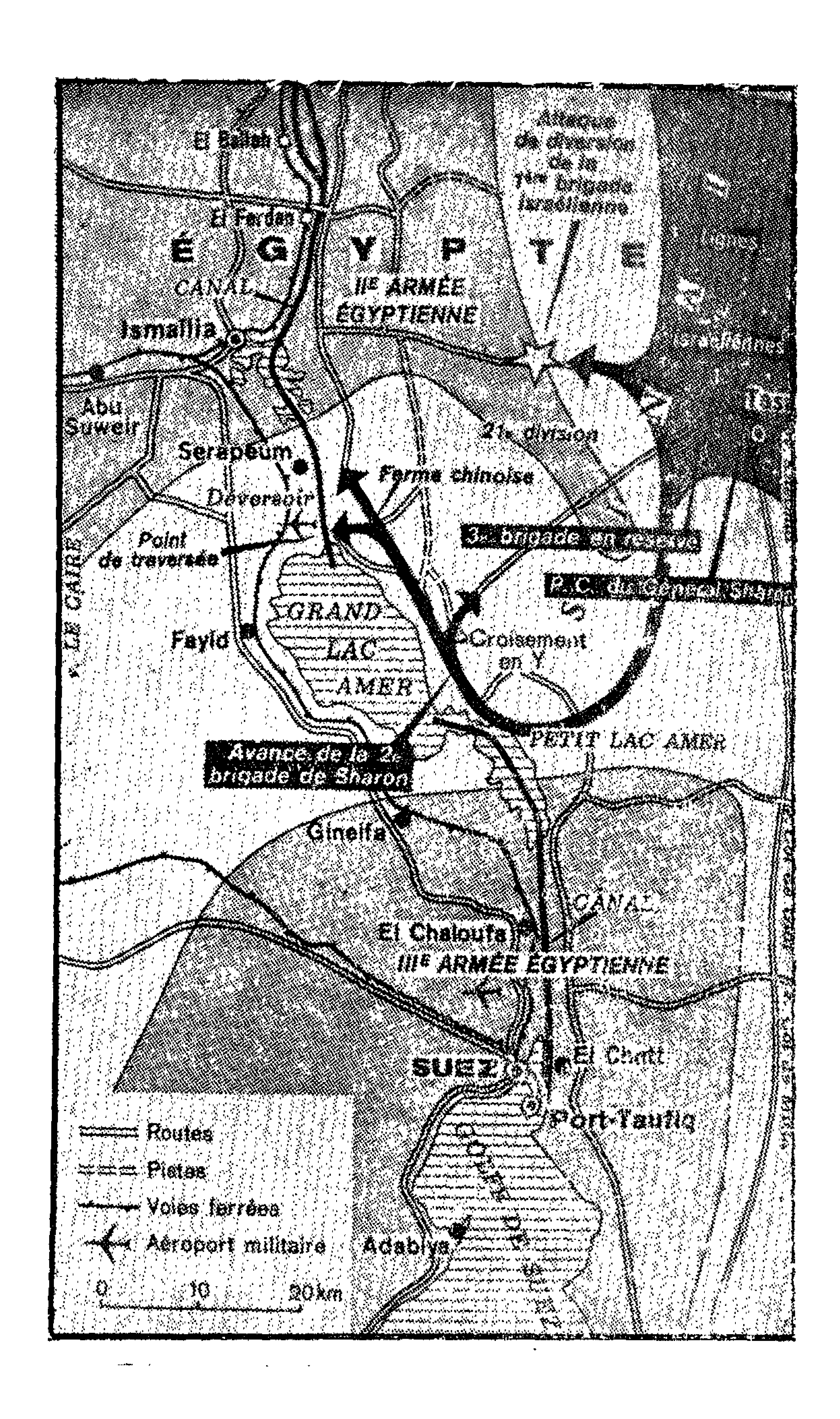
سوف تعيد اسرائيل غدا وبطريقة أكثر تواضعا الجزء الأكبر من سيناء والجولان الى عرب أقل ذلا وسوف يتم الاعتراف بالضفة الغربية ــ بالأردن او بدونها دولة فلسطينية بعد أن تكون قد تخلت عن معاداة جيرانها . اما حسين فسوف ينتهى . ولن تبدو اسرائيل ، بعد أن تصبح شرقية ــ فى صورة حاملة طائرات غربية مدفونة فى قلب العالم العربى من « روش هانيكرا الى ايلات » ، وانما ستصبح منطقة تنتمى ثقافيا واجتماعيا للشرق الأدنى . وفى القدس ، ستحال المؤسسة الاشكينازية الى المعاش لتعيش فى مستعمرة من المستعمرات .

وهذا السيناريو يرجع تاريخه الى رحلة جنيف .

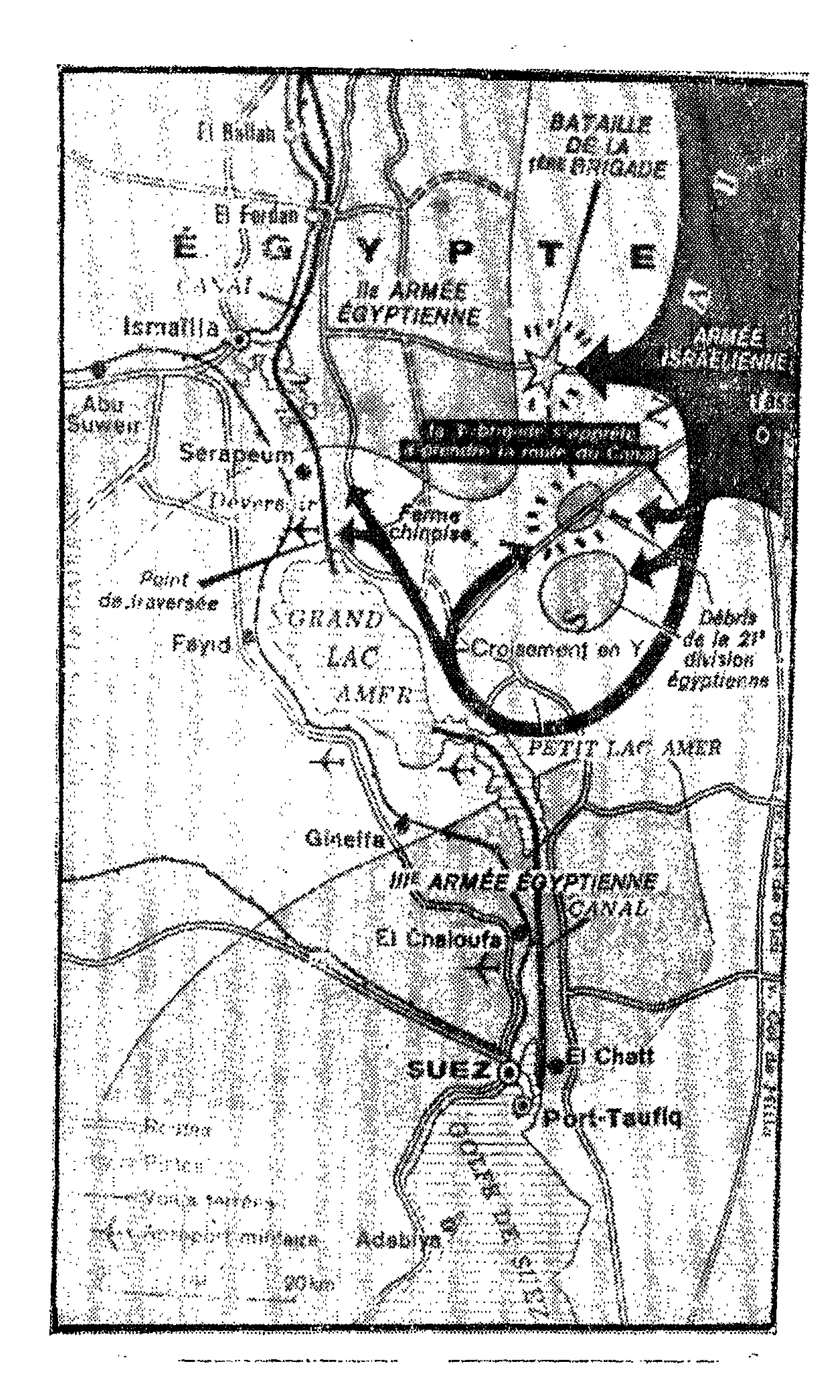
ولم لا ؟ أن فرص السلام فى الشرق الأوسط لم تكن فى يوم من الأيام كبيرة مثل ما هى اليوم ، وهذا ما كان يقوله الدبلوماسيون فى يناير .

ولنفترض مع ذلك مسبقا ، يجب أن لا يترك العرب ولا أوروبا ولا احد اسرائيل تصبح مرة أخرى غدا « يهودى الدول » هذا التعبير الذى استعمله « افرايم تارى » المستشار فى سفارة اسرائيل بباريس . فبعد ان اعجبنا طويلا بدولة دون أن نساعدها الا قليلا فاننا قد نفقدها تماما بالتأكيد اذا وضعناها فى قفص الاتهام . ان البترول لم يعد السلاح المناسب فى بداية عام ١٩٧٤ .

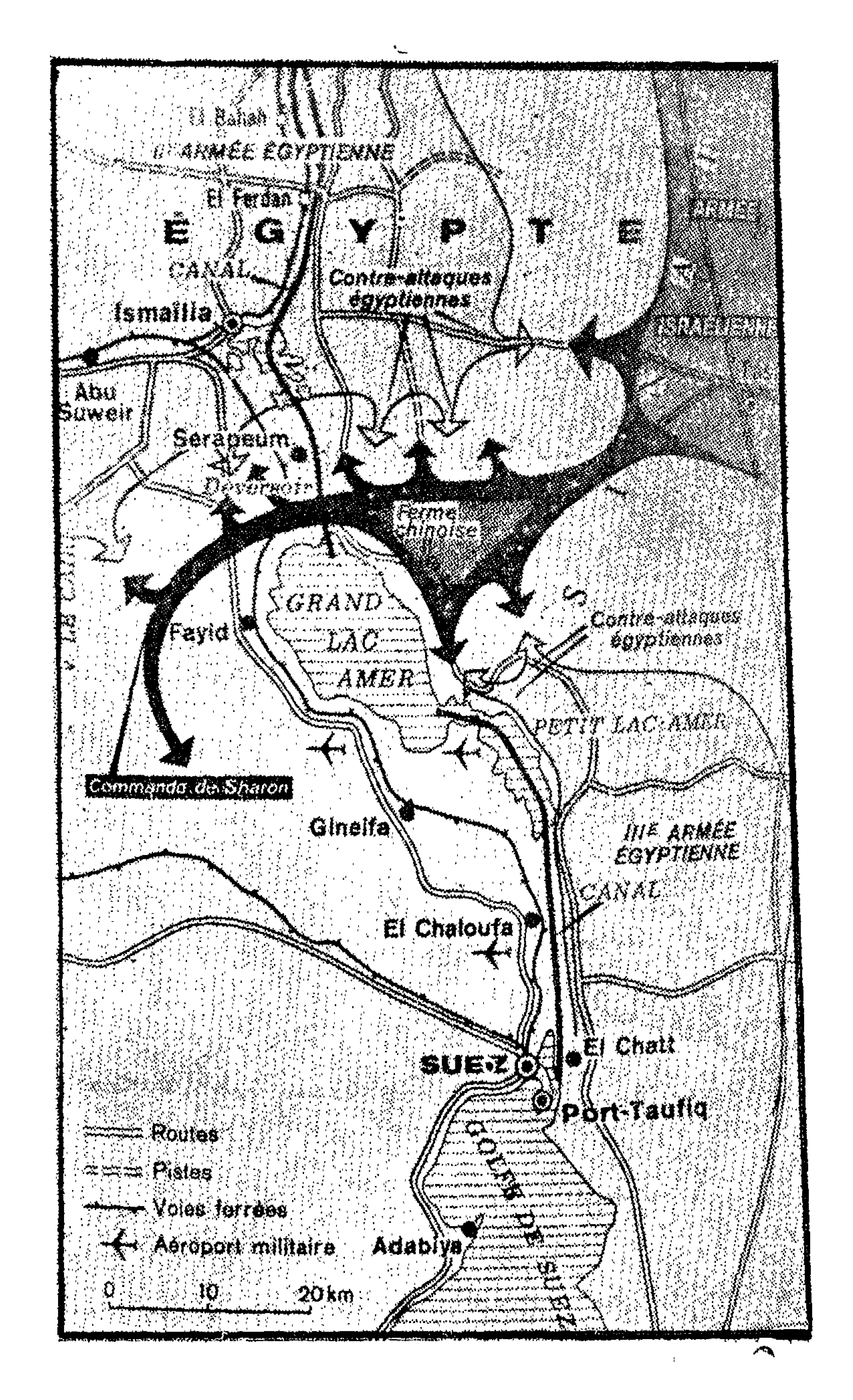
القدس . فبراير ١٩٧٤



خريطة تبين الهجوم على الدفرسوار يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة الثامنة مساء



خريطة تبين الهجوم على الدفرسوار يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ عند منتصف الليل



خريطة تبين الهجوم علي الدفرسوار يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ في المساء

تسلسل تاريخى للأحداث
حرب الأيام الستة

١٩٦٧ : سوريا تتهم اسرائيل بأنها « تستعدلحرب أخرى كحرب السويس

١٥ مايو : اعلان الطوارىء فى جمهورية مصر العربية ، ثم فى سـوريا والأردن ، والعراق ، والكويت ، واسرائيل

١٩ مايو : تحقيقا لرغبة القاهرة أمر يوثانت بانسحاب قوات الطوارىء الدولية المرابطة على الحدود العربية الاسرائيلية فى منطقة غزة . وحلت مكانها وحدات فلسطينية . انفعال فى تل أبيب .

٢٢ مايو : جمهورية مصر العربية تغلق مضايق تيران التى تغذى اسرائيل بالبترول عملية تخريبية فلسطينية على الحدود الاسرائيلية الأردنية .

٣١ مايو : عقد اتفاقية دفاع بين جمهورية مصر العربية والأردن مكملة بذلك اغلاق الدائرة على اسرائيل .

٢ يونيو أعلن الجنرال ديجول « أن الدولة التى ســتبدأ بالحرب (فى الشرق الأوسط) لن تحوز تأييد فرنسا » .

٥ يونيو : قبل الساعة السابعة بقليل ، أعلنت اذاعة القاهرة وتل أبيب بدأ القتال . الطيران الاسرائيلى يضرب المطارات العسكرية المصرية ويدمر طيران ج.م.ع .

٦ يونيو : اسرائيل تستأنف هجومها فى سيناء والأردن .

٧ يونيو : وصلت القوات الاسرائيلية الى قناة السويس واستولت على شرم الشيخ .

٨ يونيو : سوريا ومصر تقبلان وقف اطلاق النار . والرئيس عبد الناصر يعلن استقالته .

٩ يونيو : توقف القتال فى سيناء واستئنافه على الجبهــة الســورية الاسرائيلية . اجتماع مجلس الأمن بصفة عاجلة بناء على طلب سوريا . الرئيس عبد الناصر يسحب استقالته .

١٠ يونيو : توقف القتال على كل الجبهات . آلاف الجنود المصريين يتوهون فى صحراء سيناء التى احتلتها اسرائيل . احتل الجيش الاسرائيلى أيضــا الجولان وغربى الأردن وشرق القدس .

سبتمبر : اجتماع القمة العربى فى الخرطوم . رفض الاعتراف باسرائيل أو التفاوض معها . أو عقد صلح معها .

حرب الاستنزاف

١٩٦٩ : قتال على جبهة القتال بامتداد ١٠٠ كيلو متر .

٨ مارس : استئناف القتال يوم ٩ و ١١ مارس على الرغم من اعلان أول توقف لاطلاق النار .

يونيو ، يوليو : تصاعد القتال .

١٩٧٠ : تنفيذ وقف اطلاق النار واستئناف مهمة يارنج بمساندة الدول الأربع الكبرى .

٧ اغسطس : المنظمات الفلسطينية تجمع رغم ذلك على عدم احترام وقف اطلاق النار .

٩ اغسطس : اسرائيل تتهم ج.م.ع بانها استغلت وقفت اطلاق النار لتقيم صواريخ سام فى منطقة القنال .

فترة ما قبل الحرب

١٩٧٣ : اجتماع مجلس الدفاع العربى المشترك الذى يضم ثمانى عشرة دولة فى القاهرة ليضع استراتيجيةعسكرية موحدة وتنشيط الجبهة الشرقية. المجلس يقرر بعد اجتماعات دامت اربعة أيام أن يدعم الجبهة السورية والموافقة على معونة لسوريا قدرها ٧٥ مليون جنيه استرلينى . ويوصى المجلس أيضا باشتراك المقاومة الفلسطينية فى هذه الإستراتيجية . واختيار الفريق أحمد اسماعيل على ، قائد الجيش المصرى وقائدا للقوات العربية الموحدة .

٢١ فبراير : اسقط الدفاع الجوى الاسرائيلى طائرة تابعة للخطوط الجوية الليبية من طراز بوينج ٧٢٧ تقل ١٠٤ راكب فوق سيناء بعد أن ضل قائدها الفرنسي طريقه عندما اصابها عطب . لم ينج منها غير سبعة واستنكر العالم كله هذا الحادث . وفى اسرائيل ، قررت جريدة معاريف بدكتاتورية العسكريين فيما يتعلق بمشكلات الأمن « الجنرال ديان » يعد باجراء تحقيق . وفى القاهرة اعلن متحدث رسمى أن اسرائيل ستدفع غاليا ثمن جريمتها وقد أثارت جنازة الضحايا مظاهرات ضد اسرائيل .

٢٢ فبراير : بعد رحلة الى موسكو وزيارة للندن ، توجه حافظ اسماعيل المستشار الخاص للرئيس السادات ، الي واشنطن حيث قابل الرئيس نيكسون .

١ مارس : جولدا مائير تذهب بدورها الى نيكسون الذى تعهد بتسليم اسرائيل ٤٨ طائرة فانتوم . ومع ذلك فان واشنطن تتمنى لو قبلت القدس بعض التنازلات فيما يتعلق بمسألة الحدود .

٥ مارس : الملك حسين ملك الأردن يعلن الحكم بالاعدام على أحد قادة فتح ويدعى أبو داود وخمسة عشر فدائيا فلسطينيا آخرين بتهمة محاولة قلب نظام الحكم الهاشمى . وبعد أسبوع تم تخفيف الأحكام .

٢٠ مارس : دعت الحكومة المصرية كل الحكومات العربية للتفاوض من اجل القيام بنشاط فعال ضد الولايات المتحدة الأمريكية بعد قرارها الجديد بتسليم مجموعة اخرى من الطائرات لاسرائيل .

٢٦ مارس : اتهام اثنين من اليهود واربعة من العرب بالتجسس والتخريب لصالح سوريا والحكم عليهم فى حيفا بأحكام بالسجن تبدأ من عامين الى سبعة عشر عاما . وقد اثارت قضية هذه الشبكة الكثير من النقاش فى اسرائيل .

٨ ابريل : الحكومة الاسرائيلية ترفض مشروعا للجنرال ديان يهدف الى السماح للأموال بحرية شراء الأراضى فى الأراضى المحتلة .

١١ ابريل : افرايم كانشالسكى يعلن انتخابه رئيسا لاسرائيل بنسبة ٦٦ صوتا ضد ٤١ صوتا : أن التفاوت بين طبقات الشعب المختلفة يتزايد . الأغنياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرا .

القوات الخاصة الاسرائيلية تشن غارة على الأراضى اللبنانية . وفى بيروت يقتلون ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية فى منازلهم رئيس الوزراء اللبنانى السيد صائب سلام يقدم استقالته واستقالة حكومته ويتهم الجيش بانه لم يتدخل فى الوقت المناسب ضد قوات الكوماندوز الاسرائيلية .

١٥ ابريل : اعلان نتيجة استفتاء قام به معهد الأبحاث الأجتماعية بأن ٥٨٪ من الاسرائيليين (مقابل ٤٧٪ فى مايو ١٩٧٢ يرفضون رد الأراضى المحتلة الى العرب) .

١٨ ابريل : ايجال آلون نائب رئيس الوزراء الاسرائيلى يقدم الخطة التى تحمل اسمه . والذى استبعد فيه قيام مستعمرات اسرائيلية فى المناطق العربية الآهلة بالسكان ويخطط مع ذلك الى ضم ثلث الأراضى فى غرب الأردن وبقاء القدس تحت السيطرة الاسرائيلية . . الاسرائيليون يعتبرون هذا المخطط متزنا . .

٢٠ ابريل : قرر مجلس الأمن طرح قضية الشرق الأوسط يوم ٥ من

يونيو اشتباكات عنيفة فى بيروت بين الجيش اللبنانى والفدائيين ذهب ضحيتها ٢٠٠ من الفلسطينيين .

٧ مايو : حضر العرض العسكرى فى القدس المقام فى ذكرى العيد الخامس والعشرين لقيام دولة اسرائيل ثلثمائة الف شخص . وقد قدمت احتجاجات كثيرة من شتى أنحاء العالم (دون جدوى) ضد اقامة هذه العرض . كما أضرب بعض الشبان فى القدس . وتخشى المخابرات الاسرائيلية والأمريكية وقوع هجوم عربى على الحدود . وقد تم اعلان الطوارىء بين صفوف الجيش الإسرائيلى وجزء من الاحتياطى بناء على طلب من رئيس الأركان ، الجنرال دافيد اليعازر .

٥ يونيو : وقعت المملكة العربية السعودية ومصر اتفاقية للدفاع المشترك مصر تحتفل فى جو من الحزن والمرارة بالذكرى السادسة لحرب الأيام الستة. وفى القدس قام التجار بالإضراب واغلاق محالهم لمدة ٣ ساعات .

١٧ يونيو : أعلنت جولدا مائير ، وقد بلغت الخامسة والسبعين ، انها قررت أن تشترك فى الانتخابات التشريعية القادمة فى أكتوبر وانها ستستمر فى رئاسة الحكومة اذا فاز حزب العمال بالأغلبية فى الكنيست .

٢٣ يونيو : حذر الجنرال ديان حزب العمال من الاذعان على قبول سياسة الأمر الواقع فى الأراضى المحتلة . والا فانه سيترك الحزب . وهنا بدأ مؤيدوا الحل السلمى يتحركون فقد أعلن أبا ايبان قائلا « يجب أن نحارب هذا الاتجاه داخل وخارج الحزب .

٩ يونيو : احتج الدكتور جورج حبش ، رئيس الجبهة الشعبية للتحرير الفلسطينى بعنف على المشروع التونسى والمصرى من أجل خلق دولة فلسطينية وقال انها مشروعات انهزامية لن تؤدى الا الى الاعتراف بالوجود الصهيونى .

[illegible] يونيو : الطيران الاسرائيلى يجبر طائرة لبنانية من شركة طيران الشرق الأوسط وكان المفروض انها تحمل جورج حبش — الى الهبوط فى مطار حيفا العسكرى . وبعد أن إكتشفوا أن جورج حبش ليس موجودا بها ، تركت السلطات الطائرة تقلع مرة أخرى . وقد أدينت اسرائيل فى العالم كله وكذلك مجلس الأمن لهذا العمل الذى يعتبر من اعمال القرصنة الجوية » .

وقد فرض الجنرال ديان (جزئيا) وجهات نظره على الحزب العمالى الذى اقتنع أخيرا « بوثيقة جاليلى » فيما يتعلق بالسياسة الخاصة بالأراضى المحتلة .

١٨ اغسطس : أعلن راديو اسرائيل انه سيتم انشاء ٣٥ قرية يهودية فى الأراضى المحتلة على مدى خمسة أعوام .

٩ اغسطس : كتب الصحفى المصرى انيس منصور فى جريدة الاخبار اليومية « لقد كان هتلر على حق فى استعماله الأفران لحرق جثث اليهود » .

٢٧ اغسطس : يوقع السادات والقذافى اتفاقية لخلق دولة اتحادية بين ليبيا ومصر تدريجيا .

٣ سبتمبر : بعد مناقشات مدوية ، وافقت اللجنة المركزية لحزب العمال على وثيقة جاليلى « بنسبة ٧٨٪ من الأصوات أما السياسيون فقد امتنعوا عن التصويت » .

٥ سبتمبر : أعلن نيكسون فيما يختص بموضوع النزاع العربى الاسرائيلى « أن المعسكرين مخطئان » .

١٢ سبتمبر : تؤكد انتخابات الهيستادروت انخفاض أغلبية العمال فى اسرائيل وارتفاع نسبة الأصوات فى اليمين .

يدعو الرئيس السادات ، الرئيس السورى الأسد والملك الأردنى حسين ، الموجودين بالقاهرة لعقد مؤتمر قمة ثلاثى .

يحتج الفلسطينيون على رد الاعتبار للعاهل الهاشمى .

١٣ سبتمبر : اشتباك جوى بين الفانتوم الاسرائيلية والميراج ٢١ السورية فوق ميناء طرطوس واعلنت اسرائيل تدمير ١٣ طائرة سورية .

١٤ سبتمبر : أعلن الملك حسين العفو العام عن كل المعتقلين السياسيين الاردنيين والفلسطينيين عند عودته الى عمان .

٢٠ سبتمبر : بدات الدبابات المصرية فى التحرك لمنطقة قناة السويس . واعتقدت اسرائيل أن الأمر لا يتعدى مناورات الخريف التقليدية .

٢٤ سبتمبر : أبدت المخابرات المركزية قلقها بشأن عدد الوحدات المشتركة فى هذه المناورات ولكن اسرائيل اكدت عدم قلقها .

صرحت جيروزاليم بوست أن ٣٠٫٠٠٠ عربى قد تركوا الاراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ .

٢٦ سبتمبر : اسرائيل تحتفل براس السنة اليهودية . يشير استفتاء قام به معهد بورى ونشرته جريدة هاآرتس اليومية إن هناك انخفاضا فى شعبية جولدا مائير وارتفاعا فى أسهم القادة اليمينيين .

وقد اشار الجنرال ديان عند زيارة تفتيشية له فى الجولان أنه لا يجهل شيئا عن الحشود السورية على الحدود .

٢٨ سبتمبر : استولى اثنان من الفدائيين الفلسطينيين على بعض المهاجرين اليهود السوفييت بقطار براتسلافا ـ فيينا وحصلا على وعد من مستشار النمسا برونوكرايسكى مقابل اطلاق سراحهم على وعد بأن يغلق مركز التجمع فى شونياو ، الذى أقامته الوكالة اليهودية عام ١٩٦٤ .

٢ اكتوبر : ذهب اللواء احمد اسماعيل ، وزير الدفاع المصرى متوجها الى دمشق ليضع اللمسات الأخيرة على لحظة الهجوم المشتركة ضد اسرائيل .

٣ اكتوبر : اجتماع الوزارة الاسرائيلية ـ اجتماع واحد كل اسبوع ، لم يتناول الا موضوع معسكر شويناو .

الحرب

٦ اكتوبر : علم فى القدس أن الوزارة الاسرائيلية قد اجتمعت فى الساعة الواحدة الا الربع ظهرا فى جلسة غير عادية لدراسة الموقف على خطوط وقف اطلاق النـــار .

وفى الساعة الثانية عبرت القوات المصرية قناة السويس واقامت رأس جسر على الضفة الشرقية ، بينما كان السوريون يقومون بهجوم واسع فى الجولان . جرت معارك جوية وبحرية فى أماكن متعددة فى الشرق الأدنى .

اعلن راديو القاهرة فى الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة عشرة أن العلم المصرى يرفرف على الضفة الشرقية للقنال . وتحدث عسكرى اسرائيلى يؤكد الهجوم العربى وعبور القوات المصرية القناة ولكنه يعلن أن اسرائيل استطاعت اسقاط ثماني طائرات هليوكوبتر مصرية تقل كل منها ثلاثين جنديا .

السلطات العسكرية السورية تطالب بتحرير عدة مواقع وقرى فى الجولان وتؤكد الإستيلاء على جبل الشيخ (جبل هرمون) .

٧ اكتوبر : ناطق عسكرى اسرائيلى يعلن أن القتال مازال مستمرا فى سيناء وفى الجولان وانه أمكن السيطرة على القوات العربية . اعلن البلاغ المصرى رقم ٩ أن القوات المصرية مازالت تتقدم فى سيناء شرقا وذكرت الاذاعة الإسرائيلية أن اسرائيل تسيطر على سماء سيناء وانها استطاعت أن تحطم تسعة جسور من الأحد عشر جسرا المصرية التى أقيمت على القنال الا أن القاهرة كذبت فى بلاغها رقم ١٣ نبأ تدمير هذه الجسور المصرية .

٨ اكتوبر : الطيران الاسرائيلى يستانف هجومه بعد ليلة هادئة فى الجولان لقد بدأ الهجوم المضاد الاسرائيلى فى هذا القطاع . وقد نقل مراسل عسكرى للاذاعة الاسرائيلية أن اسرائيل قد خسرت عدة مواقع فى منطقة قنال السويس ولكن القوات المصرية قد عزلت عن مؤخرتها .

٩ اكتوبر : تمت السيطرة على جبهة سيناء . وفى الجولان يقاوم السوريون بعد أن دعموا بوحدات عراقية (١٦٠٠٠ جندى ومائة دبابة) .

وقد اعترف الجنرال اهارون باريف بأن الحرب ستكون « طويلة ومدمرة» وفى الأمم المتحدة اجتمع مجلس الامن للمرة الثانية دون ان يتوصل الى نتيجة واشنطن التى كانت تتوقع نصراً سريعا لاسرائيل لا تخفى قلقها . بدأ جسر جوى سوفيتى فى تزويد مصر وسوريا بالسلاح .

١٠ أكتوبر : القتال مستمر على الجبهتين فى الجولان تم صد القوات السورية الى ما وراء خط وقف اطلاق النار . الطيران والمدفعية الاسرائيلية . تضربان عدة اهداف فى سوريا ودمشق . اسرائيل تهدد بالانتقام بضرب الأهداف المدنية .

١١ أكتوبر : المقاومة فى سوريا تضعف فقد استمرت القوات الاسرائيلية فى تقدمها على طريق القنيطرة ــ ودمشق . وقد قدمت المخابرات الأمريكية الخسائر الاولية بما يتراوح بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ قتيل فى اسرائيل فى مقابل من ١٠ الى ١٤ الف فى الجانب العربى .

اما فى سيناء فما زالت « حرب المواقع » مستمرة .

١٢ أكتوبر : المصريون يدعمون مواقعهم على الضفة الشرقية للقتال ٥٠٠ مدرعة اضافية تحاول القوات الاسرائيلية السيطرة على جبهة الجولان حتى تستطيع الاتجاه بقوتها نحو الجنوب .

١٣ أكتوبر : بدأت الولايات المتحدة تسلم لاسرائيل معدات حربية بغزارة على الرغم من تحذير العواصم العربية ، وبخاصة الملك فيصل . وفى موسكو استنكرت « وكالة تاس » حرب العصابات التى يقوم بها الطيران اسرائيلى جولدا مائير تعلن انها على استعداد للنظر فى اقتراح لوقف اطلاق النار ، وأبدت تشاؤمها ازاء موقف الجانب العربى .

١٤ أكتوبر : القوات المصرية تقوم عند الشروق بهجوم عنيف فى اتجاه الممرات الثلاثة وهى المداخل الرئيسية لسيناء . اسرائيل تؤكد فى المساء انها قمعت هذا الهجوم . الحكومة الأمريكية تعرض وقف اطلاق النار « فورا » .

موشى ديان يعلن : نحن نقترب من اللحظة الحاسمة كما يعلن المتحدث العسكرى الاسرائيلى رسميا أن هناك ٦٥٦ قتيلا بين القوات الاسرائيلية .

١٥ اكتوبر : القوات التى يقودها الجنرال « اريل شارون » الذى يقود القطاع الأوسط للجبهة الجنوبية تفتح ثغرة بين القوات المصرية وتعبر القنال شمال البحيرات المرة مع حلول الظلام وتولت مجموعة أخرى — التى يقودها الجنرال أدام — يهمه التوغل فى الثغرة .

وفى واشنطن اعلن الرئيس نيكسون « نحن ندافع عن حقوق كل أمة فى الشرق الأوسط على الاحتفاظ باستقلالها وامنها (...) نحن نريد أن يتوقف القتال على أساس أن نتوصل الى سلام دائم » .

وفى دمشق اعلن الرئيس الأسد : « أنها حرب تحرير كاملة » .

١٦ اكتوبر : فى الثالثة صباحا عبرت القناة زوارق من المطاط الأولى المحملة بالمظليين التابعين لقوات الجنرال شارون ، ولكن فى خلال ذلك اليوم استطاع الهجوم المصرى المضاد أن يعزل هذه القوة عن مؤخرتها . وفى القاهرة ، يهدد الرئيس السادات بصواريخه بعيدة المدى ، كما يعلن استعداده لوقف اطلاق النار بشرط أن تنسحب اسرائيل من كل الأراضى المحتلة . وفى القدس أعلنت جولدا مائير فى المساء « هناك حاليا قوة اسرائيلية تقوم بعمليات على الضفة الغربية للقنال وأعربت عن اعتقادها بانه لن يمكن تنفيذ وقف اطلاق النار الا بعد الانتصار على القوات العربية . وفى واشنطن يهدد كيسنجر بأن يرسل قوات الى الشرق الأوسط اذا بعث السوفييت بقوات » .

١٧ اكتوبر : تم اقامة أول جسر اسرائيلى عبر القنال عند الظهر متأخرا عن الموعد الذى حددته رئاسة الأركان بثلاثين ساعة : المدرعات بدات تتدفق على الضفة الغربية لتحاصر الجيش الثانى والثالث المصرى . اليكس كوسيجين فى القاهرة منذ السادس عشر من اكتوبر للتفاوض مع القادة المصريين .

١٨ اكتوبر : تتوالى المعارك حول الثغرة الاسرائيلية فى سيناء بينما توالى واشنطن وموسكو اتصالاتها للتوصل الى اتفاق لوقف اطلاق النار . بدات الدول العربية الحد من انتاجها للبترول .

١٩ اكتوبر : توالى القوات الاسرائيلية تقدمها على الضفة الغربية حيث تدمر عدة قواعد من قواعد صواريخ سام . القاهرة لا تزال تؤكد قضاءها على الهجوم الاسرائيلى ومن الخطأ التأكيد بأن الاسرائيليين يعملون خلف

الخطوط المصرية » . وقد ذهب الجنرال ديان يتفقد قواته على الضفة الغربية للقنال يوم ١٨ من أكتوبر . وقد أعلن أن أول هدف للقوات الاسرائيلية هو تدمير قواعد الصواريخ وان هذا الهدف قد تحقق .

٢٠ اكتوبر : هنرى كيسنجر يسافر الى موسكو حيث اجتمع ببريجنيف وفى واشنطن اعلن نيكسون اعتماد مبلغ ٢ مليار دولار بموافقة الكونجرس لتمويل الجسر الجوى لاسرائيل . ومن الواضح أن الدولتين الكبيرتين قد قررتا أن تلقيان بكل ثقلهما فى الميزان من أجل التوصل الى وقف اطلاق النار . طبقا لما جاء على لسان المتحدث العسكرى ، تقدمت القوات الاسرائيلية فى الضفة الغربية الى عمق ثلاثين كيلو متر .

٢١ اكتوبر : مرة اخرى تعلن القاهرة ان قواتها بسبيل تصفية الثغرة الاسرائيلية وتعلن جريدة الاهرام ان الجنرال شارون قد أصيب باصابة خطيرة . وبالفعل ، كانت عملية حصار الجيش الثالث قد بدأت فى النجاح وطبقا لما جاء على لسان الجنرال « ناركيس » تغلغلت الثغرة بعمق ٤٠ كيلو مترا عرضا و٣٠ كيلو مترا طولا .

٢٢ اكتوبر : روسيا وامريكا تتقدمان بمشروع قرار يحظى بموافقة مجلس الأمن ويقضى القرار بتوقف القتال فى نفس اليوم فى الساعة السابعة عشرة والنصف (أو الثامنة عشرة والنصف بالتوقيت المحلى) مصر تعلن موافقتها على وقف اطلاق النار الذى يجب أن يؤدى ، طبقا لقرار مجلس الأمن تطبيق القرار ٢٤٢ العام ١٩٦٧ . كيسنجر يتوجه الى القدس لاقناع الحكومة الاسرائيلية بأن توافق هى ايضا على ظروف القتال . اسرائيل تقبل فى النهاية . ولكن القتال استمر الى ما بعد الساعة المتفق عليها لوقف القتال . الجانبان يتهم بعضهما البعض بانتهاك وقف اطلاق النار .

٢٣ اكتوبر : استأنف القتال على جبهة القنال . الجيش الاسرائيلى يحاول اتمام الحصار حول الجيش الثالث ويصل الى طريق السويس القاهرة اما دمشق فانها استمرت فى رفض وقف اطلاق النار وبدات بعض العواصم العربية تنتقد استسلام الرئيس السادات . أصدر مجلس الأمن فى السادسة (بتوقيت باريس) قرارا جديدا لوقف اطلاق النار .

٢٤ اكتوبر : قرار وقف اطلاق النار يحظى هذه المرة باحترام الطرفين منذ الصباح فى القنال حيث بدأ مراقبو الأمم المتحدة فى اتخاذ مواقعهم ، تم حصار الجيش الثالث المصرى وفى الخامسة والنصف ، قبل الرئيس الأسد وقف اطلاق النار بدوره ، استمر القتال مع ذلك فى فترة بعد الظهر .

يحاول الجيش الثالث المصرى أن يحطم الحصار . راديو القـــاهرة يعلن فى الساعة التاسعة عشرة ان الرئيس السادات قـد طلب فى برقيـة الى بريجنيف ونيكسون ارسال قوات أمريكية وسوفيتية لتشرف على وقف اطلاق النار .

وعند ما وقف باكوف شابير وزير العدل الاسرائيلى ليخطب امام كتلة حزب العمل فى الكنيست (العمل والمبام) أتهم الجنرال ديان بالاهمال الخطير والغفلة فيما يتعلق بحرب عيد الغفران .

٢٥ اكتوبر : وفى الأمم المتحدة قدمت ثمانى دول أعضاء فى مجلس الأمن مشروع قرار تطالب فيه بانسحاب القوات الى خطوط ما قبل الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الخمسين من يوم ٢٢ اكتوبر وتكوين قوات طوارىء تابعة لمنظمة الأمم المتحدة فوراً (ولكن بعد الظهر قامت بتعديل المشروع متخلية عن المطلب الاخير) .

واشنطن تعلن فى الساعة الحادية عشرة ان حالة الطوارىء أعلنت فى عدة قواعد عسكرية أمريكية .

وفى الساعة السادسة عشرة علم أن نيكسون فى واشنطن وبريجنيف فى موسكو قد ألقيا الكلمات التى كان من المقرر أن يلقيانها فى المساء .

السيناتور جاكسون يصرح بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلنت حالة الطوارىء فى عدة قواعد امريكية نتيجة لخطاب حاد اللهجة وجهته روسيا الي الولايات المتحدة . وأكد السيناتور ان الروس قد بعثوا بالفعل بقوة صغيرة الى الشرق الادنى .

وفى الساعة السابعة عشرة أعلن كيسنجر : « ان هناك حدودا لا يمكن تجاوزها » .

وفى الساعة الثامنة مساء قرر مجلس الامن باجماع أربعة عشر صوتا ضد لا شىء واقناع فرنسا على تكوين قوة طوارىء لا تشترك فيها الدول الخمس الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن . وقد اقتنع الاتحـاد السوفييتى أخيرا بهذا الاقتراح واختفى التوتر الذى جعل الدول الكبرى تدفع بشـبح الحرب النووية الى الوراء . وفى المؤتمر العالمى للدول المحبة للسـلام أعلن بريجنيف « لقد بدأ خطر الحرب العالميــة النووية يتضاءل » وتحركت المجموعة الأولى من قوات الطوارىء التى كانت مرابطة فى قبرص الى الشرق الادنى .

وفى تل أبيب اعلنت جريدة معاريف ان العرب اغلقوا خليج باب المندب .

٢٦ أكتوبر : الجيش الثالث يحاول دون جدوى احداث ثغرة جديدة . القاهرة تتهم اسرائيل أنها تنتهز وقف اطلاق النار لتضم اليها أراضى جديدة . الجيش الاسرائيلى يسمح بمرور عربات الصليب الأحمر الدولى التى تنقل الدم والبلازما للجيش الثالث المصرى .

اعلن نيكسون فى مؤتمر صحفى أن حالة الطوارىء بين القوات الأمريكية قد انتهت .

٢٧ أكتوبر : الأزمة الدولية تهدا . بريجنيف يؤكد انه ارسل مندوبين الى القاهرة . موسكو تذكر أن عددهم ١٢٠ شخصا وواشنطن تقول انهم ١٠٠٠ .

أمريكا تنتقد بعنف موقف أوربا بالنسبة للمشكلة . يبدو ان احترام وقف اطلاق النار يسود الجبهات ولكن موقف قوات الجيش الثالث ما زال حرجا . اسرائيل تؤكد أنها احتلت جزءا من مدينة السويس وأنها تسيطر على طريق القاهرة السويس على بعد ١٠١ كيلو مترا من العاصمة المصرية .

٢٨ أكتوبر : تنفيذ قرار وقف اطلاق النار بالرغم من حدوث بعض الصدامات والسماح بمرور امدادات الاعاشة الى الجيش الثالث . بعد الظهر بدأت قوات الطوارىء أن تأخذ أماكنها فى مراكز المراقبة فى السويس والاسماعيلية . واشنطن تضغط على القدس لاحترام وقف اطلاق النار . وفى الليل ، تم اللقاء بين الضباط الاسرائيليين والمصريين عند الكيلو ١٠١ على طريق السويس ـ القاهرة لأول مرة منذ ١٩٥٦ .

٢٩ ـ أكتوبر : المملكة العربية السعودية والدول العربية المنتجة للبترول تقرر منع ضخ البترول عن هولندا لموقفها الموالى لاسرائيل . رفع حالة الطوارىء تدريجيا عن كل القواعد الأمريكية فى الولايات المتحدة وأوروبا . الضباط المصريون والاسرائيليون يلتقون يوم ٢٨ أكتوبر عند الكيلو ١٠١ لمناقشة مشكلات الأسرى .

الرئيس الأسد يقول انه اضطر لقبول وقف اطلاق النار حتى لا يسبب حرجا لمصر ولكنهم اعطوه ضمانات بالجلاء عن الأراضى المحتلة . « مائير » تؤكد من جانبها أن هناك اعتبارات سياسية منعت اسرائيل من القضاء على الجيش الثالث . لقد اوقفونا فى اللحظة الحاسمة » .

بدأت القوافل تصل بالطعام والأدوية الى الجيش الثالث .

٣٠ اكتوبر : مصر تقبل تسليم قائمة باسماء الأسرى الاسرائيليين الى الصليب الأحمر الدولى . اسرائيل تعلن : لديها سبعة آلاف أسير عربى (منهم ٦٨٠٠ مصرى اما الأسرى الاسرائيليون الذين ناقش الكنيست حالتهم فى جلسة خاصة ، فقد وصل عددهم الى ٤٥٠ (٣٥٠ منهم فى مصر) . نيكسون يستقبل فى كامب دافيد سفير الاتحاد السوفييتى مسيو ديرونين .

٣١ أكتوبر : جولدا مائير تتوجه الى واشنطن فى الوقت الذى كان نيكسون مشغولا فيه منذ خمس واربعين دقيقة بمقابلة مبعوث الرئيس السادات ، السيد حافظ اسماعيل . وفى القاهرة ، اعلن الرئيس المصرى زيارة كيسنجر حيث يضع معه أسس السلام . انور السادات يعلن أن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة قد أعطياه الضمان بجلاء اسرائيل عن الأراضى المحتلة واستبعد فكرة قيام محادثات مباشرة مع اسرائيل . فى بيروت أعلنت جريدة لبنانية أن الاتحاد السوفيتى قد دعا الفلسطينيين للاشتراك فى مؤتمر السلام . ما زالت ازمة الشرق الأدنى تثير المناقشات بين الولايات المتحدة واعضاء حلف الاطلنطى . فرنسا تقترح على الدول التسع « عقد مؤتمر قمة أوربى » .

أما فى السويس فان تموين الجيش الثالث يتم ببطء شديد وفى اسرائيل يحتج الرأى العام على هذا التسامح « تجاه جنود مصريين وافقت القدس على اغاثتهم . ست عشرة دورية لمراقبى الأمم المتحدة تتخذ مواقعها على خطوط وقف اطلاق النار . اما الحكومة الجزائرية ، فقد قطعت الصمت الذى التزمته منذ وقف اطلاق النار ، لتؤكد مساندتها للدول العربية المعنية وللفلسطينيين » حتى يتم التحرير التام لكل الأراضى .

١ نوفمبر : تبدأ مائير سلسلة من المباحثات مع نيكسون . بينما الهدوء النسبى ما زال يسود خط وقف اطلاق النار . أصبح عدد قوات الطوارىء ٧٠٠ شخص (من النمسا والسويد وفنلندا وايرلندا) .

فى دمشق رفضت الحكومة السورية ان تبعث قائمة باسماء الأسرى الاسرائيليين طالما لم تتعهد اسرائيل علنا باحترام معاهدة جنيف . فأجابت القدس بأنها قد طبقت بنود القاهرة جنيف دائما .

٢ نوفمبر : تدور مناورات دبلوماسية مكثفة ، وبخاصة فى واشنطن للاعداد لمؤتمر ومفاوضات سلام . كيسنجر يجتمع على التوالى بجولدا مائير واسماعيل فهمى وزير الخارجية المصرى ودبلوماسى سورى هو محمد زكريا اسماعيل . فى الامم المتحدة يوافق مجلس الأمن على بعث قوات بولندية

وكندية الى الشرق الأدنى . وعلى اثر زيارة استمرت أربعة ايام للقاهرة ، رجع كوزنتسزوف نائب وزير الخارجية السوفيتى الى موسكو .

وفى اسرايل تستمر المناقشات حول قصور الجيش ساعة الهجوم فى يوم كيبور فى جو من الخلاف ، ينتقد الجنرال حاييم بارليف عدم كفاءة بعض قادة الجيش فى حديث بجريدة « معاريف » . الحكومة تعلن تعديل رئاسة الأركان ويتحدث الجنرال ديان عن امكانية استئناف القتال .

٣ نوفمبر : على الرغم من لقاء جديد بين الضباط المصريين والاسرائيليين عند الكيلو ١٠١ ، يتهم الطرفان بعضهما بعضا بخرق وقف اطلاق النار .

٥ نوفمبر : بينما يقوم كيسنجر بجولة فى العواصم العربيـة ، توافق الدول « التسعة » على قرار ضرورة جلاء اسرائيل عن الأراضى المحتلة . يبدو أن الرئيس الجزائرى هوارى بومدين قد انضم اثر سلسلة من الزيارات للدول العربية الى سوريا مؤيدا فكرة عقد مؤتمر « قمة » عربى .

عرض التليفزيون الاسرائيلى حديثا مع أول أسير أفرجت عنه مصر ، وهو الكاتب « دان إفيدام » الذى كان أسيرا منذ أربعة اعوام .

اسرائيل تلفت نظر الأمم المتحدة الى ان السوريين قد قتلوا بعض الأسرى فى الجولان .

٧ نوفمبر : اول مقابلة بين كيسنجر والرئيس السادات فى قصر الطاهرة وفى نهاية اليوم أعلن متحدث من وزارة الخارجية أن مصر والولايات المتحـدة قد أعادوا العلاقات الدبلوماسية بينهما . هنرى كيسنجر يصرح « أرى اننا نتقدم نحو السلام » . القدس تتهم أوروبا بأنها تميل الى المعسكر العربى .

٩ نوفمبر : القاهرة والقدس توافقان على خطـة كيسنجر فى سـت نقاط ، سبقت البداية القريبة لمؤتمر السلام فى جنيف . سوريا تخشى أن تتولى هى العملية ويرى الفلسطينيون انفسهم مبعدين من مشروع التسوية ايبان يعلن عند سفره الى واشنطن « نحن على ابواب مرحلة جديدة فعلا » .

١١ نوفمبر : فى الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر ، تم الاتفاق على ترتيبات وقف اطلاق النار والافراج عن الأسرى عند الكيلو ١٠١ وقد وقعها اللواء المصرى « عبد الغنى الجمسى » عن الجـانب المصرى وعن الجـانب الاسرائيلى « أهارون ياريف » .

١٢ نوفمبر : خلافات حول « اتفاقية كيسنجر » الخاصة بتموين الجيش الثالث والفصل بين القوات بعض الاشتباكات على طريق السويس ـ القاهرة القدس تتساءل عن مدى الفرص الحقيقية لعقد مؤتمر للسلام « الجنرال » ديان يعترف فى كلمة له انه قد فوجىء بالحرب . أما الجزائر فقد اسفت لأن الحرب قد انتهت بسرعة .

١٨ نوفمبر : الحكومة الاسرائيلية توكل إرئيس المحكمة العليا « شايمون اجرانات » مهمة اللجنة التى ستبحث الظروف التى سبقت الحرب . اصيب بن جوريون بنزيف نقل بسببه الى مستشفى تل هاشومير بالقرب من تل أبيب .

١٩ نوفمبر : وصل ١٤٤ أسيرا مجموعة أولى من الأسرى المصريين الجرحى الى مطار القاهرة كما يصل الى مطار اللد فى تل أبيب ١٦ أسيرا اسرائيليا .

٢٠ نوفمبر : وفد من منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات يصل فى الصباح الى موسكو .

٢٢ نوفمبر : الحكومة اليابانية تتخلى عن سياسة الحياد فى الشرق الادنى تحت ضغط الدول العربية ، وتطلب الى اسرائيل أن تجلو فى مدى قصير عن كل الأراضى المحتلة . وخلال مؤتمر صحفى ، يحذر كيسنجر الدول العربية من استعمال ضغوط بترولية « متهورة » وتهددهم الولايات المتحدة باتخاذ اجراءات اقتصادية انتقامية .

٢٣ نوفمبر : الجنرال موشى ديان يعلن أمام اعضاء القضاء فى تل ابيب لن يكون هناك مكان لاسرائيل حتى فى اطار السلام . يجب أن تبقى الاردن حدود امن يجب ان تظل أجهزة الرادار فى مكانها فوق مرتفعات نابلس . يجب أن تبقى اسرائيل فى شرم الشيخ واذا اضطر الأمر الى ضمان حرية الملاحة فى مضيق باب المندب . (. .) هناك تناقضات بين اسرائيل والولايات المتحدة فيما يتعلق بمشكلات الحدود .

٢٦ نوفمبر : اجتماع رؤساء الدول والحكومات العرب فى الجزائر .

٢٧ نوفمبر : الحكومة الاسرائيلية توافق على يوم ١٨ من ديسمبر بداية لمؤتمر جينيف المقابلة المصرية الاسرائيلية ما زالت مستمرة عند الكيلو ١٠١ .

٢٨ نوفمبر : يعترف مؤتمر القمة فى الجزائر الذى ينهى أعماله بمنظمة التحرير الفلسطينية . الملك حسين يهدد بعدم الاشتراك فى مؤتمر جينيف . اتهام الجنرال ديان أمام الحزب العمالى الاسرائيلى توقف محادثات الكيلو ١٠١ بطلب من القاهرة ، ما زال الخلاف قائما حول مشكلات الفصل بين القوات .

٣٠ نوفمبر : ابا ايبان يصرح « لن يتم السلام بشروط مؤتمر الجزائر » الذى يوضح أن اسرائيل لن تقبل اشتراك ياسر عرفات فيه لأن « أيدلوجيته تقوم على أساس معارضة الوجود الاسرائيلى نفسه » . الولايات المتحدة تحاول ان تعيد استئناف محادثات الكيلو ١٠١ .

١ ديسمبر : وفاة دافيد بن جوريون فى مستشفى تل هاشومير عن ٨٧ عاما .

٥ ديسمبر : محاولات الضفة الغربية والقدس تشير الى تصاعد نشاط الفدائيين فى الأراضى المحتلة .

٦ ديسمبر : كيسنجر يعلن قبل ان يقوم بجولة جديدة فى الشرق الادنى : « نحن نعتبر مؤتمر جينيف يوشك ان يبدأ فى ١٨ من ديسمبر » . فى اسرائيل استطاعت دعائم حزب العمال ان تتفادى الازمة ودعمت مكانة جولدا مائير . تم وضع قاعدة انتخابية جديدة لتحل مكان « وثيقة جاليلى » .

٨ ديسمبر : محاولة جديدة للفدائيين فى غرب الاردن حيث أصيب الحاكم العسكرى لمدينة نابلس ونسف الجيش الاسرائيلى خمس منازل كان هنـاك شك فى وجود فدائيين بها .

١٠ ديسمبر : طرد ثمانية من كبار الأعيان العرب من غرب الاردن المحتلة لقيامهم « بنشاط مشبوه » الجنرال ديان يتهم سوريا مرة أخرى بأنها قامت بقتل بعض الأسرى الاسرائيليين واعلن امام الكنيسست « ان اسرائيل لن تذهب الى مؤتمر جينيف اذا لم تعلن سوريا عن أسماء الأسرى الاسرائيليين الذين هم لديها .

١٢ ديسمبر : فى مصر ، حل اللواء عبد الغنى الجمسى مكان اللواء الشاذلى فى رياسة الأركان بالجيش المصرى . كمـا تمت بعض التغييرات الاخـرى فى القيادات العسكرية المصرية .

١٣ ديسمبر : كيسنجر يحذر فى خطاب طويل فى لندن « الدول الاوروبية التسع » فى حلف الاطلنطى من اى انشقاق ضد الولايات المتحدة ويقترح على الدول المستهلكة للبترول أن تكون منظمة مشتركة ويحث العرب والاسرائيليين على التخلص من العقبات الأخيرة . كيسـنجر يقـابل الرئيس السـادات مرة اخرى مقابلة طويلة .

١٥ ديسمبر : كيسنجر يصل دمشق ويقابل الرئيس الأسد قبل أن يتجه الى الاردن ولبنان ثم اسرائيل . قررت الدول الأوروبية « التسع » فى أعقاب مؤتمر القمة الذى عقد فى كوبنهاجن أن يجتمعوا بين وقت وآخر وفى المسـاء اعلن أن مؤتمر جينيف قد تم تأجيله الى ٢١ من ديسمبر .

١٦ ديسمبر : كيسنجر يحاول ان يقضى على القلق الذى استقبل به فى اسرائيل ويطمئن القادة الاسرائيليين ويحاول أن يتخطى العقبات الأخيرة قبل بدء مفاوضات جينيف .

١٧ ديسمبر : استولى احد الفدائيين الفلسطينيين على طائرة بوينج ٧٣٧ تابعة لشركة لوفتهانزا الالمانية فى مطار رومافيوميتشينو بعد أن أشعل النار فى طائرة تابعة لشركة « بان أمريكان » وراح العشرات ضحية الحادث .

٢١ ديسمبر : بدأ مؤتمر جينيف للسلام فى الشرق الأدنى ، ولم تشترك سوريا فيه . كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة يعلن « هذه فرصة فريدة لطرق مشكلة دولية غاية فى الحساسية والخطورة والتعقيد » . كيسنجر يقدم خطة سلام من ٦ نقاط جروميكو يطالب بالجلاء الفورى عن الأراضى المحتلة يتم تكوين مجموعة عمل عسكرية من أجل الفصل بين القوات .

٢٧ ديسمبر : صدامات عديدة على الجبهة الاسرائيلية المصرية .

٢٩ ديسمبر : تؤكد جولدا مائير بمناسبة الانتخابات العامة أن اسرائيل لن تتخلى عن كل الأراضى المحتلة .

٣١ ديسمبر : تشير الانتخابات الاسرائيلية الى تدهور مركز حزب العمال قليلا وارتفاع مكانة كتلة ليكود .

١٨ يناير ٧٤ : فى الساعة الحادية عشرة والنصف (بتوقيت فرنسا) تم الاتفاق الخاص بالفصل بين القوات الاسرائيلية والمصرية وتم التوقيع عليه عند الكيلو ١٠١ ويتضمن انسحاب القوات الاسرائيلية ثلاثين كيلو مترا خلال أربعين يوما الى الوراء شرق القنال على خطوط المرات وتخفيض القوات المصرية على الضفة الشرقية الى ٧ آلاف او ثمانية آلاف جندى انشاء منطقة منزوعة السلاح تصل الى عشرة كيلو مترات بين الجيشين تشغلها قوات الطوارىء . سحب بعض أنواع الأسلحة (الصواريخ) من مواقعها المتقدمة .

قوبل توقيع هذه الاتفاقية فى القاهرة بالفرح الشديد كما قوبل بارتياح فى اسرائيل . دمشق تخشى من جانبها أن تتم معاهدة سلام بين القاهرة والقدس وموسكو قلقه من « اللعبة » المصرية وتصفها بانها « موالية تماما لأمريكا » .

٢٢ يناير : البرلمان الاسرائيلى يوافق على اتفاقية الفصل بين القوات . الرئيس السادات يمتدح سياسة الرئيس نيكسون . القوات الاسرائيلية تبدأ فورا ، دون انتظار التاريخ المتفق عليه وهو يوم ٢٥ يناير فى الجلاء عن الضفة الغربية للقنال .

٢٤ يناير : وثيقة جديدة تحدد مراحل الانسحاب الاسرائيلى توقع عند الكيلو ١٠١ فى احتفال شبه رسمى .

٢٦ يناير : وقوع صدامات عديدة فى الجولان .

٣١ يناير : الحكومة المصرية تعلن عن نيتها فى بدء عملية تطهير قنـــاة السويس واعادة تعمير مدن القنال التى هدمت منذ ١٩٦٧ .

٥ فبراير : ابا ايبان يذكر أن اسرائيل لن تتفاوض مع سوريا الا عندما تنفذ مطالبها المتعلقة بقائمة الأسرى الاسرائيليين لديها . مشكلة الأسرى تثير مناقشات حادة فى اسرائيل حيث ترددت الشائعات بان جولدا مائير تميـل الى أن تصبح اكثر مرونة . وتتهم المعارضة اليمينية ، الحكومة بانهـا قـد « رضخت للتهديد » :

٨ فبراير : جولدا مائير تعلن « ان كل مستعمرة اسرائيلية فى الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل ولا أظن أن اسرائيل ستعود الى خطـــوط وقف اطلاق النار التى كانت عليها فى عام ١٩٦٧ وهذا يشمل القنيطرة ايضا .

١١ فبراير : اذاعة اسرائيل تعلن انه سيتم قريبا بناء مدينة يهودية فى الجولان تستوعب من ثمانية الى عشرة آلاف شخص .

١٢ فبراير : الاشتباكات بين القوات الاسرائيلية والسـورية تتضاعف عنفا وتزداد عنفا فى الجولان .

١٤ فبراير : موشى ديان يقول : « يجب ان نبقى فى مرتفعات الجـولان ولذا علينا أن ندفع الثمن . ولدينا القوة الضرورية لدفع هذا الثمن » .

١٩ فبراير : الجنرال ديان يهدد بالانسحاب من الحكومة احتجاجا على الحملة المعادية ضده فى قلب الحزب العمالى نفسه .

٢٠ فبراير : جولدا مائير اخذت تستعد فى اعقاب انسحاب الحزب الدينى القومى فى الانتخابات لتكوين حكومة اقلية (٥٨ صوتا فى مقـابل ١٢٠ فى الكنيست) وبعد اسابيع من المناقشات تكون حكومة يشـترك فيهـا ديان واعضاء الحزب القومى الدينى .

٢١ فبراير : آخر جندى اسرائيلى يغادر الضفة الغربية للقناة .

٢ مارس : اعلان قائمة الأسرى الاسرائيليين فى سوريا (٦٥ اسيرا)

ملحق
قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢
فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧

ان مجلس الأمن اذ يعبر عن قلقه المستمر للموقف الخطير فى الشرق الأوسط ، ويؤكد عدم شرعية الاستيلاء على الأراضى عن طريق الحرب والحاجة الى سلام دائم، تستطيع أن تعيش فيه كل دول المنطقة .

واذ يؤكد ايضا أن جميع الدول الاعضاء عندما قبلت ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالتصرف وفقا للمادة الثانية فى الميثاق .

١ – يعلن أن تطبيق مبادىء الميثاق يتطلب اقامة سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط وهذا يقتضى تطبيق المبدأين التاليين :

(أ) انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى التى احتلتها فى النزاع الأخير .

(ب) أن تنهى كل الدول حالة الحرب وأن تحترم وتقرر الاستقلال والسيادة الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة وحقها فى أن تعيش فى سلام فى نطاق حدود مأمونة ومعترف بها متحررة من أعمال القوة أو التهديد بها .

٢ – ويؤكد المجلس الحاجة الى :

(أ) ضمان حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية فى المنطقة .

(ب) تحقيق تسوية عاجلة لمشكلة اللاجئين .

(جـ) ضمان حدود كل دولة فى المنطقة واستقلالها السياسى عن طريق اجراءات من بينها انشاء مناطق منزوعة السلاح .

٣ – يطالب المجلس من السكرتير العام بأن يعين ممثلا خاصا الى الشرق الأوسط لاقامة اتصالات مع الدول المعنية بهدف المساعدة فى الجهود للوصول الى تسوية سلمية ومقبولة على أساس النصوص والمبادىء الواردة فى هذا القرار .

٤ – يطلب من السكرتير العام أن يبلغ المجلس بمدى تقدم جهود المبعوث الخاص فى أقرب وقت ممكن .

القرارات الثلاثة الخاصة بوقف اطلاق النار والخاصة بارسال قوات الطوارىء الدولية في اكتوبر ١٩٧٣

(أ) القرار الاول رقم ٣٣٨ بناء على دعوة مشتركة من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بأربعة عشر صوتا ضد لا شيء ودون امتناع أحد عن التصويت (دولة واحدة هى الصين لم تشترك فى التصويت) .

الفقرة الأولى :

يدعو مجلس الأمن جميع الأطراف فى القتال الدائر الى وقف اطلاق النار كافة والانهاء الفورى لكل نشاط عسكرى فى مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة بعد لحظة اقرار المجلس لهذا القرار ، وذلك فى المواقع التى يحتلونها الآن .

الفقرة الثانية :

يدعو مجلس الأمن كل الأطراف المعنية الى البدء فورا بعد وقف اطلاق النار فى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ بجميع اجزائه .

الفقرة الثالثة :

يقر مجلس الأمن ان تبدأ المفاوضات فورا ، وفى وقت واحد مع وقف اطلاق النار ، بين الأطراف المعنية تحت الاشراف الملائم ، بهدف اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط .

(ب) القرار الثانى رقم ٣٣٩ بناء على دعوة مشتركة من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى يوم ٢٤ من اكتوبر (ولم تشترك الصين ايضا فى هذا التصويت) .

« مجلس الأمن اذ يشير الى قراره رقم ٣٣٨ ، (١٩٧٣) الصادر بتاريخ ٢٢ من أكتوبر (١٩٧٣) » :

١ — يؤكد قراره بشأن الوقف الفورى لجميع اشكال اطلاق النار وكل الأعمال العسكرية ويدعو بالحاح الى اعادة قوات الجانبين الى المراكز التى كانت تحتلها لحظة سريان وقف اطلاق النار .

٢ ـ يطلب الى السكرتير العام اتخاذ التدابير لارسال مراقبى الامم المتحدة فورا للاشراف على مراعاة وقف اطـــلاق النـــار بين قوات اسرائيل وجمهورية مصر العربية ، مستخدما لهذا الغرض افراد الأمم المتحـــدة الموجودين الآن فى الشرق الأوسط وأولهم الأفراد الموجودون بالقاهرة .

(جـ) القرار الثالث تمت الموافقة عليه يوم ٢٥ من أكتوبر بناء على ١٣ صوتا (مع امتناع فرنسا) . (وعدم اشتراك الصين فى التصويت) .

مجلس الأمن اذ يشير الى القرارات ٣٣٨ (١٩٧٣) الصادر فى ٢٢ من اكتوبر ١٩٧٣ ، ٣٣٩ (١٩٧٣) الصادر فى ٢٣ من اكتوبر ١٩٧٣ والى الانتهاكات المتكررة لوقف اطلاق النار التى تتعارض مع القرارات ٣٣٨ ، ٣٣٩ اللذين اشير اليهما ويعرب عن قلقه طبقا لما جاء فى تقرير السكرتير العام من أن المراقبين العسكريين للأمم المتحدة لم يتسلموا حتى الآن مراكزهم على خطى وقف اطلاق النار .

١ ـ ولذا تلح الأمم المتحدة فى اصرار على مراعاة تنفيذ قرار وقف اطلاق النار فورا وكاملا وان يعود الجانبان المشتركان فى القتال الى المراكز التى كانوا يحتلونها لحظة سريان قرار ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

٢ ـ تطلب الى السكرتير العـــام ، اتخـــاذ التدابير لزيادة عـــدد المراقبين العسكريين المرسلين من الأمم المتحدة فورا الى الجانبين .

٣ ـ وقد قرر مجلس الأمن تكوين قوة طوارىء دولية تحت اشرافه سوف يتكون افرادها من الدول العضوة فى المنظمة من غير الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ويرجو السكرتير العام أن يقـــدم تقـــريرا خلال أربع وعشرين ساعة عما تم فى هذا الموضوع .

٤ ـ يطلب من السكرتير العام تقديم تقرير عاجل وتتبعه للحالة التى يتم بها تنفيذ هذا القرار وكذلك القرارات ٣٣٨ (١٩٧٣) ، ٣٣٩ لسنة ١٩٧٣ .

٥ ـ يرجى من كل الدول الأعضاء التعاون مع منظمة الأمم المتحدة على تنفيذ هذا القرار وكذلك القرارات ٣٣٨ (١٩٧٣) ، ٣٣٩ (١٩٧٣) .

نص اتفاق الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية الموقع فى ١٨ يناير ١٩٧٤ عند الكيلو ١٠١ على طريق السويس

أ) تحترم مصر واسرائيل بدقة وقف اطلاق النار على الأرض والبحر والجو ، الذى دعا اليه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وسوف يمتنعان من وقت توقيع هذه الوثيقة عن كل الأعمال العسكرية وشبه العسكرية احدهما ضد الآخر .

(ب) سيجرى الفصل بين القوات العسكرية لمصر واسرائيل وفقا للمبادىء التالية :

١ ـ سوف تتوزع وتنتشر كل القوات المصرية على الجانب الشرقى من القناة غرب الخط الموصوف بخط (أ) على الخريطة المرافقة وسوف تتوزع وتنتشر كل القوات الاسرائيلية ـ بما فيها القوات ـ غرب قناة السويس على البحيرات المرة ـ شرق الخط الموصوف بخط (ب) على الخريطة المرافقة .

٢ ـ ستكون المنطقة الواقعة بين الخطين المصرى والاسرائيلى منطقة فصل ترابط فيها قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة . وستظل هذه القوة مشكلة من وحدات من الدول التى ليست أعضاء فى مجلس الأمن .

٣ ـ سوف تكون المنطقة الواقعة بين الخط المصرى وبين قناة السويس منطقة أمن .

٤ ـ سوف تكون المنطقة الواقعة بين الخط الاسرائيلى (خط ب على الخريطة المرافقة) والخط الموصوف بخط (جـ) على الخريطة المرافقة والذى يمتد من سفوح الجبال التى تقع فيها ممرات جدى وميتلا ، منطقة أمن .

٥ ـ سوف تقوم قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة بالتفتيش على التحديدات المشار اليها فى الفقرة ٣ والفقرة ٤ وستستمر الاجراءات الحالية لقوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة ، بما فيها الحاق ضباط اتصال مصريين واسرائيليين بقوة الطوارىء .

٦ ـ سوف يسمح القوات الجوية لكلا الجانبين بالعمل حتى خطيهما دون تدخل من الجانب الآخر .

(جـ) سوف يقوم المثلون العسكريون لمصر واسرائيل بعملية التنفيذ المفصل للفصل بين القوات ، وسوف يوافقون على مراحل هذه العملية . وسوف يجتمع هؤلاء المثلون فى موعد لا يتجاوز ٤٨ ساعة بعد توقيع هذا الاتفاق ، عند الكيلو ١٠١ وتحت رعاية الأمم المتحدة لهذا الغرض وسوف يكملون هذه المهمة فى خلال خمسة أيام . وسيبدأ الفصل فى خلال ٤٨ ساعة بعد اتمام عمل المثلين العسكريين ، بحيث لا يتجاوز بأى حال ٧ أيام من توقيع هذا الاتفاق . وسوف تتم عملية الفصل فى موعد لا يتجاوز ٤٠ يوما بعد بدايتها .

(ب) أن هذا الاتفاق لا يعد من جانب مصر واسرائيل اتفاق سلام نهائى انه يشكل خطوة أولى صوب سلام نهائى عادل ودائم طبقا لبنود وقرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ وفى اطار مؤتمر جنيف .

من الجانب المصرى اللواء عبد الغنى الجمسى
رئيس أركان القوات المسلحة المصرية

ومن الجانب الاسرائيلى جنرال دافيد اليعازر
رئيس أركان القوات المسلحة الاسرائيلية

الفهرس

صفحة

صفحة

ثلاث خرائط تبين الهجوم على الدفرسوار

وزارة الإعـــلام
الهيئة العامة للاستعلامات